

تَرَانِيمُ رُوحٍ  
وَإِسْتِجَارُ قَلْبٍ



مُحَمَّدُ فَتْحُ اللَّهِ كَوْلَنَ

تَنْزِيلِ رُوحٍ  
وَإِنْجَانِ قَلْبٍ

ترجمة كتاب

## Çağ ve Nesil Serisinden Derlemeler

عن التركيبة



### دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الرابعة: 2008م - 1428هـ

Emniyet Mah. Huzur Sok. No: 5

34676 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +902163184288 Faks: +902163185220

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة

تليفون وفاكس: +٢٠٢٢٦٣١٥٥١

المحمول: +٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨

جمهورية مصر العربية

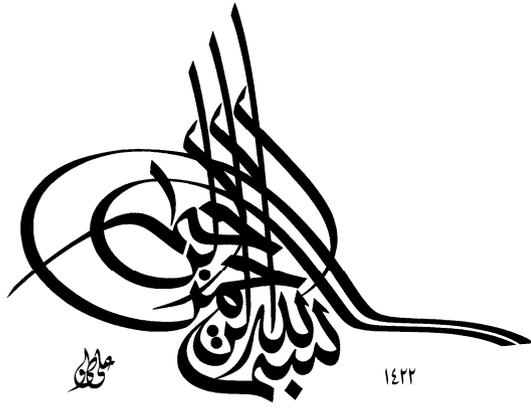
[www.daralnil.com](http://www.daralnil.com)

تَزَانِيمُ رُوحٍ  
وَإِسْتِجَابَاتُ قَلْبٍ

تأليف

مُحَمَّدُ فَتْحُ اللَّهِ كُولِينُ

الْمُرْتَجِمُ : أَوْرَخَانُ مُحَمَّدَ عَلِي



## المقدمة

يدق الأستاذ "محمد فتح الله كولن" في هذا الكتاب على أبواب القلب، يطرق ويدم الطرق: "افتح يا قلب... دعني أَلج بكلماتي إليك... دعني أعالج أغلاق حزائنك... دعني أكشف عن أسرار مداخلك... دعني أطلق قواك الخفية... وأدير مفتاح الفهم عن الله في روحك... دعني أبتعث فيك مواجيد الحنين... دعني أنفض عن أهداب روحك نعاس السنين... دعني أشق أكفان الموت عنك... دعني أهدد ضبايات الأرض التي تغشى وجودك... دعني أنقش صورة الآخرة على صفحة الشغاف منك... دعني أعرّف ذاتك بذات الكون... دعني أعقد معرفة بينك وبين الطبيعة... وصلحاً بينك وبين شقيقك الإنسان..!"

والأستاذ فتح الله كما هو قمة عالية في أفكاره الإيمانية والدينية، فهو كذلك قمة عالية في قدراته الأدبية والفنية، يجمع بينهما بجدارة واستحقاق، ومن هنا تأتي كتاباته مزيجاً من الاثنين معاً، فتتميز وتنفرد مذاقاً وأسلوباً.

فهذا الكتاب مجموعة مقالات افتتاحية يواصل الأستاذ كتابتها في مجلة الرشحة (Sızıntı) الشهرية، وهي تؤكد ما ذهبنا إليه من هذا المزج بين القدرة الدينية والقدرة الأدبية عند هذا الرجل، يعالج فيها قضايا إيمانية عظيمة الأهمية بأسلوب أدبي رشيقي يستطيه وينحذب إليه القراء مهما كانت مستوياتهم الثقافية والفكرية.

وأفكار "كولن" كيانات حيّة تنبض بالحياة، لأنها بعض نفسه، وبعض من فلذات روحه وقلبه، زَقَّهَا حبات الروح، وسقاها دم القلب قبل أن تنضج وتستوي وتأخذ طريقها إلى عقول القراء وقلوبهم.

ولا شيء من الوصف يصدق على الرجل كما يصدق عليه وصفنا بأنه روح عظيم حَوَّامٌ فوق عظيم الأفكار بدافع من شرف المحتد، ونبل الخلق، وطهارة الضمير، وهو كثير الانطلاق إلى مواطن الذكرى من التاريخ الذي ينتمي إليه، حتى غدا قلبه غابة شجن ووَجْد، ودمعته ينبوع حرقة وكمد، يكاد يتمزق عندما يَمُرُّ على أطلال حضارة كانت يوماً ما ملاً عين العالم وسمعه، أو يُقَلَّبُ صفحات دين مهجور جفاه أهله، ونأى عنه القريب قبل الغريب. وجهل ناسه مواطن العظمة فيه فنسوه وأهملوه.

إنه يسجل في هذه المقالات أظهر مشاعره، وأقدس أحاسيسه، وهو يحوم حول الكعبة المشرفة التي يرى أنها سرّة العالم، ونقطة المركز من الأرض، وصلة الوصل بين الأرض والسماء.

وأما القبة الخضراء - وما أدراك ما القبة الخضراء - فعندها يذوب الحشا ويركع القلب، وتخشع الروح، وتتسكب العبرات، وتتقطع الأنفاس، ويرتفع أنين الشوق حتى يلامس السماء. إنه في الحضرة المحمدية التي يتمنى أن يكون ذرة في ترابها قدما أظهر إنسان مشى على وجه البسيطة.

ويعضي في سُرَاه حتى يصل بيت المقدس وقبة الصخرة، وينثر هناك فوق هذه الصخرة التي عرج منها الرسول ﷺ إلى السماء مدامع قلبه، ودفقات حنينه، وومضات أشواقه، إنه يصغي إلى الصخرة العتيدة وهي تحكي قصة التاريخ الروحي للبشرية منذ آدم ﷺ إلى خاتمهم محمد ﷺ.

ويعضي عائداً فيتحدث عن "آيا صوفيا" الصرح التاريخي العتيد، وعن جامع "السلطان أحمد" الذي يقوم شامخاً قبالتها يتحدى عظمتها ويعتلي فوق هامتها ويلمعة من لمعات روحه يكتشف سرّ ذلك، ويتعرّف على خفايا

الرمز الذي يربط بين الصرحين العظيمين، وعن المعاني الروحية الكامنة في سرّ الأحمدية "التي يستمد الصرحان منه الكثير من هيئتهما". وسيجد القارئ إلى جانب هذه الموضوعات التي استعرضناها آنفاً، موضوعات أخرى نذكر منها على سبيل المثال الآتي: العيد، العالم السري للمعابد، الدعاء، إحساس آخر بالزمن، وموضوعات أخرى سيلتقيها القارئ على صفحات هذا الكتاب.

أمل أن أكون قد وفّقتُ -إلى حد ما- برسم بعضٍ من ملامح هذا الكتاب وسماته العامة. وأغلب ظني أن القارئ الكريم سينتهي منه وقد استمتع بموضوعاته المتنوعة وأفاد الكثير منها، والله تعالى من وراء القصد.

أديب إبراهيم الدباغ



## سحر الإسلام

وصلت مغامرة الإنسانية على هذه الأرض بالإسلام إلى هدفها كرسالة إنقاذ عالمية استقرت وتأصلت فيها. أما الفلسفة التي ما فتئت حائرة أمام لغز الوجود، فقد استطاعت بفضل نظم التفكير المتميزة والمتفردة التي جاء بها الإسلام أن تعود لنفسها قليلا وأن تتمتع ببعض الأشياء الإيجابية. لقد تخلصت الأجرام والأجسام الهائلة الموجودة في الأرض وفي السماء -بفضل النور الذي سلطه الوحي على وجوهها- من كونها مجرد أجسام فضائية معقدة، وتحولت إلى معارض هائلة وإلى كتب للقراءة والتأمل، وإلى أنعام متناسقة تأخذ بالألباب وتدير الرؤوس، وإلى ألسنة بليغة وطلقة تهتف وتفتشي -في إطار حكمة خلقها- أسرار ما وراء خلقها. وأصحاب القلوب المحظوظة الذين تيسر لهم أن ينهلوا مرة واحدة من ينبوع الإسلام المتفجر، دوما بالماء السلسبيل يصلون إلى متعة الشعور بلذة الوجود الأبدي وسعاده، فيتخلصون من شقاء الوحدة واليأس النابعين من جبلتهم وطبيعتهم.

الذين يعيشون الإسلام كما أنزل، يحيون بقلوبهم في هذه الدنيا وكأنهم يعبون من كؤوس اللذة في جنة الفردوس. وإذا استثنينا الذين يفسرون الإسلام كما يلحوا لهم، فإن من تعرف بظله مرة واحدة يتخلص من قلق العدم والفناء، ومن ظلام وعقدة الوجود الكاذبة، ويأخذ نفس راحة ولو لمدة مؤقتة. وإذا كان هناك أي فكر فتحه الإسلام أمام المؤمنين به، وأي حياة أخرى موعودة خارج هذه الحياة، فهي حياة الجنة للمؤمنين. والقدرة الإلهية الخالقة مهدت للمؤمن حتى النقطة الأخيرة لما وراء أفق الدنيا وأعطته خاتم سليمان، لذا بدأ السلاطين باتباع العدالة، وأصبحت القوة حامية للحق، وانفتحت الأبواب على مصاريعها أمام العلم، وانكسرت القيود والأغلال

التي كانت تعيق حرية الفكر، وتوجهت الشياطين - بعد نزعها لقرونها- إلى المعابد، وتخلّى الملوك عن ظلمهم وجبروتهم، وساروا في طريق العدالة.

وبفضل الحكمة المنبثقة عن روح الإسلام (يمكن إطلاق تعبير الفلسفة الإسلامية على هذه الحكمة) تغير الوجه العام للفكر، وتغيرت معالم وجه الأرض حتى أصبحت تشبه ديباجا رائعة، وتحول الوجود والحوادث إلى خطيب مفوه وواعظ مؤثر، كما انقلب أديم الأرض إلى أم رؤوف تضم الجميع إلى صدرها الحاني، وبدأت المياه تبعث بخيرها نعمات العشق والوكة والوصال إلى قلوبنا، وتُسمعنا أنغام اللانهاية. أما الجبال المهيبية، والوديان، والسهول المنبسطة فقد أصبحت ممثلة وصوتا لعمق يتجاوز كيانها وبنيتها المادية، وبدأت البساتين والحدائق تمطرنا بألوانها المختلفة بالسمات، وتقدم الورود والأزهار بكل سخاء أروع أنواع الجمال التي تدير الرؤوس وتعرضها أمام أنظارنا وقلوبنا، حتى ذاقت أرواحنا فرحة الوجود، وذاق العارفون بالله سعادة لا يمكن التعبير عنها ولا وصفها.

أما أصحاب الحظ النكد الذين لم يدركوا بعد أن الإسلام أعظم هدية لله تعالى للإنسانية -وهذا ناتج إما عن حكم مسبق، أو عن سوء تمثيل المسلمين للإسلام- فلا يفهمون الرسالة التي قدمها ولا يدركونها، ولا يستطيعون فهم عوده وبشارته، ولا الإحساس بها. ولا يتغير هذا الأمر السليبي عند أمثال هؤلاء حتى وإن داروا حوله وتحولوا بقربه. فهم قرييون منه ظاهرا ولكنهم بعيدون عنه جدا في الحقيقة. ينظرون إليه على الدوام، ولكنهم لا يفهمونه أبدا لوجود غشاوة على أبصارهم. حتى إن قربهم منه يصبح وسيلة وسببا للبعد عنه، ويصبح النظر إليه وسيلة لعدم الإبصار ولعدم الإحساس به. ولكن ما العمل! فهذه هي طبيعتهم، والشوك يبقى شوكا مؤذيا وإن كان قرب زهرة جميلة وعطرة. والغراب يبقى غرابا وإن حط على شجرة في بستان بالقرب من البلابل، ويبقى صوته صوت غراب. إن عدد الذين

يلعنون النور ليس قليلا. ولقد رأينا جميعا الذين حاربوا النظام والأمن. وعندما أتذكر أو أرى من يتقيأ عند شم رائحة الورد يتعكر مزاجي. والخلاصة أن كلا يعمل على شاكلته.

تبتهج الأرواح -التي تعرفت على الإسلام وأنست به- ببدء اللانهاية الذي تسمعه وهو صادر من كل شيء حواليتها. فمن يخطو إلى شاطئه الآمن الهادئ يتبوء الصدارة وإن عدَّ من الدهماء عند الناس. وهؤلاء الذين يضعون جباههم على الأرض ساجدين مائة مرة يوميا في جو من المهابة والخافة يتبارون مع الملائكة الكرام كفرسي رهان.

أما التيجان التي لم يستسلم أصحابها للإسلام فهي تيجان مؤقتة زائلة، وكل بيان أو كلام لم يؤخذ منه، ولم يُستنبط منه ولم يتخذ أساسا، فهو أسطورة من الأساطير أو خرافة من الخرافات. القلوب التي لم تتغذ به، ولم تشربه تبقى فجة وفارغة، وحظوظها سوداء مظلمة. وقد تلمع أحيانا وتُبهَر بعض العيون، ولكنها لا تستطيع اللمعان طويلا، ولا إضاءة ما حواليتها أبدا.

إن احتواء أي فكر أو نظام لجميع الأزمنة واحتضانه لها، والبقاء والاستمرار على الدوام دون ضعف أو وهن، ولا بهت في اللون أو شحوب، مرتبط بمدى قابليته على تجاوز كل الصعاب. والأفكار والكلمات والحكم والنظم التي لا تستطيع تجاوز الزمان والمكان سرعان ما يأتي أوان ضمورها وشحوبها وموتها، وتتساقط تساقط أوراق الخريف، وتنمحي أسماء أصحابها وواضعيها.

الإسلام ثابت من جهة، ومتغير ومتطور من جهة أخرى، فهو كشجرة باسقة أصلها في الأرض وفرعها في السماء، قد ضربت جذورها في الأعماق، تعجز أي عاصفة مهما اشتدت عن اقتلاعها، وأغصانها ممتدة للجهات الأربع، تعطي في كل فصل أثمارا جديدة. أي هو كشجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وكلما أتى الإسلام أُكُلُه فتح عهدا جديدا.

فيه عصارة اللذات الدنيوية والأخروية... فيه سحر الأبدية والخلود،  
وسره... يبقى ضياء الشمس الذي تنشره على العالم كذبالة شمعة مرتجفة  
بجانبه... تبقى بساتين وحدائق إرم ذات العماد أمام بساتين وحدائق المعاني  
التي ينبتها في القلوب كصحراء جرداء... أما المسافات والعوالم الفسيحة التي  
يقدمها للعقل وللمنطق وللمشاعر، فلا يسعها الكون الهائل بأكمله.

إن الأفكار النضرة والأنوار التي أهداها الإسلام للفكر الإنساني سماوية  
كلها، وليست من أي منبع آخر، ولم تُرَضَّع من أفكار أخرى، أو تختلط مع  
أضواء أجنبية، ولم يتكدر صفاؤها بتيارات أخرى، ولم يشعل فتيلها من  
مواقد أخرى. بل على العكس، فكل بارقة ضوء، وكل بركة، وكل وجه  
من وجوه الجمال، وكل طعام ولذة مقدمة من قبله، إنما هي ثمرة من ثمار ما  
وراء السماوات، لم تمسها يد أحد. ولو لم تكن هناك خصومة الأعداء،  
وأفكارهم وأحكامهم المسبقة الظالمة، ولا جهل الأصدقاء وجحودهم،  
لاجتمعت الإنسانية جمعاء اليوم حول مائدته السماوية، واتحدت وتصافحت.

لقد بقي الأعداء سادرين في عقدة الخصومة له والعداء معه. أما  
الأصدقاء فقد كدروا أفاقه، لذا حَرَمْنَا الإسلام من عطايه السماوية الثرة،  
وانكمش على نفسه مثل لؤلؤة داخل صدفتها. إن الشمس تتعاطى ضياءها  
مع من يتوجه إليها، وتلبس الورود ملابسها المزركشة طوال نظرها للشمس  
دون أن تطرف عينها، وتبقى الأشجار حية ونشطة ما دامت تديم علاقتها  
مع الماء ومع التربة والهواء. أي أن كل شيء، نعم كل شيء دون استثناء  
يأخذ مكافأته وجائزته بدرجة دوام ارتباطاته، فإن لم تنصت القلوب  
للإسلام فلا يستطيع الإسلام إيصال صوته إليها. فإن لم يتم تمثيله بشكل  
صحيح ولائق خَفَّتْ صوته وعجز عن التأثير في الأرواح. وكلما أسند  
الكلام الجيد بالتمثيل الجيد والقدوة الحسنة استطاع تهيج القلوب، واحتياز  
جميع العقبات، والوصول إلى كل قلب يحمل استعدادا للخير وتوجها له. وما

أكثر القلوب التي فتحها والتي اجتازت جميع العوائق التي وقفت أمامها، وما أكثر حضارات القلوب التي أسسها أصحاب هذه القلوب التي تنبض على الدوام بتوقير الإسلام عند قيامهم وقعودهم، من الذين يعيشون في جو من المحبة والوجد والعشق، ويحيون به.

أما نحن فالإسلام في نظرنا -حتى مع أرواحنا المتهدمة والخربة هذه- هو أمنيتنا ونور قلوبنا. إن متنا نتمنى أن نموت بين أذرعه وفي حضنه. وإن عشنا نروم العيش في مناخه وتحت ظله. نستمد منه دفء الرغبة في الحياة، والشوق إليها، وعشقها. ذلك لأن كل شيء سينمحي وسينهدم، وكل شيء سيزول من الذاكرة وسينسى في هذه الحياة الفانية. هو وحده الباقي بقيمه دون شحوب أو زوال. وهو وحده الباقي نضرا على الدوام. أينما رفر فَعَلْمُهُ ساد الهدوء والأمن والسكينة، وحيثما تليت خطبته سادت القيم الإنسانية وضُمن بقاؤها. هو الصورة الأرضية للنظام في السماوات... وصورة التلاؤم والتناغم الموجود بين الملائكة على الأرض. الذين ينسجمون مع إيقاعه يكونون في انسجام مع التناغم العام الموجود في الكون، ويتخلصون من أي تضادّ مع الحوادث وحقائق الأشياء أو تضارب معها.

هو نسيج من الذهب الخالص مُحَاك بحيث يستحيل على أي نظام آخر الدنو حتى إلى عتبة بابه، أو الاقتراب من إتقان نقوشه ومن ظرفها. فيه نرى تناغم عوالم السماوات وما وراءها، ونسمع فيه نبض قلوبنا، ونستمع إليها. وبالانتساب إليه نجد السر الكامن وراء استيعاب قلوبنا سعة الكون كله. ندرك هذا فنشعر بالرجفة وهي تسري في أجسامنا. ولا يوجد أي نظام معنوي وروحي أو أيّ فلسفة أو أيّ تيار يستطيع أن يَهَبَ العمق والدفء والبهجة للأرواح مثله. فقد وهب الله تعالى له وحده سعادة الروح والبدن، وسعادة المادة والمعنى، وسعادة الدنيا والعقي.

من لا يستطيع الاستماع إلى صوت الضمير لا يستطيع فهمه. والذين لا ينظرون بعين القلب لا يستطيعون رؤيته بطابعه الأصيل الحقيقي. وكما قال الغزالي "لا يستطيع عقل المعاش الدنيوي أن ينقلب إلى عقل المعاد الأخروي"، وحسب قول جلال الدين الرومي: "إن لم يستطع العقل الترابي أن ينقلب إلى عقل سماوي" فلا مناص من وقوع أقوى منطق إلى وهدة اللامنطق. لقد قاست الإنسانية منذ ظهورها حتى الآن من صخب النزاع بين العقل والقلب. ولو فشلنا في إقامة جسور بين العقل والقلب، ولقاء بينهما، وتأمين التناغم والتلاؤم بينهما، فإن هذا النزاع والخصام سيستمر.

## أفق القرآن الساحر

القرآن هو الضوء اللامع للكلمات والحروف في عالم الأزل والأبد. هو صوت الملوكوت الذي يخاطب فكر الإنس والجن ومشاعرهما. وعندما أتى اليوم الموعود وتحول إلى لؤلؤة خارقة الجمال في أجمل صدفه وأنقاها، رأى فيه أبطال البلاغة والأدب جمالا لا ييهت، وحسنا لا يزول. وسيبقى هذا الكون الكبير الذي هو معرض للجمال والفن والألوان الإلهية المتناسقة والمتناغمة موطن الخوف وبلد الرعب تجول فيه العفاريت والأرواح الشريرة، مع أنه -أي الكون- يُعدّ كتابا يفشي كلُّ سطر فيه سرا من أسرار الملائ الأعلى، وستبقى سطور هذا الكون وأوراقه مبعثرة ومتشعبة حتى يأتي اليوم الذي يتحول فيه القرآن إلى نور ينهمر على وجه هذا الوجود. ويُجمع الناس -عدا أصحاب الأفكار المسبقة- أنه عندما أشرق القرآن كشمس ساطعة، تبددت الغيوم السوداء التي كانت تجثم على الدنيا، وظهر الجمال الباهر للوجود، وانقلبت جميع الأشياء إلى فقرات وجمل وكلمات لكتاب ممتع ومؤنس ومبهج لقارئه. عندما رنَّ صوته انهمرت الأنوار على عيون القلب، وبدأت المشاعر التي فارت في الأرواح وتوهجت، والألسنة التي أصبحت ترجمانا لهذه المشاعر بإنشاد أناشيد النور.

أجل!.. فاعتباراً من اليوم الذي أضيئت به العيون والقلوب وتنورت، كم من لغز في الكون كان ينتظر الحل منذ آلاف السنوات، وكم من مشاكل معقدة متداخل بعضها مع البعض الآخر كانت تنتظر الحلول حلت الواحدة منها إثر الأخرى، وظهرت العلاقة الصحيحة بين الإنسان والوجود والخالق واضحة وضوح البدر التمام، وليست كل الألغاز والمعميات لباس المعاني وانتظمت في مدارات الحكمة.

القرآن هو قمة الفكر المتين والصحيح، وأساس التعبير الدقيق، وقاعدة للتعبير المنطقي. وكما كان هذا الفرقان العظيم سيد الكتب السماوية وغير السماوية كان المخاطب الأول له سيد الأنبياء والمرسلين. الكتب السابقة جاءت لكي تضع إشارات على طريقه وأعلاما، أما الكتب التي جاءت بعده فلكي تقوم بشرحه ووضع الهوامش والحواشي، كلٌّ حسب خريطة روحه وغنى ذلك الروح. عَرَفَهُ مَنْ قَبْلَهُ بصورته التي بَشَّرَ بِهَا الأنبياء هذه الرسالة، وعرفه الذين جاءوا من بعده بصورته المنزلة الملموسة، ورأوا التأثير الكبير الذي أحدثه، والانقلاب العظيم الذي حققه، فأنحنوا أمام بلاغته التي لا تضاهى، واعترفوا بأنه سلطان الكلمة والإعجاز البلاغي. وعندما كان القرآن يتنزل إلى الدنيا بموجات مختلفة من الأنوار لم يَصْرِفِ أصحاب القلوب النيرة نظرهم عنه أبدا، ولم يلتفتوا عنه، بل ارتبطوا به بكل حوارهم وأرواحهم. أجل!.. بينما كان ينزل من السماء كشلال ليملاً القلوب العطشى، فتح أصحاب القلوب الواعية صدورهم له ولم يضيعوا قطرة واحدة منه.

استطاع هذا القرآن أن يوصل صوته إلى أبعد زاوية من زوايا الدنيا في قفزة واحدة، وأن يسكت كل أصوات الشؤم، وأثار في كل فكر بيتغي الحق ولا يملك فكرا أو حكما مسبقا عواطفَ جياشة كأنها أصوات خريز الكوثر، وأطفأ في القلوب التي فتحتها نيران المهجر، وفجّر في كل روح أمل الوصال والشوق إليه. الطبائع الباردة تحرّك بها نبضُ الحرارة، أما القلوب المتوهلة برغبة الأبدية والخلود فقد أنست به واطمأنت إليه.

وإذا كان هناك من بقي جديدا ونضر الألوان على الدوام في هذه الدنيا الفانية التي يقدّم فيها كل جديد ويلى فيها كل نضر، ويهت فيها كل لون، فهو القرآن. فهو الكتاب الوحيد الذي استطاع أن يقف منذ نزوله في وجه جميع الأعاصير والعواصف التي هبت، والأمطار والثلوج التي سقطت،

وفي وجه جميع الظروف القاسية التي ظهرت وبدت أمامه. واستطاع أن يحافظ على أصله ككتاب سماوي وحيد دون تغيير أو تحريف. لذا فما أن يرتفع صوت القرآن من حنجرة قارئ حتى نشعر وكأنه نزل الآن من السماء وكأننا مدعوون إلى وليمة إلهية آتية من الجنة، وعندما ينثر اللآلئ تشعر القلوب المؤمنة أنها قد سمّت واستغنت عن جميع ثروات الدنيا. القرآن قلادة بيان منظومة من الكلام الإلهي، وفيض من العلم الذي يشكل الحدود النهائية للإدراك البشري، وخارطة لكل الوجود مرسومة ومزينة ومحكاة بالحرير اللاهوتي. عندما يُسمع صوته في أي بقعة يبدو كل كلام وكل تعبير آخر نوعاً من الضوضاء لا غير. وفي البقاع التي ترتفع فيها أعلامه يغمر النور قلوب المؤمنين، وتنزل الحجارة على رؤوس الشياطين، ويعيش الربانيون هناك أعياداً دائمة.

ربط الله تعالى رب العالمين ذو القوة المتين سعادة الدارين بإرشاده وتوجيهه. فلا يمكن الوصول إلى الهدف من دونه، ومن يستغن عن إرشاده ووصاياه ولا يلتجئ إليه ضائع في الطرق وتائه. هو آخر وأكمل كلام يهدي من اتبعه وسار في أثره، ويوصله إلى الغاية والهدف دون خطأ أو انحراف. ومع أنه يُتلى بكل سهولة صباح مساء فلا يُستطاع الإتيان بمثله. ومن يستمع إليه بأعماقه يشعر أنه قد سمع كل ما يجب سماعه، ومن ذاق هذه اللذة يصبح مطمح النظر الإلهي، وأصوات هؤلاء تتداخل على الدوام مع أنفاس الملائكة.

حتى نزوله وتشريفه للأرض كان كل نبي يشعل مشعل الهداية التي يحملها من مصدر نوره وضيائه، ويجول الصحارى القاحلة حوله بقطرات قليلة منه إلى جنان وارفة الظلال.

بل إن العصور المظلمة التي حال فيها ظُله أصبحت عصوراً ذهبية. أما العصور التي تعرفت به عن قرب وعاشته فقد تحولت إلى ما يشبه الجنة. من

وهب نفسه له سما إلى مرتبة الملائكة، وأصبح كل ما في الكون من أحياء  
وجماد أليفا عنده.

مَنْ فهم القرآن حق الفهم تصبِح البحار الواسعة كقطرة ماء أمام ما يرد  
إلى صدره من إلهام. والعقل الذي تنور بنوره تتحول الشمس تجاهه إلى مجرد  
شمعة. أنفاسه التي نشعر بها في أعماق قلوبنا تحيينا، وضياؤه الذي يغمر  
الأشياء يجعل كل موجود برهانا للحق تعالى. من يصله صوته - وإن كان في  
أبعد أرض وأخفاها- دبت فيه الحياة وكأنه سمع صور إسرافيل. والقلوب  
التي تستمع لصوته وبلغته الخاصة به يتوثب حركة ويجيا وكأنه يستمع إلى  
نغمات من جبريل، ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾  
(الجاثية: ٢). أجل هو بصائر ورحمة للذين لم تمت قلوبهم.

لم يكن القرآن في أي يوم من الأيام -مثل غيره من الكتب- كتابا بقي  
ضمن إطار زمن أو مكان معين من طفولة الإنسانية. بل هو معجزة كبيرة  
وشاملة وغنية تتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، وتلي جميع المطالب الإنسانية  
بدءً من العقائد وانتهاءً بأصغر الآداب الاجتماعية. وهو بعمقه هذا يستطيع  
حتى اليوم تحدي الجميع وتحدي جميع الأشياء.

قام في العهد الذي نزل فيه بمواجهة جميع اعتراضات مخاطبيه، وتحداهم  
أن يأتوا بكتاب، أو حتى بسورة أو بآية من مثله. ذُهل منه المعارضون  
الأولون له، وسُحروا من بيانه ومن بلاغته، حتى اهتموا الرسول ﷺ بأنه  
ساحر، وأنه شاعر. وإزاء أخباره الغيبية التي أتى بها من وراء الأستار فقدوا  
صوابهم فقالوا عنه إنه كاهن، ولكنهم عجزوا تماما عن الإتيان بمثله. أي أن  
أبطال الشعر والنثر والخطابة وأعلامها من معارضيه اضطروا إلى الصمت  
والخرس والانسحاب إلى جحورهم. أما منكرو هذا العصر المعاندون الذين  
ورثوا روح المعارضة والإنكار من هؤلاء السابقين، إلا أنهم على الرغم من  
كل أنواع الدماغوغية والديالكتيك وجميع أنواع المجاهمة والاعتراض لم

يستطيعوا إنجاز شيء خارج إظهار العجز والغضب. تغيّر الزمان وتعاقبت العصور واختلقت القناعات ووجهات النظر، وحميت حدة المعارضة والصراع، ولكن القرآن لا يزال واقفا كالطود الشامخ، وكالبحر الواسع، وكالسماء التي لا تحدها حدود تجاه جميع المعارضين وتجاه جميع الاعتراضات. وهو مستمر في بث روعه وروعته في القلوب، وفي هداية العقول. منذ نزوله قبل أربعة عشر قرنا وتربعه على عروش قلوبنا تقلبت عهود كثيرة ظهر فيها العديد من مشاهير البلغاء، ومدارس فكرية عديدة، ونظم عديدة وفلسفات مختلفة. وقد حاول العديد منها هدم القرآن واستعملوا لهذا الغرض كل ما لديهم من وسائل ومن سحر الكلام من بيان ومن بلاغة لهدم القرآن، وحاضوا على الدوام غمار الحرب معه. ولكنهم غلبوا على الدوام وارتدّوا على أعقابهم خائبين أمام الأسس القوية المتناسقة والمنطقية التي وضعها للكون وللوجود وللإنسان، والإيضاحات العميقة لهذه العلاقات. أجل لقد أتى القرآن بنظرة متميزة للكون وللأشياء وللإنسان بأسلوب غاية في الروعة والسحر. لأنه يتناول الإنسان ككل ضمن الوجود بأكمله، ولا يهمل أي شيء، بل يضع كل شيء مهما كان صغيرا في مكانه المناسب. الأجزاء فيه مرتبطة ارتباطا وثيقا ودقيقا بالكل، والأجوبة المختلفة عن أدق الأسئلة التي تختلط على بال الإنسان في هذا المعرض الكوني الهائل ترد فيه. وبينما يقوم بتحليل أدق المسائل الموجودة سواء في عالم الشهود أم فيما وراء الأستار حتى أدق تفاصيلها، لا يدع هناك أي تردد أو شبهة أو علامة استفهام في العقول. أجل! إن القرآن في جميع هذه التفاصيل الدقيقة التي يوردها لا يدع أي فراغ في هذا الموضوع لا في العقول ولا في القلوب ولا في المشاعر ولا في المنطق، لأنه يحيط بعقل الإنسان وبأحاسيسه وبمشاعره وإدراكه بشكل يجعل الإنسان وهو تحت تأثير هذا العشق يكاد يخرج من هويته الإنسانية متوجها إلى الذات العلية. ومثل جميع السائرين في الطريق إلى الله تعالى ينتقل من الدهشة إلى الدهول ومن الدهول إلى بحر من العواطف

المتلاطمة التي تجعله ينحني من الخشية وهو يقول ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا  
لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ  
مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩). إذن فهذا هو القرآن... المفتاح الذهبي لخزائن الكلمات  
التي لا تنفد ولا تنتهي. والإيمان هو شفرات أو أسنان هذا المفتاح السحري.  
ولا أعتقد أن من يملك مثل هذا المفتاح وهذه الشفرات سيحتاج إلى أي شيء  
آخر بخصوص مسائل القواعد والأسس العامة المتعلقة بالإنسان والوجود  
والكون.

ولا يتوهمن أحد أنني بكلماتي العاجزة هذه أقوم بسرد مديح للقرآن،  
فمن أنا لكي أمدح القرآن!! وكما قال الشاعر:

من يستطيع وصفه سوى الله الوصّاف؟

الملائكة الكرام المصطفون صفا صفا،

يصفونه ويعظمونه حتى تحسبهم في طواف...

وقد يظهر من لا يستطيع رؤية هذه الميزة الخارقة في موضوع البلاغة  
وجواهر الكلام، ولكن من الواضح أن كل من يستعمل ضميره يعلم أنه لم  
يخطئ في أي وقت في هذا الصدد، ولا سيما إن أحال ناظريه وشاهد التأثير  
العالمي للقرآن.

لقد أحدث القرآن في أول عهده بالنزول وأول عهده بتشريفه الدنيا  
تأثيراً لا يمكن تصوره في الأرواح وفي العقول والقلوب أيضاً، بحيث إن  
درجة الكمال التي وصلت إليها الأجيال التي نشأت في جوه النوراني كانت  
معجزة قائمة بذاتها لا نحتاج معها إلى ذكر أي نوع آخر من معجزاته. ولا  
يمكن العثور على أي أمثال لهم في مستواهم من ناحية التدين والتفكير وأفق  
الفكر والخلق ومعرفة أسرار العبودية. فالحقيقة أن القرآن قد أنشأ جيلاً من  
الصحابة آنذاك لا نبالغ إن قلنا إنهم كانوا في مستوى الملائكة. وحتى اليوم  
فهو يقوم بتنوير قلوب المتوجهين إليه الناهلين من نبعه، ويهمس في أرواحهم

أسرار الوجود. والذين يدعون أنفسهم بكل أحاسيسهم ومشاعرهم وقلوبهم وقابلية إدراكهم تسبح في جوه الذي لا مثيل له سرعان ما تتغير عواطفهم وأفكارهم، ويحس كل واحد منهم بأنه قد تغير بمقياس معين وأنه أصبح يعيش في عالم آخر. أجل! ما أن يتوجه إليه الإنسان من كل قلبه، حتى لا يستطيع بعد ذلك الخلاص من تأثير سحره وجاذبيته. إن القرآن يتناول الطالب الذي جذبه نحوه فيعجنه ويشكله من جديد ويجعل منه شخصا آخر تماما... شخصا رقيقا ذا حساسية مرهفة، إلى درجة أن الإنسان يتأكد بأن أي تغيير لا يكون إلا به، بل يمكن في أحيان كثيرة تحقيق العديد من الأمور والتي كان يُخيل من قبل أنها مستحيلة التحقيق، حيث تتحول هذه الأمور في ظله إلى حالة اعتيادية مما يُذهل الجميع. والقرآن يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لَئِنَّ اللَّهَ لَلْأَمْرُ حَمِيمٌ﴾ (الرعد: ٣١) لأنه أجرى في القلوب والعواطف والأحاسيس وفي العقول تأثيرا بالغ المدى بحيث أن هذا التأثير لا يقل غرابة عن تسيير الجبال أو عن تقطيع الأرض أو تكليم الموتى، أو عن إحياء أجساد بالية منذ آلاف السنين.

كان كل صحابي بطلا في عالم القلب والروح، وكان مجتمع الصحابة مجتمعاً متميزاً مباركا نشأ في ظل فيض وبركة القرآن. واستطاع هؤلاء الصحابة إجراء تأثير عميق وكبير على خمس البشرية، حتى إن عملهم هذا ما كان يقل من ناحية الروعة والخارقية عن قلع الجبال عن أماكنها أو سقي الأموات ماء الحياة أو ربط السماء بالأرض. وما كان هناك أي مجتمع آخر يمكن مقارنته بمجتمعهم الفريد هذا. فهؤلاء الصحابة الذين عُجنوا بروح القرآن، وتشكلت أنفسهم حسب مبادئه السماوية، أي أصبحوا من ناحية الروح والمعنى ترجمانا للقرآن، استطاعوا تحقيق المستحيلات وفتحوا به طرق الخلود أمام الأرواح الميتة، وغيروا وجه الدنيا، ونقلوا الإحساس بلذة عالم الروح إلى المجتمعات التي احتكوا بها وتعرفوا عليها، وكسروا الأقفال

الموجودة على الأفكار وفوق الأفواه، ورفعوا الإنسان مرة أخرى إلى المرتبة الرفيعة التي رفعه الله إليها وشرفه بها، وقدموا نظرة جديدة وتفسيرا جديدا لموقع الإنسان في الكون بين الموجودات، وركزوا الأنظار على السر العميق الموجود بين الأوامر التكوينية وبين القواعد الشرعية، شارحين وموضحين الغاية والحدود النهائية للقلب والإرادة والأحاسيس والمشاعر، ومحركين وباعثين أصول وأسس القيم الكامنة والنسبية الموجودة في روح الإنسان، لكي يوجهوا الإنسان العادي إلى طريق الإنسان الكامل. فنجحوا في جعل الإنسان يحس في كل ما يقع بصره عليه أو يصل إليه بأحاسيسه، أو يشعر به في قلبه، بأصابع الإرادة الإلهية والقدرة اللاهائية، أي يربط كل شيء ويرجعه إلى صاحبه الأصلي.

إن كان المؤمن ثاقب النظر متفتح البصيرة يقظ الروح والأحاسيس مرتبطا بالله بفكره وتديره، يكون قد ابتعد تماما عن سطحية الارتباط بالجسد ومطالبه، وينظر إلى الحياة من زاوية أخرى ويرى لها طعما آخر، أي ينتبه إلى ما وراء أفق هذه الحياة. ومثل رجل الحقيقة هذا يرى ويشاهد في كل شيء في هذا الوجود العلم الإلهي مرفرا عليه، ويد القدرة عاملة فيه، فيحس برحفة، وتتداخل في نفسه مشاعر الأمل والقرب مع الخشية والرهبة. ومع كونه يعيش في الدنيا إلا أنه يحس وكأنه في ذروة من ذرى الآخرة. عندما يأخذ نفسا يحس بالأمل والترقب، وعندما يعطي نفسا يحس بالمخافة والمهابة. ويتجول دائما في الساحة التي رسمها القرآن ويعيش حياته في ظلال القرآن وألوانه.

## الدعاء

الدعاء نداء وتضرع، وتوجه من الصغير إلى الكبير، ومن الأسفل إلى الأعلى، ولهفة من الأرض ومن سكان الأرض نحو ما وراء السماوات، وطلب ورغبة وطرح لما في الصدور من آلام. والداعي يشعر بضآلته أولاً، وبعضه صاحب الباب الذي يتوجه إليه ثانياً. لذا يكون متواضعاً جداً، وعندما يرفع يديه بالدعاء مؤمناً بالاستجابة، يتحول ومن حوله إلى عالم روحي وسموي، وكأنه يسمع تسيبحات وأذكار الروحانيين وأدعيتهم. والمؤمن بهذا التوجه وبهذا الدعاء لا يطلب ما يوده وما يطمح إليه فقط، بل يستغيث أيضاً مما يخافه ويخشاه، وهو يعلم بأن الدعاء حصنه الحصين الذي يلجأ إليه.

آمالنا ورغباتنا هي دوافع نجحنا وتوفيقنا. أما قلقنا وخشيتنا فوسيلة من وسائل يقظتنا وانتباهنا تجاه تصرفاتنا السلبيّة. ومع أننا لا نعرف ما قدره الله تعالى لنا ولمستقبلنا من أمور، نعدّ آمالنا وخشيتنا في كل حين وعزمنا وقرارنا أمانة من أمارات ذلك القدر، ونعد دعواتنا القولية والفعلية والحالية وسيلة من وسائل هذا القدر في مستوى الشرط العادي. لأننا نعلم من بيان النبي الصادق المصدوق ﷺ أن النتيجة التي يحصل عليها كل واحد ستتحقق بمقياس كبير حسب سلوكه وأعماله. غير أنه ليس من الصحيح عند التوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن نقدم رغباتنا ومطالبنا، ونربط أدعيتنا بها. ولكن الصحيح هو أن نتوجه إلى الحق تعالى، ونعرض عليه حالنا بشعور العبودية، وبشعور من التواضع والفناء، وبلسان الفقر والعجز.

والحقيقة أننا بأدعيتنا نظهر ثقتنا واعتمادنا وتوقيرنا لرَبنا، وبأنه قادر على كل شيء. ويجب أن تتوجه أدعيتنا إلى هذا أكثر من توجهها لطلب تحقيق رغباتنا الدنيوية. ونصل أحياناً في الدعاء إلى نقطة نسكت فيها ونصمت، ونكل كل شيء إليه مع الاحتفاظ بالتوسل بالأسباب، ونقول كما قال الشاعر:

أحوالنا معلومة يا رب من قبلك،  
ما الدعاء إلا تضرع من عبيدك...

وأحياناً نقتبس أدعيتنا من القرآن الكريم أو من أدعية سيد البلغاء والأنبياء، ونفتح يد الضراعة أمام باب الرحمن الذي هو محرابنا الأبدي لنشرح ونشكو أحوالنا وما يجول في أعماق أرواحنا. ورعايةً منا لأدب المثول أمامه نغلق أفواهنا تماماً وننتقل إلى مراقبة صامتة. وهذه الحال حسب بعضهم وبدرجة الصدق المصاحب لها أبلغ من كل كلام، وأفضل من كل بيان، وأحسن من كل تضرع. ولما كان الله تعالى على علم بكل أحوالنا، الظاهرة منها والخفية، فإن المهم هنا في الدعاء اللب والجوهر أكثر من الكلمات نفسها. والله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦). إذن فهو من ناحية معرفة طلباتنا ورغباتنا أقرب إلينا منا. لذا فحسب هذه المعرفة بالحضور الإلهي وبالقرب الإلهي فإن الأدعية الصامتة هي عين الأدب مع ذلك المستوى المتميز من العباد. وسواء أكان هذا نابعا من مفهوم الغيب أو من مفهوم الحضور الإلهي فإن الله تعالى الذي يقول ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠) يشوقنا إلى الدعاء. لذا يعدد الدعاء استغناء لا معنى له وانقطاعا وبعدا عن الله تعالى.

إن من يستطيع فتح يديه لله داعيا وضارعا من كل قلبه، ويتوجه له، يستطيع تجاوز البعد الموجود بينه وبين ربه -الذي هو أقرب إليه من حبل

الوريد- والنابع من وضعه المادي والجسماني. وباحترامه لهذا القرب يستطيع الخلاص من وحشة بُعدِه عنه. ويشاء الله تعالى إسماعه ما يجب أن يسمع، ويريه ما يجب عليه أن يرى، وينطقه بما يجب عليه أن ينطق، ويوفقه لعمل ما يجب عليه أن يعمل. وهذه المرتبة من القرب مرتبة خاصة يمكن الوصول إليها عن طريق النوافل، حيث يرى ما وراء المُشاهد، ويسمع ما وراء الأصوات، وتكون قابلياته الأخرى أيضا غير اعتيادية، وتتجاوز قدراته السابقة ليصبح في هبة واحدة إنسانا في بُعد آخر، وليرتفع إلى مستوى آخر، ويكون عبدا دائم التضرع لله، يتضرع إليه ويدعوه ويجد منه الاستجابة... يتمسك بالدعاء والتضرع كتعبير عن إيمانه بالقدرة غير المحدودة لربه، ويسند ظهره إلى قوته غير المحدودة، فلا تفتت شفتاه عن الدعاء في كل أمر من الأمور وإن بدا أبعد شيء عن التحقيق.

ولهذا فإن الأرواح التي وصلت لمستوى تذوق لذة الإيمان وسمت بالعبادات، لا تقصّر أبدا في الدعاء. على العكس من هذا، فهي تدرك أن العبادات هي غاية الموجودات وسبب خلقها. لذا تعطي للدعاء أهمية قصوى. وبجانب قيام أصحاب هذه الأرواح برعاية الأسباب المادية والمعنوية، يسارعون إلى فتح يد الدعاء والتضرع لربهم من أعماق قلوبهم، ويرون أن الأدعية وسيلة تقربهم إلى خالقهم، وهي منبع آمالهم ورجائهم. وفي مثل هذا الجو من القرب يُحسّ بجو من المهابة والقلق إلى جانب الشعور بالبهجة وتوقُّع تحقيق الآمال. وعندما ينظر الإنسان إلى كل شيء من خلال تأمله في أزليته وأبديته سبحانه، يحس وكأنه يستمع إلى دقات قلبه المرتعش، وينتقل إلى حالة من اليقظة والتمكين. وهاتان الحالتان تترافقان عادة عند الدعاء وتنداحلان ببعضهما تتسعان وتتطوران بنسبة طردية مع سعة أفق المعرفة الإلهية عند الإنسان. والقرآن يشير إلى حال المؤمن عند الدعاء وإلى حالته الروحية عندما يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف: ٥٥). وهذه الآية تشير إلى أن المؤمن لا يمكن أبدا أن يستغني عن الدعاء وعن

الالتجاء إلى الله، وإلى أن الله تعالى بجانب عظمته وكبريائه وجبروته فلا يسد أبواب رحمته وعنايته، بل يذكر الإنسان بأن أبواب رحمته مفتوحة للجميع على الدوام على مصاريعها، ويؤكد على أهمية الدعاء.

ونظرا لكونه هو وحده خالقنا وموجدنا ومطعمنا ومطورنا من حال لحال، والعارف بحاجاتنا ورغباتنا والمستجيب لها، وصاحب الرحمة الواسعة الذي لا يدع أمورنا لغيره، وذلك مقابل عجزنا وفقرنا وضعفنا وحاجتنا، لذا كان من الأهمية بمكان قيامنا بتعبير سلوكنا وتصرفاتنا تجاهه بكل دقة وعناية. نحن عاجزون وضعفاء ومحتاجون، بينما هو الحاكم المطلق على كل شيء. لذا نحس على الدوام بمدى صغرنا، ومدى عظمته، ولا نتوجه عند طلباتنا الفعلية والحالية إلا إليه وحده دون غيره، ونعلم أن الظهور بمظهر المستغني عنه ليس إلا سوء أدب. كما نُعدُّ أي تصرف يتسم باللامبالاة عند عبادتنا له أو عند توجيهنا له بالدعاء، أو أيّ تصرف يفتقر إلى الجدية، عدم احترام وعدم توقير. لذا نعتني غاية الاعتناء أن نتوجه إليه على الدوام بمشاعر الخوف والإشفاق والمهابة. وعندما نشعر بمدى قربنا وبأنه سيستجيب لدعائنا نشعر بعظمته وكبريائه جنبا إلى جنب مع سعة رحمته وشفقته ولطفه... فنرتجف من خشيته ونرتعش، ونعيد النظر في تصرفاتنا وسلوكنا وأعمالنا، وحتى في درجة ارتفاع أصواتنا، ونعيرها من جديد، لأننا سنكون في جو من الشعور بأننا تحت مراقبة من لا يغيب عنه شيء، وتحت نظره. فبجانب أذواقنا لا ندع الاحتياط والتدبير. وبهذا المعنى فالدعاء أسمى مظهر من مظاهر العبودية وأصدقها في كل حين لكونه لبّ التوجه إلى الحق تعالى بالطلب وأفضل إعلان للعبودية. والحقيقة أن كل الموجودات تدعوه وحده على الدوام بلسان حالها، ونوع قابلياتها، وبلسان حاجاتها الفطرية، فيقوم بالرد والاستجابة لها ضمن إطار من الحكمة، ويسمع كل صوت ويستجيب له.

ولكن ليس من الصحيح توقع الاستجابة لكل أدعيتنا كما هي، لأننا لا

نأخذ بنظر الاعتبار إلا رغباتنا وطلباتنا المتعلقة بأيامنا الحالية. فنضيق بهذا إطار طلباتنا، وننسى أو نهمل المستقبل أو الأمور الأخرى المتعلقة بنا عن قرب، ولا نأخذها بنظر الاعتبار. ولكنه تعالى يرى حالنا الحاضر، وكذلك مستقبلنا القريب والبعيد في اللحظة نفسها، فيوسع ما ضيقناه حتى يجعل أديعتنا بوسعة الدارين في الدنيا وفي العقبى، ويستجيب لها ضمن أبعاد متعددة حسب موجبات رحمته وحكمته. أجل!.. فهو عندما ينير أوضاعنا الحالية لا يفسد مستقبلنا، ولا يحول أضواء أيامنا الحالية إلى ظلمات في المستقبل. وعندما يقوم بالإنعام علينا لا يسحب من الآخرين نعمه ولا يحرمهم من فضله، بل يستجيب للجميع ولكل شيء استجابات عميقة، ليظهر لنا أنه سمع أديعتنا، وأخذ طلباتنا بنظر الاعتبار، فيهب قلوبنا بقربه وحضوره انشراحا وبهجة وراء كل خيال وتصور.

والقلب المفتوح على هذه المعاني عندما يفتح كف التضرع والدعاء يعلم بوجود من يراه ويحس حتى بأنفاسه، ويعلم سره ونجواه، ويشهد أنيه وبكائه، وهو على كل شيء قدير، وحاكم ومسيطر على كل شيء، يعمل ما يشاء وكيفما يشاء، وأن هناك حكماً مختلفة في كل ما يفعله، واستنادا إلى رحمته وإرادته ومشئته يرى بأنه يستطيع التغلب على كل صعب من الصعاب، ويحس بالطمأنينة في أكثر أوقاته توترا، وفي أصعب وأحلك الحوادث التي يجابهها، ولا يتخلى عن أمله أبدا ولا يلفه اليأس مطلقا. وكم من معان عميقة تكمن في توجهه نحوه تعالى عدة مرات يوميا ضمن هذا الإطار محالوا أن يرى ويسمع بقلبه ما وراء هذا العالم المادي. والذي يذوق فضل ونعمة مثل هذا التوجه لا يستطيع ترك ملازمة عتبة بابه تعالى. وحتى وإن لم نستطع الوصول تماما إلى مثل هذا الفضل، نتوجه للمرة الأخيرة نحو باب حظيرته، ونلمس مطرقة الباب للتضرع وندعو بقلب يئن:

أيها الموجود الأزلي الذي هو سبب وعلة وجودنا، وروح أرواحنا!  
يا من نوره ضياء أعيننا وأبصارنا! لو لم تنفخ الروح في أبداننا لبقينا حمأ

مسنونا، ولو لم تهب النور لأعيننا كيف كنا نستطيع فهم وتقييم الكون من حولنا، وكيف كنا نستطيع معرفتك؟ لقد أوجدتنا مرتين... مرة عندما خلقتنا... ومرة عندما وهبت لنا الإيمان والعرفان. ولو قمنا بحمدك والثناء عليك بعدد ذرات الكون لما وقّينا حقلك من الشكر.

يا أجمل من كل جميل! ويا أسمى من كل بهي! يا من تظهر صور الجمال في كل آن وحين، وتستر ما يبدو قبيحا حتى تضي عليه مسحة نسبية من الجمال! نتضرع إليك أن تملأ قلوبنا بمشاعر الجمال وأحاسيسه، وأن تبصرنا بطرق الجمال ومسالكه على الدوام.

يا أرحم من كل رحيم! يا من لا تعاقب المسيء فورا، بل تمهل وتتغاضى عمن يتجاوز حدّه، وتترك له فرصة لتنقية قلبه من الذنوب والآثام المعنوية! احفظنا يا رب من التلوث والآثام وبالذنوب، واغفر لنا عندما نتلوث ببعضها، ولا تحرمننا من مغفرتك ومن رحمتك ولا تبعدنا عنها. كنا عدما فأوجدتنا، ونحن مستمرّون في الحياة بفضلك وبلطفك وبجودك وإحسانك، محاطون على الدوام بجودك وإحسانك وكرمك. أنت يا رب من يمنح النور لعقولنا، ولذّة الإيمان لقلوبنا. كان العقل في تشوش وتخبّط حتى وصل إليك، وكانت النفس تعدو وراء البغي. وعندما جعلت العقل مرشدا وهاديا لجمت به أهواء النفس وفتحت أمامها أفق الاطمئنان. لقد وجدنا أنفسنا بفضلك، وتخلصنا من الضياع هنا وهناك في الدروب بلطفك.

ما وصلت قلوبنا إلى الاطمئنان إلا بمعرفتك. وما تخلصت أفكارنا من الهديان القاتل وانسلت منه إلا بالاستسلام لك. أتينا إلى بابك وطرقناه بذلة وخضوع، ندعوك أن تدم هذه الذلة لك إلى أبد الأبدين. اسمك على الدوام على شفاهنا عند دعائك، ومنتظر برهبة وخشية جوابك. لم يسمعنا حتى اليوم سواك، ولم يربّت بشفقة على رؤوسنا أو ينظر أحد سواك إلى وجوهنا. كل ما وجدناه كان من عندك وحدك. وبفضل الإيمان بك تخلصنا

من مشاعر الغربة والحيرة والذهول، ومن آلام الوحدة والوحشة، لذا تتوجه إليك مرة أخرى بكل كياناتنا نطلب منك العفو والعافية.

نعوذ بك من قساوة القلب، ومن الاستناد إلى غيرك، ومن الغفلة ومن الإهانة والهوان، ومن المسكنة والجهل، ومن علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع، ونفس لا تشبع، ومن دعاء لا يستجاب له، ومن زوال النعم، وتغير الألطاف، ومن عذاب عاجل وغضب لاحق.

ندعوك أن تهب لنا لسانا ضارعا، وقلبا خاشعا. اقبل منا يا رب توبتنا، ونقنا من خطايانا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، واستجب لدعائنا، وافتح آفاق قلوبنا، وألزم ألسنتنا كلمة الصدق، وطهر قلوبنا من الدنس يا رب! وهب لنا يا رب ثباتا في أعمالنا، وعزما وقرارا في طريق القرآن، وحساسية تجاه نعمك. لا تُرجع يا رب من يدق بابك خائبا، وتفضل بنعمك وألطافك على عبادك الطائعين، واهد من عصاك وضل عن سبيلك. وزين دعاء المضطرين بالاستجابة لهم، وساعد أصحاب الكرب، وعالج أصحاب القلوب المريضة وهب لهم الشفاء، وأظهر نورك للذين يتخبطون في ظلمة الكفر والإلحاد كي لا تبقى فيهم أي نقطة أو ركن مظلم.

## الكعبة

الكعبة هي المحراب المشترك لنبضات قلوب المؤمنين، والتي تم تمجيدها وبيان فضلها عند وصفها بأنها "أول بيت وضع للناس". وضع خطط أسسها وقواعدها فيما وراء هذا العالم، وبُنيت بيد أطهر نبي في وقت لم تكن مواد البناء من لبنات ومواد رابطة قد عرفت أو استعملت في الأرض.

تقرر موقعها وموضعها قبل نزول آدم عليه السلام إلى الأرض وتشريفه لها بأعوام وأعوام، إلى درجة أن الملائكة أحرقت يوماً آدم عليه السلام بأنها طافت حول الكعبة مرارا قبل خلقه. وبعد الطوفان وحسب الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧) قام أبو الأنبياء إبراهيم وابنه الكريم إسماعيل عليهما السلام برفع بنية هذا البيت الذي كان قد تهدم وسوّي بالأرض من جديد.

إن الكعبة التي هي عبارة عن مقطع مجسم لعمود نوراني يمتد من مركز الأرض إلى سدرة المنتهى والتي لا يفتر الإنس والجن من الطواف حولها في كل وقت وحين تشتاق إلى حريمها مليارات من الأرواح الطاهرة، المرئية منها وغير المرئية، تود وصلها. أي أنها بناء لا مثيل ولا نظير له. فإن قلنا بأن قيمتها تعادل السموات لم نقل شططاً. فاسمها في الأرض وفي السماء هو "بيت الله".

في كل عام يهرع المؤمنون إلى جوها الروحاني الدافق والدافئ من أرجاء الأرض بالطائرات أو السيارات أو البواخر، ومنذ بداية رحلتهم يضعون جانبا جميع مشاغلهم اليومية وجميع مشاكلهم وأسباب قلقهم

ويتخلصون منها. وبعد أن يلتحفوا لباس الحج الأبيض الطاهر يصلون إلى درجة ونوع قريب من الملائكية يغبطون عليها.

في هذه الرحلة المباركة يحس معظمهم بأنهم يتجولون في دهشة وذهول في سواحل عالم آخر ودنيا أخرى. تراهم مرة في وقفة وقورة كوقفة شجرة دلب ضخمة، أو وقفة مهيبه كهبية غابة صامته، أو وقفة تذكرك بعظمة البحر الزاخر... ولكنك لن تعدم ملاحظة صفة عامة فيها، ألا وهي صفة الإخلاص والصدق.

الطرق إلى الكعبة طويلة، والمسافات شاسعة ومرهقة. فكما أن طريق التصوف والسير فيه، ومجاهدة النفس وتطهيرها، وكذلك سفوح وتلال ما يحيط بالجنة، والوديان القريبة من جهنم حافلة بالمشاق والصعاب، كذلك فلهذه الرحلة المباركة متاعها. ولكنها شرط ضروري لزيادة التهيؤ الروحي ولتكملة الاستعداد الداخلي. فكل إنسان يهيئ نفسه في خلال هذه الرحلة ويمتلى حسب استعداده وقابليته. فلا يصل إلى هناك إلا وقد استعد وتمياً بزيادة كبيرة.

كانت هذه الرحلة المباركة تتم في السابق على ظهور الخيول والإبل. ويصادف كل حاج في طريقه عشرات الأضرحة والمقابر، ويزور الأماكن التي عاش فيها الأنبياء العظام ويعيش ويتحاور مع خيالهم، ويشترك في مجالس الأولياء والأصفياء، فيقتبس منهم نوراً لقلبه، أي تكون رحلته هذه رحلة عامرة بالمعاني، ويتسلح بروحه ويتطهر وكأنه اغتسل في محراب الجمال والشعر والرومانسية، فيكون مستعداً لجميع الإلهامات والعطايا الواردة من عالم المعاني، ومستعداً بعد ذلك لطرق باب الحق تعالى.

وبعد أن تتفاعل ما أحس به وحده ورآه وما شاهده طوال رحلته في أعماق قلبه وروحه، وتنقلب إلى قابلية فهم وحده يصل إلى الكعبة -التي

تنتظر زوارها بشوق وتنظر اليهم وقد تطاول رأسها إلى ما وراء السماوات -  
ويضع نفسه في شوق شديد في أحضانها.

أجل!.. إن كل قلب يشاهد المنظر الوقور للكعبة وظلّ جبهتها النورانية  
المنعكسة على المرمر، والمعاني التي تمثلها والتي تسمو وتتطاول نحو السماوات،  
وجوها الذي ينبثق نورا، لا بد وأن يلمس بعض المعاني الخاصة الموجودة  
وراء منظر الكعبة، ويحس بلذة الهدف الذي من أجله قام بهذه الرحلة،  
وذلك في جو من نشوة العبادة، فيصل إلى سعادة بارتشاف لذة لا توصف.

إن الكعبة ملائمة لموضعها إلى درجة أن كل من ينظر إليها بدقة يكشف  
وجود رابطة قوية بين موضعها وموقعها وبين روحها ومعناها. فكأنها لم تُبنَ  
بمواد بناء من الخارج بل انبثقت من جوف الأرض، أو كأن الملائكة بنتها في  
السماء ثم أنزلتها إلى الأرض. وهي تبدو وكأنها تقود حلقة ذكر بين  
الجبال والتلال وأكوام الحجارة الموجودة بالقرب منها والتي أحرقتها  
الشمس، وكأن الوجود حولها يتن بأنينها وترفع أيدي الضراعة نحو السماء  
ثم تصمت وتستمع إليها في خشوع.

الكعبة حريم مفتوح لأسرار الصديق، وما حواليا مضيّف مفتوح للغير.  
والصفا والمروة بمثابة قمريّة لمشاهدة سماء الحقيقة وتأمّلها. وعلى بعد  
خطوات هناك المقام الإبراهيمي كسلّم نوراني يقود إلى ما وراء الأفق. ثم يتر  
زمزم وكأنها ساقى الشراب في مجلس العشق الإلهي. وعندما يقوم كل هؤلاء  
معا بتحية المسافر العاشق، يحس ذلك المسافر بأنه انتقل إلى عالم آخر... إلى  
عالم أخروي، فيبدأ بالتطلع إلى "عالم الملكوت" من خلال النوافذ التي فتحت  
في قلبه، وتأخذ أشرعة خياله بالإبحار إلى آفاق رحبة وبعيدة، حتى يخيل إليه  
أنه لو خطا خطوة أخرى لوجد نفسه في ذلك العالم الخيالي الأزرق الموجود  
خلف الآفاق البعيدة وراء هذا العالم.

الكعبة بناء أرضي بنيت بمواد بنائية موجودة حواليا، ولكنها تبدو

كزهرة نبتت في حضن العماء<sup>(١)</sup> وامتدت جذورها منها واحتضنت في روحها أسرار كل الوجود، وكأن هناك علاقة -حتى وإن كانت غير مباشرة- بينها وبين الأرض والسماء. إنها بناء تاريخي عتيق وقديم بل هي أقدم بناء وأكثرها عراقة ضمن جميع العهود والأدوار وأكثرها أصالة. إنها درة تاريخية تضاعفت قيمتها حية وجديدة ونابضة في القلوب. وكما كان آدم عليه السلام أهم مصدر من ناحية خلق وطباع جميع الأجيال التي جاءت من صلبه، كذلك الكعبة، فهي بيت في الأرض يحمل أسرار وغموض روح البناء ومعناه.

في حريمها تشم الأرواح المفتحة على الحقائق في كل وقت الروائح الفردوسية المنشبة التي تهب من جميع الجهات. والذين يهرعون إليها من جميع أصقاع العالم، ما أن يروها حتى يغيبوا عن أنفسهم ويبدأوا بالطواف حول هذا المحراب العام طواف الفراشة حول النور باحثين عن طرق الوصول إلى المصدر الحقيقي للأتوار. ومع أن الطواف الظاهري لأهل القلوب هو حول الكعبة، إلا أنه يجري في الحقيقة داخل حلزون نوراني مستند إلى القلب يغيب في المكان ويتلاشى.

الأرواح العاشقة التي تصل إلى أنس الكعبة وجوها العبق، وتحقق الوصال معها، تصل إلى بعد أعمق في فكرها العميق أصلا، وتحس بسحر الكعبة وتشعر به بشكل أقوى وبمذاق آخر.

الكعبة في نظر أمثال هؤلاء مكان عند الحضرة الإلهية. ومعناها وروحها وجورها في نظر الإنسان هو كأستاذ ناصح للإنسان مرشد له يهمس في قلبه شيئا ما على الدوام.

لكل وظيفة ومهمة حول الكعبة سحر خاص. ولا يمكن للقلوب المؤمنة

---

(١) العماء: صفحة الوجود فيما وراء الأثير، أو الحالة البدائية للسماوات عندما كانت مجرد غبار وغيوم. وفي التصوف: تجلي الواحدية.

ألا تبقى تحت تأثير هذا السحر. فالأرواح الطائفة حولها في كل لحظة، والتي تزداد في كل حين حتى تغدو كسيل هادر يملأ كل ما حواليها تنسى أنفسها في دوامة هذا السيل وفي دوامة مشاعر الحب والوجد والتوله، وتجد أنفسها في عالم روحاني لا يمكن وصفه. وهناك في ذلك العالم الروحاني يحس كل واحد أن كل دعاء وتضرع وتوسل تعبير عن أشواقه ولهفته، ويجد أن أخفى مشاعر قلبه تجد طريقها إلى لسانه بأخفى الكلمات وأكثرها سرا... عند ذلك سيتذكر طوال حياته أحاسيسه هذه التي اتحدت في ظل تلك الأصوات والأضواء والموسيقى والتي أوصلته إلى لذائذ لا توصف ويصعب بلوغها، ويحتفظ بها كأعز وأثمن وأدوم الذكريات في حنايا فؤاده.

## الروضة المطهرة

الروضة هي البناء الوحيد الذي يُسمعنا روح وجودنا في الدنيا. إن علاقاتنا بهذه البناية المباركة، وروابطنا القلبية معها تثير في قلوبنا مشاعر قدسية مرهفة إلى درجة أننا عندما نريد ذكر شيء عنها نرتجف خوفاً وكأننا نتكلم عن رمز للعفة والطهارة ونخشى أن تبدر منا كلمة غير مناسبة يساء تفسيرها. وكل روح يلتجئ إلى عالمها المضيء يسمع في أعماق وجدانه قول الشاعر:

إياك أن تغفل هنا...

عن الأدب والتوقير...

هنا مقام حبيب الله...

مقام المصطفى...

محط النظر الإلهي...

يسمع صدى هذه الكلمات في وجدانه فيرتجف. كانت مكة طوال التاريخ البشري -عدا فترات استثنائية قصيرة- محراب الإنسانية. وترجع هذه الميزة لمكة المكرمة إلى وجود الكعبة فيها. لذا فالكعبة هي محراب... بل سلطان المحاريب. ولهذا المحراب المجيد منبر -على صاحبه الصلوات والسلام بقدر ذرات أجسادنا- وهو الروضة المطهرة التي هي أطهر من رياض الجنة وبساتينها.

تأتي الروضة بمعنى الحديقة الزاهرة. وهي بالنسبة للمؤمنين الذين يحسون

بعلاقات معينة مع الأشياء المباركة، وما ينتج عن هذه العلاقة من مشاعر وأفكار وتصورات وتلقيات مختلفة ومتغيرة على الدوام ضمن دائرة "الفن-المعبد" ومطاف الأرواح المقدسة، تشكل حظيرة القدس.

تغير المظهر الخارجي لهذا المكان الطاهر من الناحية المعمارية والفنية عدة مرات وتبدلت نقوشه الخارجية، ولكن لم تمتد أي يد لتغيير ما يتعلق منه بعالم القلوب، ولا يمكن أن تمتد.

هناك أبواب كثيرة تفتح نحو صاحب الروضة الطاهرة مثل انفتاح القلوب والصدور المتمزقة بحبه، و منافذ كثيرة كالمنافذ الكثيرة التي تفتحت من روحه للإنسانية كلها. وأشهر هذه الأبواب هو "باب السلام" الذي قال فيه الشاعر "نابي":

هذا الهلال في السماء...

عاشق ولهان لباب السلام...

فالذين يسلمون عليه وهم يلحون من هذا الباب يدخلون إلى جو وعالم من الروح وكأنهم سيلاقون سيد القلوب بعد خطوتين... يحسون بهذا ثم يدعون أنفسهم في مهب نسائم خاصة ومختلفة.

الذين يصلون ويتعبدون بالوقار الذي يحتمه وجودهم في حضرة النبي الكريم وبالجد والمهابة اللازمة ويدعون ويصلون عليه يرون أنفسهم وكأنهم يمشون في ممر نوراني بين أصحاب القلوب المتوهبة بحب الله ورسوله الكريم. وبهذا الشوق واللهفة يتقدمون نحو "المواجهة"<sup>(١)</sup> وهم يتوقعون في كل خطوة مفاجآت لا تخطر على البال ولا على الخيال. وآه عندما يصل إلى "المواجهة"!! آه!! لا ترى عيون أصحاب الأرواح النزيفة هنا شيئاً غير ذكراه... يذكره كل منهم ويقن!!.. ولا يجد السلوان إلا في ذكراه. فإن كان

(١) المواجهة: هي الشبك الحديدية الذي يحيط بقبر الرسول ﷺ من جهة القبلة. (الترجم)

قد تمياً مسبقاً، ووضع في الخيال رأسه فوق تلك العتبة وجاء إلى ذلك المكان بعمق وجدانه ووسعة قلبه فلا تسأل عن حاله. هنا يعجز البيان عن التصوير وتخرس الألسنة عن التعبير، ولا يجد الإنسان كلمة واحدة غير التعبير عن هذا العجز.

عندما يصل الإنسان إلى سُترة المرقد -الذي تتخيل بسمة حزينة عليها- من جهة القبلة يواجه المئات من أصحاب القلوب العاشقة التي تنبض نبضاً بالأمل والرجاء. فيحس أنه في جو ساحر من إقليم النور الذي يفتح أمامه باب عالم آخر حسب درجة كل إنسان. وكل من يصل إلى "المواجهة" من أصحاب القلوب العاشقة يحس بأنه سيلاقي حبيبه بعد خطوة أو خطوتين وسيحتضنه، فيثور قلبه في ظل هذه المشاعر، ويسمع في أعماق قلبه أنغاما لمشاعر شوق وعشق لم يخطها قلم ولا سال بها حبر على ورق. ثم إذا بتداعيات ذلك الجو والإقليم الذهبي تلف كل كيانه بأصوات وكلمات وخيالات لا تعد ولا تحصى، وتجذبه إلى عالم آخر فوق الزمان. وكل من يصل إلى هذا العالم يجمع يومه مع أمسه وأمسه مع عصر النور للحبيب، ويشمل من أخفى همسات مجلسه، فيكاد يغيب عن وعيه.

يمر الزمان أمام الروضة المطهرة مرور حلم أو خيال. ويكاد كل روح لم يدر ظهره تماماً لصاحب الروضة قد شرب من كوثر شراب عشقه فثمل فلا يود أن يفارق هذا المكان. هنا تتوقف الأفكار وتصمت، وتدخل الأرواح تحت ظلال الأحاسيس، ويلف القلوبَ الشوقُ إلى الوصال. هنا تتفتح خيالات كالورود في أعماق الإنسان لا تقبل دخول أحد حريمها... خيالات يكاد يذوق منها صاحبها أذواق حدائق الجنة، وأذواق أصحاب الجنة واطمئنانهم ونشوتهم. كأن هذا المكان في الدنيا امتداد لمكان من وراء الفضاء صمم بيد القدرة منذ الأزل لتتهيج خيالات الأرواح الحساسة وتصعيدها، وشحذ مشاعر الحبة فيها، ووضع أعذب ألحان الحبة والشوق

فيها. والذين يدعون ويسلمون أنفسهم إلى الأعماق الملونة والغنية لإقليم الإيمان سيجدون أنفسهم في بحار واسعة وغنية من التصورات، ويدركون أن هناك في الحياة التي يسلكون دروبها جانباً مجهولاً من النفس، أي "أنا" آخر هو هدف بني الإنسان في الحياة، يتماوج فيها "الخفي" و"الأخفى". كأن الستار الرقيق لعالم الشهادة قد ثقب فظهرت حقيقة الإنسان كما هي مثل ظهور حقائق الأشياء الأخرى. لذا يحس كل إنسان كأنه يعيش في الحياة الآخرة، فيتبع تناغم ذلك العالم ويحس بنشوة الفردوس.

يلفنا جو العبادة في الكعبة وجو العشق والهيام في الروضة المطهرة. في الأولى نحاول الحصول على جواب لسر العبادة وفهمه، ونختصن الأخرى بصدق ووفاء. ومع أننا لا ندرك تماماً ما نحسه من أمور وأشياء هنا تمام الفهم، إلا أننا بمشاعر وجد يجلب عن الوصف، وبعواطف عميقة تتلاطم في جوانبنا نحس أننا قد انتشينا في عالم سحري وشاعري خاص فنجد أنفسنا وقد انحنينا راكعين ساجدين بمشاعر لا نستطيع التعبير عنها.

تمر أيام هذه الحياة التي نعيشها هنا بين أمواج عواطف العشق والشوق الضاربة في سواحل قلوبنا كعهد وصال ولقاء. كل صرخة مكتومة وكل أنين خافت يبعث رجفة في القلوب كرجفتها عند سماع صرير الباب المفتوح على الحبيب. يئن الروح قائلاً: "أنا أريد اللقاء... أنا أريد الوصال". أحياناً يبدو ثم يتلاشى خيال الحبيب من وراء عصره أمام خيال العيون المغمضة للواقفين وقفة توقير واحترام أمام باب الحبيب، الباحثين عن منفذ خيال يوصلهم إليه. هذا الباب يشوقهم على الدوام ويجدد أملهم برقة ولطف.

الجدران هنا والأعمدة والقباب التي تبدو وكأن مثاقب العشق قد حفرتها، بل حتى الأرضيات ومفروشاتهما وكل شيء تقريباً لوحات جمال تذكر بألوانها الزرقاء والخضراء والصفراء ألوان الزهور الرقيقة.

والقبة الخضراء والمرقد الطاهر الذي نستطيع تشبيهه على الدوام بروح

طاهر عندما يتمازج مع أعماق عالم الفكر لدى العاشقين يتحول إلى نوع من عالم تلفه الأسرار حتى إن الإنسان يحسب هناك أن مكانه قطعة اقتطعت وجلبت من الجنة.

لقد رأيت حتى الآن العديد من الأماكن المباركة التي تحمل ذكريات روحية ومعنوية. ولكن الروضة الطاهرة للرسول ﷺ كانت وستبقى إلى الأبد صاحبة أعماق الآثار في قلبي. فقد احتضن روحي تلك البلدة على الدوام بحسرة من هذه الشوق للوصال. وكلما احتضنها يرتفع صوت من أعماقي يقول: "هذه هي البلدة التي لن أستبدل بحفنة تراهما العالم كله".

هذه أحاسيس روح فج لم ينضج بعد. أما ما يشعر به أصحاب الأرواح السامية بالعرفان والمخلقة عاليا بالعشق فيجب أن نستمع ذلك منهم ونتعلم. وما أحاول هنا قوله هو أنني -بقابلياتي المحدودة القاصرة- أحاول فقط إثارة أهل الحمية... فإن استطعت هذا عدته وسيلة لإحراز رضا روح سيد الأنام، فأقبل لألمس مطرقة بابه متوسلا ومتضرعا: "اقبلني يا رسول الله!.. اقبلني بأبي أنت وأمي!"

## المسجد الأقصى

أحياناً لا تتلاءم التقديرات الموجودة في الأرض مع القيم الموجودة في السماء. فمثلاً ترى شخصاً مباركاً هناك وهو محتقر في الأرض، والمطاف المقدس هناك تراه تحت الأقدام في الدنيا. والمسجد الأقصى اليوم أفضل مثال على هذا.

كان هذا المعبد التاريخي المشهور مقدساً لدى اليهود والنصارى منذ القدم. ثم تشرف بكونه ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال لدى المسلمين. عاش المسجد الأقصى عصره الذهبي في عهد النبي داود وسليمان عليهما السلام، ولم يبق اليوم شيء من هذا المعبد العائد إلى ذلك العصر الذهبي المجيد.

بعد هذين النبيين الكريمين بدأ عهد الانحلال والتفتت الداخلي في بني إسرائيل على مستوى الدولة. وكانت من النتائج الطبيعية لهذا الانحلال تعرضهم لسيطرة الأمم الأخرى وللتهجير وللنفي والأسر... إلخ. وقبل أن تلتهم جروح استيلاء الآشوريين على فلسطين والمسجد الأقصى، انسحق هذا البلد تحت أقدام البابليين وتعرض لظلم صارخ أنساه ظلم السابقين. ثم بدأت سنوات الأسر الطويلة وعهد المهانة والذل التي تخجل منه الإنسانية. ثم ظهر عهد من التجمع، ثم عهد من الاستعباد والاحتلال الروماني، أي عهد آخر من الأسر ومن الذل. وهكذا انصرمت الأعوام بين غدر العدو وتجرع آلام الاستعباد، وكذلك بين أنين المسجد الأقصى تحت الأغلال.

عاش المسجد الأقصى عصره الذهبي الثاني في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وبعد عدة عصور من هذا العهد الزاهر جاء الصليبيون

بكل ما في جمعيتهم من الظلم والهدم والتخريب والدم والنار، فدنسوا حريمه وعلقوا الصليب على قبتة. وبينما كان هذا المعبد المبارك ينتظر البطل الذي يعيد كرامة المسلمين وهيبتهم إذا به أمام البطل التاريخي صلاح الدين الأيوبي الذي قام بإنقاذه وتحريره. أما عهد الطمأنينة والسلام الأخير الذي عاشه هذا المعبد المبارك طوال الأربعة عصور الأخيرة فقد كان بفضل السلطان الداهية سليم صاحب الروح العالي والقلب النزيه.

كان المسجد الأقصى من قبل محط أرق الذكريات الدينية والمعجزات وأصفي المشاعر الروحية... أما الآن فهو كسير الفؤاد متعب قد لفه الصمت. أما نحن فنحن شوقاً إلى الوصال لعدم قدرتنا على الوصول إليه.

وجد المسجد الأقصى على الأرض في الشريط الزمني نفسه تقريبا للكعبة، وارتفع -مثله مثل الكعبة- بأمر من السماء وكأنه انبثق انبثاقاً من باطن الأرض، وأصبح محراب الأولياء أحياناً، ومنبرهم أحياناً أخرى. فتح جناحيه فوق كل من دخل حريمه طوال العصور مردداً على الدوام وحتى في أظلم العهود وأحلكها: "لا ظل إلا ظله هو"، وأصبح مكاناً مباركاً ورمزاً للأمن وكأنه "جنة المأوى" على الأرض.

هذا المعبد العظيم الذي يحمل ألف ذكرى وذكرى، وألف خيال وخيال يقف الآن وقد نكس رأسه إلى الأرض، وأحاطت به الظلمات من كل الأطراف، وقد نال منه الرهق والنصب وهو يتطلع إلينا وعلى وجهه مسحة من الحزن. كلما رأيناه بهذه الحال نحس كأن مآقينا تمتلئ بدل الدموع دماً، وكأن أنفاسنا تنقطع. وبينما كان بالأمس محراباً مقدساً يفتح في نفوسنا نفحات ربانية، ومنبراً مبجلاً، نراه الآن وقد قلع من جذوره وتكسرت أجنحته، وأطفئت أنواره التي كانت تشع على العالم، وتحول في يد بعضهم إلى شجرة تكاد تنطفئ، وإلى هيكل عظمي يكاد يقع وينكفي على وجهه.

عندما نشاهد صورة هذا المعبد الحزين الذي أبعد عن أشقائه في لوحات

الصور أو في شاشات التلفزيون، يرجع بنا الخيال إلى أيامه المجيدة، فنكاد نسمع أصوات حلقات الذكر فيه. وبينما تستعد نفوسنا للدخول إلى عالمه الطاهر، إذا بنا نتذكر فجأةً حاله الحاضر من الأسر المرير، فنحس كأن نصلا حادا ينغرس في أرواحنا، أو كأن يدا قطع وتسلخت منا رثتنا. وهو بوضعه هذا يبدو كضحية مظلومة قُطعت أوصالها إربا إربا. يبدو كإنسان حزين قد حصر بين جحود الأصدقاء وبين غدر الأعداء وظلمهم. كأنه عندما مُزق أشلاء، ورُميت أشلائه يمينا ويسارا صرخ بأعلى صوته، ولكن لم يسمعه ولم يهبّ لنجدته أحد.

كلما ظهر أمام أنظارنا المملوءة حيرة ودهشة يبدو مختلفا عن السابق. كان نضرا وشابا، يجلب النظر والانتباه، أما الآن فقد بهت ألوانه وخفت أضواؤه. كان من قبل ذا زينة وذا دلالة، أما الآن فيبدو شيئا وعاجزا. كانت قبابه من قبل تُردد أصداء العبادات والطاعات، وتشر عطر الروح والمعاني السامية. أما الآن فهو بنقوشه الباهتة وبصوته المبحوح، وبالاحتلال الذي تعرض له يبدو كإنسان قد انقرض وزال طالع.

أجل!.. فبينما كان المسجد الأقصى بذكرياته العديدة الطافحة التي كانت تغي روحه المتألئى المضيء والرزين، وبصحته وهدوئه الواسع الذي يهبّ علينا كنسيم رقيق... بينما كان مصدر نفحات إلهية وكأن آذانه في السماء وشفثيه قد التصقتا بأسماع قلوبنا، يهمس فيها همسات الطمأنينة والسكينة... نراه الآن يحاطبنا بلسان متلعثم وبلحن حزين، فيجعل عيوننا تمتلئ بالدموع، وقلوبنا بالأسى والهَمّ.

وعندما رأيت لأول مرة حاله هذه التي تدهور إليها قلت: "اواه!.. إذن فلن تجتمع بكل محبة القلوب المؤمنة المملوءة بالانفعالات بعد الآن بين جدرانها التي ترددت في جنباتها أصداء صوت آدم عليه السلام، وأنفاس إبراهيم عليه السلام التي تماوجت فيما حواليا، وأذكار داود وسليمان عليهما السلام التي

رنت فيها... لن نجد بعد الآن الجو الذي أحاط بسُلطان الانبياء ﷺ والذي فتح أشعرته هنا لرحلة نحو عالم اللانهاية... رحلة وصال الحبيب... لن نجد هنا الأنفاس المطمئنة الآمنة لعمر بن الخطاب ﷺ التي ترددت في جنبات هذا المسجد، ولا النبرات الرجولية لصوت صلاح الدين الأيوبي التي ترددت تحت قبته. ولن نسمع بعد الآن كلمة الجلالة "الله" وهي تنطلق بكل وجد ومحبة من حناجر المؤمنين. اواه!.. إذن لن نتفتح بعدُ هذه الأبواب على مصاريعها لأصحاب القلوب المؤمنة... لن نتفتح ببطء... ولن نتفتح بسرعة... لا بفرجة... ولا بأي انفعال أو وجد، لن يستطيع أحد بعد اليوم أن يلتقي بتلك الأرواح السامية التي كانت لها أفضل وذكريات عاشوها في هذا المكان... لن يستطيعوا لقاءهم بعد الآن في حديقته، او عند نافورة ميضأته، أو تحت قبته المنفتحة إلى السماء... لن يستطيعوا بعد الآن عيش ذكريات الماضي المتداخلة مع أحلام المستقبل. لن يستطيع أحد بعدُ جسّ نبض الأسرار في نوافذه... ولا الانغماس في خيال الربانيين وهم يسرحون في عالمه الذي يشبه سفوح الجنة.

إذن فقد انتهت جميع الأحلام وجميع الخيالات العائدة للمسجد الأقصى... لقد انطفأت جميع الأضوية التي كانت تشع حواليه، وصمتت أصوات التكبير والتوحيد والتهليل التي كانت ترتفع من قبته وتصل إلى السماوات. يقال إن للحجارة وللشجر آذاناً. فكم كنت أتمنى أن تكون لها ألسنة أيضاً. أجل! فلو كان لهذا المعبد لسان، واستطاع أن يعبر عما رآه في السابق، وعما يلقاه اليوم لربما ارتعب المسؤولون عن حاله مما فعلوه، ولربما حجل الأصدقاء الجاحدون ورجعوا إلى أنفسهم.

وأنا شخصياً كلما نظرت وأبصرت كيف تم قرص معاني الروح الآتية من ماضيه، وكيف أهينت هذه المعاني وقضي عليها، أشعر أننا تعرضنا لهزيمة

مرة في جبهة القدس، فأشعر بغصّة في حلقي.

فمن يدري كم من الحزن والأسى مطمور في قبته الباهتة، وفي جدرانها السوداء... وكم من الهمّ والغمّ يسيل مع مياه ميضأته... وعلى غرار الناس الذين لا يحسنون بثّ همومهم وأحزائهم، ويكاد الصمت يتحول عندهم إلى شيء خائق... على غرار هؤلاء تنظر إلينا هذه القبة وهذه الجدران نظرات اليأس مخفية داخلها كل همومها.

إن المسجد الأقصى الذي يريني مجدا تاريخيا، ويرجعني إلى ذكرياته، قد أصبح بجدرانها التي يفوح منها الحزن والأسى، وبقبته التي تبدو وكأنها انفصلت عما حوالها وتسامتت إلى السحاب، وبمحيطه وأجوائه وبأبوابه التي تبدو وكأن كل باب منها منفتح على بُعد آخر من أبعاد اللانهاية... يبدو هذا المسجد وكأنه غارق في الضباب، أو كأنه مجرد صورة باهتة لا لون لها.

إن خروج المسجد الأقصى من أيدينا يؤلمني. ورؤيته أسيرا بيد آخرين يذيب القلب من الكمد. وفي الحقيقة فإنني عندما أراه كلؤلؤة تحطمت محفظتها وعلبتها أحس بمشاعر المرارة والألم تتصاعد من روحي وتمزج من أساسه وتقلبه رأسا على عقب.

إنه بوضعه الحالي غريب سواء أسكبنا الدموع حوله أو صلبنا في حرمه. وهو يعيش أكثر أنواع الأسر قسوة وألما... وإذا قُدّر لنا أن ننهض وأن نرجع إلى أنفسنا، وتستيقظ أرواحنا فلا توجد لوحة أكثر تشبيها وإيقاظا وإيلاما وإثارة لنا من المنظر الحالي للمسجد الأقصى.

## أياصوفيا

أياصوفيا أفضل مثال ملهم عن الفن المعماري للقبب الفخمة في سفوح وادي الرافدين وفي سوريا، وأبقاه على مر الدهور وأفضل تمثال له. وهي تمثل أول كنيسة شرقية لها صبغة عالمية، وأكبر معبد للعالم المسيحي حتى الفتح المبين لاسطنبول. وعندما انكسرت صولة الصليب وشوخته بين البحرين تحولت "القسطنطينية" إلى "اسطنبول"، وتحولت أياصوفيا إلى جامع. واستمر هذا حتى سنة ١٩٣٤ عندما حوّل هذا الجامع إلى متحف فسكت من فوق مآذنها صوت الأذان، ومسح عن قبتها اسم الجلالة، وقصت أجنحة هذا المعبد العظيم الذي كان قد امتزج بهوية هذه الأمة وبجياتها الروحية عصورا طويلة.

أياصوفيا بشكلها البسيط وبهوية أي معبد آخر هي أثر من آثار "قسطنطين" وابنه. وتعرضت إلى حرائق كبيرة ثلاث مرات، وإلى إصلاحات وتعميرات لإرجاعها إلى حالها السابق. وكان هذا حظا نحسا مثل حظها الحالي حيث يحيط بها الضباب من كل جانب. وكان أمر الامبراطور "جستينانوس" ببناء هذا المعبد بكامله من الطابوق هدية إلى مريم العذراء عليها السلام أكبر جهد تاريخي في سبيل هذه الكنيسة التي تحولت إلى جامع. افتتح هذا المعبد الكبير للعبادة بمراسيم فخمة تناسب ما يحتويه من إبداع معماري داخلي ومنظر خارجي فخم ومعان مادية ومعنوية كبيرة ترتجف لها قلوب الأهالي لكونه هدية إلى مريم العذراء عليها السلام. وبينما كان الأهالي يطلقون صيحات البهجة والفرح لهذه الهدية المقدمة من أجل المسيح عليه السلام، كان الامبراطور يفتخر بهذا الصرح العظيم ويخاطب النبي

سليمان عليه السلام قائلا: "لقد سبقتك". ومن الغريب أنه لم يكن قد مر ربع قرن على الافتتاح الفخم لهذا المعبد العظيم حتى اهتز بزلازل عنيف أثاره جانب من قبته الكبيرة الفخمة، كما تحطم كرسي الواعظ ودواليب الشراب والخيز المقدس لدى النصارى. هنا بدأت التعميرات والترميمات والنقوش الداخلية من جديد.

ولكن لم يمر إلا وقت قصير حتى تعرضت القسطنطينية إلى غزو اللاتينيين واحتلالهم الذين قاموا بهدم هذا المعبد الفخم وإحراقه، ونهب النفائس الموجودة فيه. ولم يكن هذا يشكل إلا جزءاً يسيراً من المصائب العديدة التي تعرض لها في تاريخه الطويل، حيث لم يجد الراحة والاطمئنان إلا عندما تحول إلى أصحابه الحقيقيين في منتصف القرن الخامس عشر حيث عاش عهده الذهبي خمسة قرون.

وفي العهد الذي تصاعدت فيه الصراعات والنزاعات الدينية والمذهبية التي هزّت بيزنطة من قواعدها، عانت فيه أياصوفيا من ناحية معناها ومحتوياتها من قبل منتسبي دينها كل المعاناة، وظهرت النتائج الحتمية للسكون والخمول وعدم الحركة بأجلى مظاهرها. وعندما دخلت بيزنطة في عهد الانهزام والانحطاط، كانت قبة أياصوفيا وجدراها تتعرض إلى الانهزام نفسه.

وبينما دخلت "القسطنطينية" في مرحلة التحول إلى "اسطنبول" امتدت يد المعماري العبقري "خير الدين" بكل التدابير الضرورية لتقوية أسسه لمنع الانهزام الذي كان مقدرًا لهذا المعبد الكبير. وحسب الرواية التاريخية فقد مثل هذا المعماري الكبير بين يدي السلطان فاتح في مدينة أدرنة وقال له: "مولاي السلطان!.. لقد هيأت أسس مآذن أياصوفيا وقواعدها، فإن رغبت تحولت إلى جامع على يدك"، مظهرًا بذلك أنه كان يشارك السلطان أحلامه. وهكذا استطاعت أياصوفيا وللمرة الأخيرة أن تنقذ نفسها على يد

معماري مسلم تركي من السقوط نحو هاوية الفناء والانهدام، حيث قويت أسسها وقواعدها، فوصلت بذلك إلى الخلود.

أدى السلطان فاتح وجيش الفتح صلاة الجمعة الأولى في أياصوفيا. ثم تعرضت أياصوفيا -وهي في طريق تحولها إلى جامع- إلى تطورات عديدة وإلى تكامل بإضافة المآذن وبعض الإضافات الخارجية من حوليها، وإلى تزيينات حسب الذوق الفني في عهد كل سلطان جديد حتى وصلت ضمن مراحل عديدة إلى وضعها الحالي.

ومنذ صلاة الجمعة الأولى التي صلاها المسلمون فيها دخلت أيا صوفيا قلوب المسلمين الذين بدأوا بأداء الصلوات الخمس فيها، وتمازجت مع الحياة الروحية للمسلمين إلى درجة أن اسطنبول عندما تعرضت لغزو واحتلال "أهل الصليب"<sup>(١)</sup> الذين قرروا إرجاع جميع الكنائس التي تحولت إلى جوامع إلى أوضاعها السابقة دوى صوت قوي من قبتها، فارتجت أصدائه في أرجاء الأناضول. وبفضل هذه الأصداء استطاعت أمتنا معرفة الطرق المؤدية إلى الاستقلال، وتخلصت أياصوفيا من تعليق الصليب على قبتها. ولكن هذا المعبد الذي مُثِّل على الدوام بأجيال الروح والإرادة حتى اليوم، وبالقوة القدسية التي كانت تحملها تلك الأجيال... بينما تخلص في السابق من عالم ماديّ والتجأ إلى الروح الحمدي الممثل للمعنى والروح، تحول اليوم وبعد خمسة عصور من تعلق أصحابه الحقيقيين وارتباطهم به إلى وضع بين الجامع والكنيسة، وذلك بعد أن قرر أصحابه الجدد السير في ركاب الغرب وفلسفته المادية. وهو الآن ينتظر روحا معنويًا منقذاً له. ولكي تتخلص

---

(١) حدث هذا في أعقاب الحرب العالمية الأولى عندما دخلت البواخر الحربية لأربعة جيوش من دول الحلفاء إسطنبول واحتلتها. وأراد قواد هذه الجيوش تعليق نواقيس ضخمة على قبة أيا صوفيا، وعندما علم الخليفة الأسير وحيد الدين بهذه النية أمر حرسه الخاص أن يذهبوا إلى أياصوفيا ويقاتلوا حتى الموت لمنع المختلين من تحقيق هذه النية. وعندما سمع الحلفاء بهذه النية أحجموا عن تنفيذ خططهم خشية من اندلاع ثورة شعبية في إسطنبول. (المترجم)

أياصوفيا من هذه الوهدة الأخيرة التي سقطت فيها وترجع إلى بعث جديد، هناك حاجة لأبطال من أمثال السلطان محمد الفاتح، وخضر جلبي، وأولوباطلي حسن، وآق شمس الدين ممن شربوا من نبع الخضر عليه السلام. أي عند الرجوع إلى روح العلم الموجود في المدرسة الحقيقية، وإلى الحياة القلبية الموجودة في التكية، وإلى روح النظام الموجود في الجندية، وأخيرا إلى البطل الذي يجمع ويؤلف بين أرجل وأعمدة الاستناد هذه.

لقد امتزجت أياصوفيا بروح أمتنا، وتشربت بها، وتغلغلت في أعماقها إلى درجة أنه على الرغم من مرور كل هذه السنوات، فإن من يقترب من حوارها، ويدخل في جوها النوراني المضيء الخاص، ومآذنها الغارقة في الصمت، يحس بتداعيات معان عديدة من عصورها المنورة، وكأنها تمس في أذنه كصديق قدم بعض الأحاديث، وتهمهم ببعض الكلمات، وتحاول التعبير عن بعض المعاني. وكلما اقتربنا نحن من حوارها تتأملها وننظر إليها كجوهره خلفها لنا أجدادنا العظام، وتتنخيل أنها تبسم لنا وتحاول أن تخاطبنا وتمس في أرواحنا بعض المشاعر الخفية.

أجل!.. إنها بوضعها المنعزل الحزين الحالي، ووحدها التي يتفطر لها القلب حزنا وغما، وبجو الهزيمة التي تعمقت ألوانها بمرور الزمن، لا تزال مثل طفل يحاول جلب الانتباه إليه، والحديث عنه، وتحبيب نفسه، فتسعى لماء العيون والدخول إلى القلوب، والتحول بجو من ماضيها إلى لون وضوء وشعر ينساب في أرواحنا.

إن أياصوفيا بمنظرها شبه الضبابي، وبلونها الضارب إلى البرتقالي، وبطبيعتها الشمالية<sup>(1)</sup> هي أقرب ما تكون إلى زهرة برية غريبة وليست زهرة من الأناضول. لذا ففي النظرة الأولى قد تصطدم أنظارنا، ولكن سرعان ما تلفنا وتحيط بنا ألوان أنوار الأنس بها التي نبعت من صداقة خمسة قرون بكل

(1). بمعنى أن الذين بنوها هم من الأوروبيين وليسوا من الشرقيين الجنوبيين. (الترجم)

عطرها الذي يفوح ويتمواج ويأسرنا بموجات متتالية ومتعاقبة. لذا فلا نملك إلا أن نحتضنها بكل حب ومودة، ونشمها كزهرة من بستاننا ومن حديقتنا. فإن أضفنا إلى هذا الموقع المتميز والحبيب للماضي والخيالات التي يثيرها في القلوب من أيامها التي كانت فيها شابة نضرة مضيئة، فنحاول فهم المعاني المناسبة منها إلى القلوب بعمق والشعور بها... هنا نراها وكأنها تبدأ تترنم بلحن ماضيها كقطعة موسيقية تتصاعد منها الألحان مرة وتخت مرة لتحككي أو لتصرخ. بما تخفي في أعماقها من ذكريات حلوة ومرة، ومن أيام بيضاء وسوداء، وما مر بها من خير أو شر ضمن تاريخ حياتها الطويل الممتد لألف وسبعمائة سنة... نحاول هذا ولكنها لا تستطيع، فهي كشخص سُدّ فوه بعصاة قوية، فلا تستطيع التفوه بكلمة، بل تكتفي بيلع ريقها... نحاول أن نقول شيئاً أو تبوح بشيء فلا تقدر. وبجزن العجز والمجر تكاد تنكفي على وجهها كمدا وحزنا، وتتحول إلى مجرد كومة من اللبنات الجامدات.

منذ عصور وعصور تمازجت أياصوفيا مع عالمنا، والتحمت معه التحاما إلى درجة أننا نستطيع أن ننظر إليها كأثر اسطنبولي خالص بالجدران الساندة التي تحيط بها من جميع أطرافها فتؤمن بقاءها منتصبة على قدميها، وبالإضافات الكبيرة والصغيرة في داخلها العائدة إلى مختلف السلاطين العثمانيين، وبقائتها طوال أربعة عصور في حماية وبالقرب من قصر "طوب قابو" الذي كان مركز إدارة تلك الدولة العالمية. ثم كوفا جارة لجامع "السلطان أحمد" طوال كل هذا الزمن، مما أدى إلى امتزاجها في جوه وعطره حتى أصبحت جزءاً من عالمنا ومن دنيانا لا يمكن قطعها أو فصله عنه.

كل يوم تشرق الشمس فتساب أشعتها موجة إثر موجة من بين مآذها، وتلمس قبتها، وتربت عليها، وتداعبها ثم تتوجه وتصل جامع السلطان أحمد. وعند الغروب تتوجه حزمة الضياء التي تحتضن جامع السلطان أحمد مع النسائم الحزينة لما بعد العصر إلى قبة أياصوفيا لتلمسها بلطف وتمسح

عليها مارّة من فوق قصر "طوب قابو" قبل أن تنزلق وتترك نفسها للفراغ. الضوء يمر جيئة وذهابا بين هذين المعبدين العظيمين مرتين في اليوم وكأنه ينقل التحية من النبي عيسى عليه السلام إلى النبي أحمد عليه السلام، ومن النبي أحمد عليه السلام إلى النبي عيسى عليه السلام.

يحب أصحاب القلوب الحزينة في جو هذين المعبدين محبوب نسيم ضبابي بارد من الشرق إلى الغرب باتجاه قصر "طوب قابو". ومع هبوب هذا النسيم يشعرون بلوعة يثيرها في أرواحهم الشعور بالعجز، وتغص حلوقهم فيتنون بألم. وأحيانا يرون وكأن الغيوم والضباب قد غطى وجه السماء. وأحيانا عندما تبلغ الآلام درجة الحفقتان تتحد هذه الآلام بعناية ذي القدرة اللاهائية وبلطفه، وتكون كإصبع شهادة ترنو من بين المآذن التي تشير نحو الأبدية على الدوام، فيستغرقون في تأمل فريد، ويصلون إلى نشوة لا يمكن وصفها، وكأنهم عثروا على سحر يبدد بأسهم وينور إرادتهم. وبعد خطوة واحدة يخطونها يلجون من باب رحمة الرحمن المفتوح أمامنا على الدوام. ثم يتوجهون بكل قلوبهم إليه متضرعين بكل لوااعج المجران: "يا رب!.. يا مفتاح كل الأبواب الموصدة!.. افتح لنا مفاتيح أياصوفيا الصدئة وأبوابها المغلقة مثلما فتحت آلاف الأبواب الأخرى، ونور أرضها التي اسودّت نتيجة حرمانها من السجادات بنور السجود مرة أخرى".

الوضع الحالي الأليم لأياصوفيا يدفع كل شخص لقول أشياء مبدعة وإن كان قولاً يلفه الألم. فوضعها المؤلم يشبه منظر شخص يرنو ببصره إلينا ولا يستطيع أن ينطق بما في قلبه. وكلما شاهدنا حالها هذه بدت في أعماق أرواحنا آمال عولمنا الداخلية ورغبات من خيالنا. هنا تنتبه جميع مشاعرنا النائمة والغافية، وتتحفز للقائها واحتضانها في صباح يوم مشرق، ومشاهدة أحلامنا المرتسمة عليها، وندع أنفسنا في سبيل من أحلام في ديار من الضباب والدخان.

أحياناً تبدو أصوات الأذان المرتفعة من مآذن جامع السلطان أحمد الواصلة إلى قصر "طوب قابو" وكأنها صرخات آتية من أياصوفيا. هنا نشعر بسحر يسري في قلوبنا بطعم الماضي، ونحس أننا نظير بأجنحة سحرية في سماء الأمس. وأحياناً تتسلل إلى أرواحنا أشياء عميقة مع تداعيات صوت الأذان، فيخيل إلينا أننا نستمع مع التكبيرات إلى جلبة صوت جيش الفاتح وأصوات الطبول وصرخات الحرب: "الله أكبر! الله أكبر"، ونعيش لحظات المجد تلك.

الأشجار الهرمة الموجودة حوالى أياصوفيا، والجدران القديمة، والقبة الكبيرة منها والصغيرة المملوءة بذكريات مجهولة، تثير في نفوسنا أحياناً مشاعر مبهمه... مشاعر تنقلب إلى مثقب يثقب أرواحنا، ويترك في صدورنا آثارا لا تحمى. ولكن هذه الحال لا تلبث طويلا، حيث يشرق من أفق إيماننا فجر الآمال. وكما ينهزم برد الشتاء وقره أمام تفتح الربيع، وكما ينحسر الليل أمام ضوء الفجر، تنحسر الغيوم السوداء المحيطة بأياصوفيا بعد كل هذا الزمن غيمة غيمة، وتتشتت لتبدو السماء الزرقاء الصافية محلها.

لم يكن الظلام في أي وقت أبديا، ولا يمكن أن يكون... ولا يمكن أن يستمر الفراغ إلى الأبد، ولا يمكن للصمت والتدهور أن يستمرا إلى ما لا نهاية... لذا فإنه حتى في أظلم لحظة من هذا الليل البهيم الذي نعيشه... هذا الليل البعيد عن آمالنا... حتى في هذه اللحظة لم تنعدم أنوار تطرف بعيونها لنا، وتومئ لنا من بعيد... وأنفاس إلهية تملأ أرواحنا وتشرح صدورنا... ونسائم تقوي عزائمنا... لم تنعدم ولا يمكن أن تنعدم في أي حين من الأحيان.

في هذه الأيام وفي مختلف أرجاء هذه الأرض مواسم الربيع المنفتحة... كل ربيع أزهى من الآخر وأجمل!.. ولا شك أن أياصوفيا ستأخذ نصيبها من هذه الخضرة التي بدأت تنتشر في كل مكان، فهذا شيء طبيعي. ولم نفقد نحن هذا الأمل في أي وقت من الأوقات طوال أيام البعد والهجران التي عاشتها وتعيشها أياصوفيا. لم نفقد هذا الأمل، بل بدأنا وكأننا نرى أبوابها وهي تنفرج قليلا قليلا، ونحس أننا نعيش أيام أفراح وزينة واحتفالات.

كل يوم يمر هناك أصوات تتقوى، وصدور تنبض أكثر بالانفعال،  
وأرواح تتربط في هذا الموضوع بقوة أكثر، ورغبات تفور، وإلهامات  
تنزل إلى قلوبنا وتصعد مثل شفاه دافئة، وآمال وأشواق وأفراح حلت محل  
الأم والهجران... وكلها أمارات لا تكذب على الفجر الصادق.

أياصوفيا التي اصفرّ وجهها وبهت من بكاء الألوان والأنوار، وانهدت  
طاقتها بعد كل هذه السنين العجاف... أياصوفيا هذه حملت على الدوام  
بنظرات واهنة تحمل كل معاني العتاب في وجوهنا. وطوال أعوام عدّة  
انتظرت بكل ما حواليا من حزن منعكس على الزهور الباهتة اللون وعلى  
نافورات الضوء المترققة بحزن، والطيران الحزين للحمام البري... انتظرت  
على الدوام البطل الذي ينقذها.

ونحن نؤمن بعد كل لوحات الحزن هذه، وفي الليل الضبابي الحالي الذي  
يلف كل شيء... نؤمن بأنه: "اشتدّي أزمة تنفجحي"... ومنتظر ان تفتح  
أبواب السماء فجأة على مصاريعها، وتنهمر الأنوار والآمال على قلوبنا من  
وراء الآفاق... أشجار الدلب والصنوبر المتطأطة رؤوسها حزنا  
ستتعث وتتمايل بفرح ونشوة... وبكل مظاهر الفرحة والبهجة التي ستلف  
أجواء أياصوفيا آنذاك سيزول الضباب الجاثم على صدرها ويختفي...  
والخلاصة أننا بانتظار أضواء وأنوار سرية تخرق ظلام هذا الليل البهيم  
لتضيء لنا الدروب المؤدية إلى عهد الورد والياسمين... نحن بانتظار أمثال  
محمد الفاتح وألو باطلي حسن وخضر جلبي وآق شمس الدين... لنا مثل  
هذه الآمال والأحلام.

عيوني دامعة يا أياصوفيا...

وفي قلبي بحر من الأحزان...

آن لك أن تفتحي لنا أبوابك...

آن ذلك يا أياصوفيا...

## القرآن - ١

هو أكثر منابع النور بركة في الوجود، وأسحر كلام وأكثره نفاذاً إلى القلوب. كل أنواع الجمال الأخاذ الموجودة على سطح الأرض ظل لنوره الموجه نحو الوجود، وأكثر الأصوات والنعيمات سحراً ليس إلا سلماً واحداً أو نعمة واحدة من تلك الأنغام والأصوات السماوية، ونفس من أنفاس الوجود وهمسة من همساته. والتنزه بين آياته النورانية، وكلماته المضيئة تغسل الأدران عن القلوب والآثام عن العيون وتطهرها. إن تأمل الآفاق الزمردية البعيدة التي يفتحها، ينشر بذور الحكمة في العقول، وينقلها إلى سماوات وراء الأفق.

الشمس بالنسبة لعالمه النوراني مجرد حشرة مضيئة، والقمر مجرد أرض قفراء وسوداء وقع بعض الضوء على وجهه. هو بلمعانه الظاهري، وعمقه الداخلي، وغنى محتوياته مائدة آتية من وراء السماوات... مادية لا يستغني عنها أحد حتى الملائكة الكرام التي حملتها وتسلمتها من يد ليد كباقة من الورد العطرة حتى وصولها إلينا.

استقبلت الأرض وساكنوها هذه المائدة الإلهية بشاعرية عالية، وأشواق هيفة، وبجاجة ملححة. وانقلبت أرجاء هذه الأرض العجوز بورود هذه المائدة الإلهية ورياحينها إلى ما يشبه سفوح الجنة. عندما لم يكن موجوداً كانت أرضنا هذه أرضاً يلفها الظلام. وعندما هلّ على الأرض غرقت سهولها وجبالها ووديانها بالنور الذي يشع منه إلى كل جهة، وأصبحت أرضنا كتاباً

يُقرأ ويتأمل. أما حقائق الأشياء التي يشرحها ويقدمها لنا فكأنها خطاب يملأ أرواحنا ويسقيها.

وُهبّت له وحده نعمة الإرشاد إلى طريق سعادة الدارين، فالفتاح الذهبي للسعادة في يده هو. لو لم يقم محل الألبان التي تقابلنا في كل مكان وتحرّنا، لبقينا في دائرة الحيرة أمام هذه الألبان التي لا تعد ولا تحصى، وفي دائرة التيه، ولما استطعنا الوصول إلى انسجام بين أفكارنا وبين مشاهداتنا. ولو لم يهبّ لنجدتنا لضعنا في تيه هذه الصحارى الشاسعة التي لا يبلغ النظر مداها.

يا أيها الروح الذي أحيانا بموات دنيانا بأنفاسه الطاهرة... لو لم تكن لما كانت دنيانا إلا جحيماً لا يطاق... أنت من يمثل رحمة الحق تعالى على هذه الأرض... أنت من يمسح ظلمات الإنكار والإلحاد من القلوب... لم تتعلم الإنسانية الهداية إلى الصراط المستقيم وسلوكه إلا بك... تعلمت الإنسانية هذا فتخلصت من الفوضى، ومن الضياع في الدروب.

بك خفّ ظلام البشرية...

بك تنوّر الوجود...

أيقاس بنورك البدر؟

يا نور الهداية!

أنت شمس ليلة القدر...

(الشاعر إسماعيل صفاء)

تكلم الآن واهدر بصوتك! لكي تحيا القلوب الضائعة والمتلهفة لكلامك. تكلم لكي يصل الشهد والعسل إلى الشفاه وإلى الأفواه. ولكي يتفتح الأترج النضر في القلوب كأولى ثمرات نضجه.

ولكن أنظر ماذا جرى لهذا البلد الذي تشرف بنزولك عليه شرفاً لا يدان، والذي انقلب بك إلى جنات عدن... لقد تعرض لهجوم الأشواك

وأشجار الزقوم. أما نورك الذي كان ينير أرجاءه فقد رحل إلى ما وراء البحار... لا ندري لماذا... ألكي نتعذب ونمتحن؟

تعال أيها النور!.. تعال!.. لقد آن أوان انتهاء أحزاننا وآلامنا، فتعال!.. فقد طال فراقك وطال غروبك عنا... نحن لم ننسك أبداً... في هذا البلد الذي أقفرت أرضه وأظلمت سماؤه لا تزال هناك معابد يؤمها الفقراء والمساكين... لا يزال عبيرك يملأ أجواء هذه المعابد... ولا تزال القلوب تستضيء بنور مشاعلك.

أيها النور الذي نزل في مكة وفاض في المدينة المنورة... ليس من شأنك الاحتجاب، فلتفصح عن وجهك النوراني... انزع النقاب لكي ترى العيون -التي حاصرتها مشاهد القبح- جمالك... ولكي نظوف ملهوفين حول شموعك مرة أخرى.

أيها الخطاب الأزلي...

أيها النازل من العرش...

أيتها النفحة الإلهية...

لقد نورت بنزولك قلب محمد...

(الشاعر إسماعيل صفاء)

انزل أيها الخطاب الأزلي الإلهي... انزل وكأنك نازل من العرش... انزل لكي تستفيق القلوب وتفتح عيونها على العالم الأحمدي النوراني مرة أخرى. أيها النور الذي تجليت في قلب فخر الكائنات، أيها الكتاب الذي كنت مرآة لوجهه الحقيقي الذي تحجل منه الشمس... اهتف بأرجاء الأرض... اهتف لكي يتردد صوتك في الخافقين... ولكي تمتلئ السماوات بأنفاسك... اهتف لكي يصمت الخطباء المزيفون، ولكي تحرس الألسن الزائفة.

مرت أعوام طوال عجاف والإنسانية تستمع إلى أوهاام وضلالات حتى لم تعد تفهم الحقيقة ولا تدرك الصواب. ولطول سيرها في الظلام أصبحت خلية للخفافيش وعقدت صداقة معها. فمتى تحل عقال لسانك لتسمع أرواحنا الشلالات الهادرة بجواهر كلامك... دع أنوارك تنهمر على دنيانا لتتخلص الإنسانية من الظلام الذي تعيش فيه منذ قرون وعصور. انفخ في صورك - كنفخ إسرافيل في الصور- واملاً أرجاء الدنيا بهدير صوتك... افعل هذا لكي يستيقظ الغافلون من نومهم، ويرجع أصحاب الأرواح الأنانية إلى صوابهم، ولكي يرتعب الذين تعودوا على الترف وعلى الكسل، ولكي تنفض الأرواح الخبيثة التي تسللت إلى كل مكان، واحتلت كل موضع.

انهمر علينا كالمطر وكالغيث، فقد جفت نفوسنا وشفاهنا، وبلغت القلوب الحناجر. هبّ علينا كريح الصبا حاملاً إلينا عطر العرش، فقد تكدرت الأرواح من روائح المعصية حتى كادت تنقياً.  
اركب على متن الصواعق وأرسل دويك إلى أرجاء الأرض لكي تهرب الحشرات التي استولت على الأرض وتدخل إلى جحورها.

كيف ستكون حالنا إن لم تهطل كالغيث، ولم تهدر كالصاعقة، ولم تسحق سحق الصاعقة؟ وكيف ستكون حال الإنسانية؟ وكيف تستفيق هذه الأمة وتنهض؟ وكيف تخطو المدارس إلى الأمام؟ وكيف تنور المعابد؟ وأين سيجد القلب والروح والعقل ضالتهن؟ وأي شيء يستطيع أن يكون بلسماً لهذه الأرواح البائسة والقلوب المكلومة وشفاء لها؟ وكيف تستطيع هذه الأرواح المشلولة أن تبسط أجنحتها وتطير؟ وكيف يستطيع العقل فتح الطرق المسدودة أمامه فيرشد الفكر إلى طريق الأبدية؟

العالم الذي لا توجد أنت فيه عالم قصت فيه أجنحة الإرادة. وضربت الفوضى اطنابها في عالم الأحاسيس، وتحولت فيه العواطف البشرية إلى

مستمتع. أما الموازين العقلية فدون ضوابط، والمنطق مهرج والعلم حماقة. في مثل هذا العالم يكون من العبث البحث عن قيم إنسانية وينخدع كل من يركن إلى هذا البحث.

تعال!.. تعال!.. أرسل نفحة عطر من أنفاسك، وشتت جميع مقالب الشيطان وألأعييه، ودلنا على طريق التوبة التي تم إرشاد آدم عليه السلام إليها.

## القرآن - ٢

هناك العديد من المفكرين المعاصرين الذين يرون بأن العصر القادم سيكون عصر القرآن. والحقيقة أننا إن دققنا قليلاً لرأينا أن عصرنا الحالي بدأ يتجه للقرآن بسرعة أكبر مما كنا نتوقع أو نتصور.

أجل... حتى أصحاب أكثر النظرات بلادة وسطحية يستطيعون حدس كيف أن القرآن مرتبط بالكون ومتداخل معه، وكيف أن جميع بياناته حول الوجود صائبة، فلا يملكون أنفسهم من الإعجاب بقوة تأثيرها ونورانية عالمها.

والذين يعملون في ساحة العلم والعرفان والحكمة يطالعون هذا الكتاب العظيم بكل رغبة ولذة ويشهدون بأنه يشرح أسرار الوجود والأمور الدقيقة الموجودة في روح الطبيعة ويضعها أمام أنظارهم.

إن القرآن هو الذي يتناول كل جزء من أجزاء الوجود بعمق، فيوضحها ويشرح غاياتها ومحتوياتها وأسسها بشكل لا مجال فيه لأي تردد أو شبهة.

يتناول القرآن المعجز البيان أيضاً الحياة القلبية والروحية والفكرية للإنسان وينظمها ويريه أسمى الغايات والأهداف، ثم يأخذ بيده ليوصله إلى هذه الأهداف، ويوصيه بالتعامل معها بكل لطف ورحمة وشفقة وعدالة، يضع بينه وبين السيئات والشرور عقبات وموانع لا يمكن تحطيتها.

القرآن هو البيان الإلهي الذي يقيم النعم الإلهية المعطاة للإنسان كالصحة والعافية والقابلية والقوة أفضل تقييم، ويشير إلى أفضل الطرق للاستفادة

المثلى من هذه المواهب والهبات، وينقذ الناس دون أن يشكل بعضهم لبعض مشكلة أو عبئاً.

إنه كتاب ومنبع للضوء بحيث يقدح في أرواح مَنْ عشقه واتبعه فكرة الحرية ومفهوم العدالة وروح الأخوة والرغبة في مساعدة الآخرين ومعاونتهم والعيش من أجلهم، بحيث يكاد يجعل من هؤلاء -المخلوقين من دم ولحم- شبه ملائكة يسعون في الأرض، ويريهم الطريق المؤدي بهم إلى سعادة الدارين، ويفتح أبواب هذه السعادة على مصارعها أمامهم.

إنه كتاب إرشاد يسير أمام الذين فتحوا أعينهم على الحقيقة بمدايته، ويأخذ بأيديهم ليسيح بهم وراء الآفاق ووراء هذا العالم. ويجول بالقلوب المشبعة بالاطمئنان في أجواء المهابة، ويسكر الأرواح المفكرة بالإعجاب والدهشة والذهول ويشملها، وينفخ في الضمائر الطاهرة نفحات الخير في كل آن.

هو بيان باهر إلى درجة أنه يعد هذا الإنسان -الذي أرسل إلى الدنيا بأسمى روح وفي أحسن تقويم- بأفضل صورة من صور السعادة والهناء، وبأفضل شكل من أشكال السمو والعلو والرقى، وأكثر أنماط الحياة إنسانية بأقوم الطرق للوصول إلى ذروة "الإنسان الكامل".

ألم يكن هذا الكتاب المجيد هو الذي نظم حقوق الفرد وحقوق الجماعة، ونظم العلاقة بينهما من ناحية التعامل والسلوك والوظائف والمسؤولية؟ ألم يعين المفاهيم الصحيحة لحقائق الحرية والعدالة والمساواة وحققها بخطوة واحدة بينما كان العالم أجمع يسبح في دياجير الظلام والغفلة والضلالة؟ ألم يحقق أفضل صراع ضد الظلم والطغيان؟ ألم يدعو إلى رحمة وشفقة إنسانية، بل إلى رحمة وشفقة تشمل جميع الأحياء؟ ألم يضع للحرب وللصلح مقاييس إنسانية فجعل أتباعه دعاة ومثلي الأمن والاطمئنان فوق الأرض ورموز التوازن فيها؟

يا له من كتاب نوراني يذكر الإنسان بعجزه وفقره من جهة، فيكسر

حدة غروره وأنانيته، ويشعل فيه من جهة أخرى أشواقه، ويدعوه لأن يشرع أشرعه للرحيل إلى ما وراء هذا الأفق.

يا له من مجموعة نفحات ربانية يؤمن كل أمر فيه آلاف الفوائد، ويذكرنا في كل نهي بأضرار لا تخطر على البال، ويأخذ بيدنا إلى سفوح الأمن والأمان. وفي اللحظة التي يثير قلوبنا برسائل العدالة والاحسان والأمانة ويرينا آفاق الجنة... في اللحظة نفسها تتوالى تحذيراته عن المنكرات والخلق السيء أو الاعتداء على أموال وأعراض وأرواح وحقوق الآخرين. وتكرر دعوته لنا للالتجاء إلى حماية الله وصيانيته.

إنه كتاب يؤمن بسمو درجات جميع الأنبياء والمرسلين السابقين وجميع الكتب والصحف المنزلة عليهم ويعتبرها كتباً وصحفاً مباركة. وعظم منزلة التوراة والإنجيل والزبور خاصة، وعدّها كتباً مباركة، مع القيام بالحل والفضل في الأمور المختلف فيها، وتصحيح ما حرف فيها، والإيمان بما حفظ منها ولم يمس بتغيير. أي أنه عشر على الكتب القديمة المفقودة بوجه من الوجوه وأظهرها، وذكر أنبياءها بكل احترام وتوقير، ولا سيما النبي موسى عليه السلام والنبي عيسى عليه السلام حيث اعتبرهما ضمن "الانبياء من ذوي العزم". وبذلك برهن أنه كتاب ينطق بالحق. ثم ذكر بأن والديّ هذين النبيين العظيمين كانتا مظهرًا للإلهام، أي كانتا تملكان قلباً وروحاً متميزين عن سواد الناس، وبذلك أثبت لجميع أصحاب القلوب السليمة أنه نزل لإحقاق الحق ووضع كل شيء في نصابه.

إنه الكتاب الذي أنقذ الانسان من جميع أنواع الانحرافات، وأرشده إلى طريق الفضيلة، ووعد الذين ينفذون أوامر الله تعالى بجنان فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال بشر. وتوعدّ الذين يخالفون أوامره بيوم

تلمع فيه القلوب، وتزيغ فيه الابصار، وتبلغ فيه القلوب الحناجر، فوضع بذلك توازنات مدهشة احتارت لها العقول.

لقد نال هذا الكتاب شرف البقاء نقياً ومصاناً عن التحريف وعن التبديل من بين جميع الكتب منذ تشريفه الدنيا، ومحافظاً على الوحي كما أنزل على الرغم من اعتداءات المفكرين والملحدن المساكين، الذين لا يعرفون شيئاً سوى العداوة والكراهية وبذل المحاولات لتغييره وتبديله، وعلى الرغم من الاصدقاء المغفلين الذين لا يعطون للصداقة حقها.

عندما نزل القرآن كأفضل جوهرة من جواهر اللوح المحفوظ، نزل بمنزلة وبشرف لا يُدان. وهو اليوم محافظ على هذه المنزلة الرفيعة كما هي، بل ربما أكثر... أما في السنوات القادمة فسيكون هو الكتاب الذي تتنافس الشمس لكى تزين تاجه.

عندما ظهر القرآن المبين واحتضن الشرق والغرب والشمال والجنوب، وضمهم إلى حضنه بيديه النورائيتين، سحب معه العلوم إلى كل الديار التي احتضنها، وحول أرجاء الأرض إلى ما يشبه سفوح الجنة. والذين تمسكوا به آنذاك، وحملوا رسالته النورانية ومثله بصدق، كانوا هداة البشرية والمرشدين إلى "الحضارة القرآنية". لقد كان هؤلاء المرشدون من مستوى رفيع، بحيث إن الذين يدعون اليوم أنهم معلمو الإنسانية لا يستحقون - لو كانوا في زمان هؤلاء المرشدين - إلا أن يكونوا تلاميذ لهم يتعلمون منهم.

لقد جاء القرآن المجيد برسائل نورانية أزلية وأبدية، وربى إلى جانب أبداننا وأجسامنا قلوبنا وأرواحنا وعقولنا وضمائرنا، وهياناً لنكون إنسان المستقبل بعد أن أرانا الذرى الموجودة وراء الشواهد المادية والمعنوية. ولا شك أن كل أمة أو دولة تملك عقلاً ووعياً سترى فيه في المستقبل منبعاً ثراً يجب الارتشاف منه مراراً، وهذا خلافاً لرأي بعض من ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة.

ولو تصرف مسلمو اليوم في موضوع القرآن بصفاء المسلمين الأوائل -  
علما أن هناك حركة ملحوظة في هذا الاتجاه حالياً- لاحتلوا مكانة مرموقة  
في التوازن الدولي الحالي في وقت قصير، ولتخلصوا من تقليد الآخرين  
والسير وراءهم، ولما وجدوا السلوان في وديان التقليد الأعمى.

إن قيام الطلاب الأوائل للقرآن بتلك الحملة الإيمانية والأخلاقية التي  
أدهشت العالم آنذاك يجب أن يدفع إنساننا المعاصر إلى تناول تلك الحملة  
بالدراسة والتدقيق بكل حرص. أجل!.. إن ظاهرة قيام بضعة آلاف من  
الصحابة - بعد ظهور الإسلام بين جبال مكة الوعرة - بحملة وبانقلاب كبير  
أضاءوا به أرجاء الأرض حادثة متميزة وخالقة للعادة يجب تدقيقها  
وتقييمها، وهو منبع ثرّ غنيّ يرجع له المؤمنون على الدوام.

لذا نستطيع أن نقول بأن القرآن كما لم يقم بالأمس بخداع الذين آمنوا  
به واتبعوه ولم يجرهم كذلك لن يخدع الذين سيتوجهون إلى جوه النوراني  
ويؤمنون به بعد اليوم، ولن يخيب آمالهم. لأننا نؤمن بأن العقول عندما تضاء  
بنور العلوم، والقلوب بمعرفة الحق، وعندما يوضع الوجود تحت عدسة العلم  
والحكمة للتدقيق والدراسة، سيكون كل حكم صادر باسم العلم موافقاً  
لروح القرآن ومتلائماً معه.

أجل... لقد كان القرآن في كل عهد وعصر كتاباً يدعو الناس إلى العلم  
وإلى البحث العلمي وإلى التأمل وإلى النظام في التفكير وإلى قراءة كتاب  
الكون وفهم أسرار الوجود، واختار طلابه الحقيقيين من بين المفكرين  
والمتأملين. وهذه بعض القطرات من ذلك العباب الزاخر:

١- ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم: ٥٠).

٢- ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ١٠١).

٣- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ  
الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ  
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ  
وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤).

٤- ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ  
وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:  
١٨٥).

٥- ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ  
فُرُوجٍ﴾ (ق: ٦).

٦- ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾  
(الذاريات: ٢٠-٢١).

٧- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ  
الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ٢٠).

٨- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا  
مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: ١٠٥).

تمثل هذه الآيات دعا القرآن للانسان لكي يتفكر في الخوارق التي يزرخ  
بها الكون وليدقق المعاني الخفية للوجود، لمشاهدة آيات الجمال المنبثة  
حوالينا، وسماع الأصوات الآتية من جميع الأرجاء... أي يقوم برفع روجه  
إلى الذروة بالتأمل والتفكير.

٩- ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ  
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

يقول الحق تبارك وتعالى في هذه الآية بأنه سيرى آياته في النظم الدقيقة في الأنفس وفي الآفاق، والتناغم والعظمة البادية فيها والتي لا يمل الإنسان من النظر إليها ومشاهدة جمالها.

١٠- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا شَاءَ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٩).

١١- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦).

١٢- ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨).

١٣- ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٨-٣٩).

١٤- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧).

١٥- ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور: ٤٣).

هذه الآيات وغيرها من الآيات ذات البيان الساحر الأخاذ تومئ وتشير إلى العديد من الاكتشافات العلمية التي شكلت أساساً لخوارق هذه المدنية، بل حتى إلى بعض الأمور التي لم نفهمها تماماً بعد، وتدعو أهل الفكر والإنصاف إلى الانتباه والتأمل.

## الحج

يأتي الحج بمعنى القصد والتوجه. ولكن ليس من الصحيح حبس معناه ضمن إطار مجرد القصد والتوجه. فالحج يطلق على زيارة تتم في وقت مخصوص بشعائر معينة لأماكن محددة. وهو عبارة عن القيام بالإحرام في أيام محددة من أيام السنة بنية الحج والتوجه للوقوف في عرفة والطواف حول الكعبة. والإحرام شرط الحج، أما الوقفة على عرفات والطواف حول الكعبة فمن أركانه.

يتوجه كل سنة مئات الآلاف من الناس إلى بيت الله من جميع أنحاء العالم ضمن شريط مبارك من الزمن، فيزورون أماكن معلومة حددها لهم صاحب الشريعة ضمن أصول وشعائر معينة حيث يؤدون واجباتهم ويتطهرون من آثامهم، فالحج فريضة من الفرائض الخمس بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: 97).

الحج شعيرة إسلامية تؤسس الوحدة الاجتماعية بين المسلمين، وهي شعيرة شاملة وواسعة إلى درجة أنه لا يوجد نظير لها من ناحية الشمول والوسعة فوق هذه الكرة الأرضية، ولا عند أي جماعة أخرى. وتمتد الكعبة بتاريخها - وبكل ما تحويه من معان مقدسة- إلى آدم عليه السلام وإلى ما قبل خلقه، ثم إلى إبراهيم عليه السلام الذي أعاد تعميرها من جديد بعد تعميرات عديدة سابقة. والكعبة بيت التوحيد المرتبط بالملة الإبراهيمية، وبالْحَقِيقَةُ الْأَحْمَدِيَّةُ قَبْلَ الْخَلْقِ وَفِي مَرِحَلَةِ الْعَمَاءِ، وَرَحِمَ لِلنُّورِ مُحَمَّدِي، وَقَبْلَةَ

جميع الأديان السماوية، ومركز للتوحيد بحيث لا يوجد هناك أي بيت أو مبنى يكون نظيراً لها أو مثيلاً من هذه الناحية.

يتوجه في كل عام مئات الآلاف من الناس إلى هذا المكان السامي لكي يؤديوا وظيفة العبودية لله تعالى ويزدادوا قرباً منه في هذا الشريط المبارك من الزمن بالعبادات التي يؤديونها، حيث يتنفسون مشاعرهم وأفكارهم من خلال منافذ هذه العبادات، ويجددون عهود إيمانهم، ويتطهرون من أدران آثامهم، ويتذكر كل واحد منهم واجبه نحو الآخر ومسؤوليته تجاهه. ويؤدون جميع أمورهم الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسياسية ضمن خلفية وعلى أرضية من العبادة المتوجهة لله تعالى ومن الشعور بالعبودية له، حيث ترقّ القلوب، وتتسع المشاعر حتى تبلغ طور مدّها وتصاعدها، فيعودون إلى بلدانهم بعزم جديد وبقوة جديدة وشوق نضر.

يذهب كل واحد منا إلى الحج عندما ندرك أن الأدران قد أصابت مشاعرنا ولوّثتها. وعندما نبدأ بالسفر يخيل إلينا أننا ولجنا من باب لم نعرفه ولم نعهده في السابق إلى عالم آخر من المعاني، ونؤدي الشعائر، الواحدة منها تلو الأخرى، ونحس بها ونصل إلى أعماق معانيها. وبينما نحن في الطريق ونقطع الجبال المهيبة، ونشبع أعيننا وقلوبنا بعلامات الإسلام وشعائره، نشعر بهبوب نسيم الحج الدافئ. ونحن نحس بهذا النسيم الدافئ أينما كنا سواء على مقاعد السيارات أو في غرف القطارات أو البواخر أو على مقاعد الطائرات أو في غرف الفنادق أو في صالونات وقاعات المسافرين أو حتى في الأسواق. ومهما كنا متعودين على وسائل السفر هذه أو على هذه الطرق، فإن الأيام والأسابيع التي يستغرقها السفر تكون مملوءة بمعان روحية متناغمة، وهبات وأفضال، حتى كأننا نستحم بمشاعر القرب والوصال وبأنواع الجمال والشعر والرومانسية، فيكتسب الروح قوة والقلب اطمئناناً، ونحس أننا أمام باب سري يؤدي إلى عالم خاص مملوء بأنواع من الجمال الساحر.

وهذه الرحلة المباركة والمشاعر التي تتخللها تَهَبُّ لعالم الأحاسيس لدينا قابلية حدس وشعور إلى درجة أننا نحسب والاطمئنان يلفنا -ونحن بحالة روحية خليطة من البهجة، وأحياناً بحزن خفيف ناتج عن حالة المراقبة الداخلية للنفس- وكأننا نخطو في رواق من أروقة الآخرة.

يرى أصحاب النظرة الصائبة أن الكعبة تنظر من ناحية إلينا، ومن ناحية أخرى إلى ما وراء هذا العالم المادي... إلى عالم الأبد... تبتهج أحياناً... وتغتم أحياناً أخرى... ونستطيع أن نطالع في وجهها الذي نستطيع تشبيهه بوجه إنسان وقور ورزين، له تجربة آلاف السنين، وكأنها تريد أن تبث لنا شيئاً، أو كأنها تخاطبنا وتمس بأبيات شعر:

تعال إليَّ أيها العاشق المتخفي... تعال!

هنا حريم خاص... هنا مقام الحرم،

لقد طالعتُ فيك أمارات الوفاء...

كأن الكعبة حسب موقعها ووضعها أمّ أو جدة جالسة في أفضل مكان في البيت لتشارك أولادها وأحفادها مسرّاتهم وأحزائهم، وتعيش الآمهم. تجول بنظرها فيما حولها، تحزن أحياناً وتبتسم أخرى. ويحسب الإنسان وهو يطوف حولها في مدينة أم القرى كأنه طفل تمسك أمه بيده بقوة ليشعر بمزيد من الأمان. أجل!.. إن الإنسان وهو يطوف ضمن سيل من مئات الآلاف من الناس يحس وقد تصاعد عنده الشعور بالدار الآخرة بأنه متوجه لله تعالى بكل حب وشوق، وفارّ إليه جلّ جلاله، حتى ليكاد يغيب عن وعيه. وهو عندما يهرول وعليه ملابس الإحرام، ويرمل في الطواف وأكثر من نصف جسمه عار، تلفة المخافة من جهة، والأمل من جهة أخرى، ويعيش حالة من الانفعال وهو يسرع في طوافه هذا. ويستحيل شرح وتعريف الجو العميق الساحر الذي يحيط بالإنسان وهو يطوف بالبيت العتيق المبارك وما يشعر به أثناء الطواف والسعي من راحة نفسية ومشاعر رومانسية. وقبل أن

يبدأ الإنسان بالطواف يكاد يسمع -وهو يشاهد منظر الزحام الذي يذكر بزحام يوم القيامة- صمت الحرم الإلهي المنزوي وشعره. ولا يدري أحد أي الأبواب السرية تفتح أمام الأرواح السامقة التي تدع أنفسها تنجرف في سحر جو الطواف، ولا أي مطارق خفية يلمسونها، ولا أي نوافذ سحرية تفتح أمامهم على العالم الآخر؛ حتى أننا ونحن نطوف حول البيت العتيق بمشاعر فوارة ومتجددة في كل لحظة، نندهش ونتعجب من الألفاظ التي تنهمر على قلوبنا من المنافذ المنفتحة في خيالنا، ومن البوارق التي تبرق في صدورنا، ومن الأسرار التي تطير بأرواحنا؛ ونتصرف وكأن في كل خطوة نخطوها باباً سرياً سينفتح أمامنا مع دعوة لنا للدخول منه، ونحسب أننا نكاد نقطف لذة لم نعرفها من قبل، فتحس أن قلوبنا تدق بعنف.. عندها نشعر بعظمة الكعبة... هذه العظمة التي خالطت قلوبنا من قبل وسكنت فيها، وبكل عمقها... ونحس بأن نبض سحرها يسري في أنحاء جسدنا، فترتجف من رأسنا حتى أخمص قدمنا.

ومع أن في الإمكان تفسير بعض هذه الخواطر وإسنادها إلى أسبابها، إلا أننا نبقى صامتين أمام الكثير من السنوحات والألفاظ التي ترد إلينا متجاوزة جميع مقاييسنا وتقييماتنا. لأن الكعبة وما يحيط بها من مظاهر مادية، حتى وإن كانت تعني شيئاً، ولكن لكون أسلوبها أخروياً، ومعانيها ضبابية ومحتواها مغلقاً وغير معروف، فليس باستطاعة الجميع فهم ما تريد الإشارة إليه. ومع ذلك فإن الجميع سواء أكانوا من العامة أم من الخواص، من الشباب أم من الشيوخ... كل فرد من هؤلاء له نصيب من المعاني التي يدركها، وإن لم يستطع التعبير عنها.

وبجانب كون الكعبة بموقعها بين الجبال والتلال المهيبة تشبه زهرة زنبقة الماء منشقة عن برعمها، فهي بمثابة فانوس سحري يحمل سر الوجود، ومسقط سدرة المنتهى، أو هي بلورة من عصارة العوالم التي وراء

السموات. وعندما يطوف الإنسان حول هذا الفانوس المحاط بالألغاز، يحس بأمور خفية بسعة الدنيا الدائرة، ويخيل إليه أنه ينظر من خلال موشور مرتبط بالسدرة المنتهى إلى عوالم فيما وراء السموات.

أجل!.. فكل من لجأ إلى حرمها، يكتسب أعماقا في روحه ومشاعره وفكره. فعندما يفكر بوجوده وبالكعبة، ويستمر في التفكير في العلاقة بين هذين العنصرين اللذين هما مطمح النظر الإلهي، تفتح أبواب سرية تنقلهم إلى عوالم سرية لم يكن لهم عهد بها من قبل. ولا شك أن مثل هذا الشعور والحدس، ومثل هذا المعنى والروح لا يحصل ولا يظهر إلا من اتحاد إيمان صحيح وقوي مع عيش حياة إسلامية كاملة، مع إخلاص ويقين تامين، وإلا لم يكن للقبول المجردة مضمون حقيقي.

يفضل هذا الغنى وهذا العمق الموجودين في الكعبة، يبدو كل شيء عندما يصطبغ بصبغة الحج وبشعوره فوق قيمته عن الأوقات الاعتيادية، وبمهابة أكثر وألوان أجمل. عند ذلك يدع الإنسان نفسه لهذا السحر ليأخذه ويرتفع به ضمن حلزون من النور ليصعد به ويرتفع ليصل إلى معبوده. وصلاة الطواف التي يؤديها صاحب هذا الروح الواصل إلى مثل هذه الذروة تكون مثل سجدة الشكر، ومن يشرب من ماء زمزم يكون كأنه يشرب من كوثر الجنة أو يعب من شراب الوصال.

إن قُمنًا بتشبيه الطواف حول الكعبة حسب التعبير الصوفي بـ"السير في الله" الذي يعد في الأكثر سياحة حول شعور مبارك ومحاوله لزيادة العمق النفسي، فإن الذهاب والإياب في مواضع السعي يمكن أن نفسره بمعاني "السير إلى الله" و"السير من الله" الذي هو عنوان العروج من الخلق إلى الحق تعالى، ومن الحق إلى الخلق. أجل!.. ففي السعي بين الصفا والبروة يعيش الإنسان طوفان هذه المشاعر.

يعيش الإنسان في أثناء "السعي" شعور التضرع والطلب والدعاء

والاستمداد، ويعيش شعر وموسيقى الوصال وداء الوصال. فكأنه لا يفتر  
يطارد شيئاً مهماً. ويستمر السعي حتى يظهر ما يسعى إليه. وكل ما يظهر  
من أثر أو أمانة في هذا السعي يضاعف انفعال الإنسان ويثير مشاعره حتى  
تنطق الصدور بأمثال ما قال الشاعر:

انظر إلى حال هذا المسكين...

أصبح عبداً لشعرة من شعر الحبيبة...

كلما غمس يده في شهد الحب...

ظمئ... فطلب الماء...

يتمتم بهذا وهو يسعى هنا كطوافه حول الكعبة. وفي مقابل محاولته عند  
الطواف حول الكعبة النزول إلى أعماق نفسه، نراه في السعي بين الصفا  
والمروة يسعى على خط مستقيم وقد دهمه شعور نبوي بالعيش من أجل  
الآخرين؛ بالضحك من أجلهم وبالبكاء من أجلهم، بل حتى بالموت من  
أجلهم. تراه لا يقر له قرار، ولكن لا يفلت الحساب من يده. تراه قلقاً،  
ولكن دون أن يتخلى عن الأمل. وتحت الأضواء الذهبية للسماء، وفي  
الساعات الزرقاء لموسم الحج تراه يتلوى من حسرة داء وصال حديد، ومن  
عدم عثوره تماماً على ما يبحث عنه. فتراه يذهب ويجيء... يهرول أو يمشي  
الموينا... يصعد تلاً وينزل من تل... يلفه التردد والاضطراب. ينغمس  
أحياناً في شلال نهر الناس المهرولين في المسعى ليعبر عن أحاسيسه ضمن  
كورس أو فرقة جماعية، وأحياناً يكون في حالة روحية يخيل إليه معها أنه لا  
يرى شيئاً ولا يرى أحداً وأنه يسعى ويطوف منفرداً، يبدو أمامه شبح  
السيدة هاجر عليها السلام... تراه يترنم وهو يرتشف من كأس قلبه:

اطلب أيها الوهان الحبيبة التي أهداها،

مثل الأسنة لتطفئ لوعة الفراق...

أنا ظامئ، فابحث لي عن ماء في هذه الصحراء،  
خوف جهنم قد جثم على قلبي وأحرقه،  
كل أمني أن يرش غيث إحسانك على قلبي الماء...

هذه الكلمات ينتظر رحمة تنزل عليه من السماء لتطفئ نار قلبه. وإلى جانب ناره التي تلهب روحه وتحرقه يتلوى من حسرة ومن ألم الانتظار الذي لا ينتهي. أحياناً يهبّ في المسعى نسيم بارد من وراء أفق هذا العالم، ولكن هناك في الأغلب حزن يلفه الشوق، أو شوق يلفه الحزن، مع معاناة عشق قد صبغه الرجاء والأمل.

كثيراً ما يختلط الخيال بالحقائق في المسعى، فيبدو الناس هناك أحياناً وقد لفهم صمت عميق... وأحياناً تسمع أصوات بكاء متقطع... أحياناً كأهم يساقون إلى الميزان وأحياناً كأهم يركضون نحو الكوثر، فهم بين خوف ورجاء وبين خشية وفرحة... يستمرون في الذهاب والإياب وفي الصعود والنزول... الدقائق والساعات هناك مع كونها خفرة وحيّة فهي كثيرة الطلب، فهي تطلب الاهتمام على الدوام. وإلا فستزول وتنمحي دون أن تترك أي أثر.

كلما اقتربت الأيام من العيد تلون المطاف والزمزم والمسعى بشعور خفي من الحسرة والغربة إلى اللون اللازوردي، وتبدأ الكعبة بإنزال ستارة نوافذها شيئاً فشيئاً. ومثل كل الحوادث التي تدل على حقيقة الفناء وتشير إليها يفهم الإنسان أنه متى آن وقت الرحيل فعليه أن يرحل، وأنه لا بد أن يأتي يوم سيرحل فيه عن هذه الدنيا، وعند ذلك ينزوي في عالمه الخاص ويعيش نوعاً من الانزواء الروحي.

ولكن لم ينته بعد كل شيء... فهناك طريق طويل، ورحلة طويلة تنتظر هؤلاء السائرين إلى الله تعالى. فهناك "منى" بلغزها الغامض، وبسحرها الذي يدير الرؤوس منتصبه على الطريق تنتظرهم... وهناك "عرفات" التي كأنك

تسمع فيها صرير أبواب السماء ترقبهم... وهناك "المزدلفة" التي لن تدعهم قبل أن تديقهم مأدبة روحية... وبعد خطوات هناك المكان الذي يُظهرون فيه كامل تسليم أنفسهم لله ويرجمون عقولهم المعاشية الدنيوية، ويضحون عن أنفسهم ويعيشون في عوالم أحاسيسهم عيد البراءة والتطهر. ثم يتوجهون إلى الكعبة وإلى كعبة قلوبهم... يتوجهون من الله إلى الله، وينهون عروجهم ونزولهم، وينثرون ابتساماتهم على حظوظهم بإلهام من تداعيات "الفناء في الله" و"البقاء بالله".

"مَنِي" التي فرشت رداءها في عالم التضحية بريقها الساحر تقوم بإسراع أشعارها حتى قسم تلال المزدلفة، وتحاول أن تدخل إليها، بل تود حتى تتجاوزها لتسلم على عرفات... تسلّم على عرفات، وترشد ضيوفها -الذين يلبثون عندها أربعاً وعشرين ساعة- وتسلمهم إلى عرفات.

"مَنِي" بالنسبة إلى رمز سماوي للتضحية والحنان، ولمعنى الانقياد للأمر في جو من المهابة في الأرض، وحصن دافئ. هي عنوان للاستسلام وكأنه عرش للإخلاص الذي لا يطلب أي مقابل أو ثمن. و"مَنِي" التي يسكنها لبضعة أيام من لا يملك بيتاً أو مسكناً، ولا منزلاً أو وطناً مكان وموضع سرّي. فما أكثر المشاعر التي تموج في قلب كل من لم يغلق قلبه للأخرة في هذا الموضع الحافل بالأسرار. أما نحن فنحس أن "مَنِي" قد امتزجت بأرواحنا إلى درجة أننا نحس وكأنها تنبض في قلوبنا وتعيش في أعصابنا. وما أن نخطو إليها خطوة حتى نشعر بأنها احتضنت روحنا (من الملفت للنظر أنها أول مكان احتضن رسولنا لله)، وأنها تشير إلى الطرق المؤدية إلى ما وراء هذه الآفاق، وأنها تكملنا، وأنها تمتزج بعالم مشاعرنا، وهكذا نمتزج ونتوحد معها.

وبينما نبدأ بالتهيؤ في "مَنِي"، ونحاول أن نعطي أجنحة لأرواحنا، إذا بنا نرى عرفات وقد تزينت مثل غرفة عروس، وهَيَّأت لاستقبال زوارها مثل مرفأ أو ميناء أو ميدان أو قاعدة للانطلاق... تنتظر ضيوف الرحمن الذين

يسرعون إليها بلهفةٍ مَنْ أَلَمَّ به داء الوصال... ضيوف الرحمن الذين يسرعون إليها بحثاً عن احتمالٍ جديد وإمكانية جديدة.

عرفات نورانية متميزة، وللزمن الذي ينقضي فيها عمقٍ آخر، بحيث إن كل روح استطاع نيل سعادة الوصول إلى هذه الحاضرة لا يفنى ولا يموت كموت غيره من أصحاب الدنيا. وكل من قضى ساعات من عمره على عرفات يتفتح طوال حياته كزهرة، ولا يشحب ولا يبهت لونه أبداً؛ فالدقائق الحانية المليئة بالعشق والوجد والشَّعر تترق من منافذ ومن عيون أرواحنا على الدوام وتلتمع؛ ويطن في آذاننا صوت الذين يعلنون إيمانهم المزين بالعشق والوجد مغردين تغريد البلابل... يعلنون إيمانهم ومحبتهم وعرفانهم المتين المستقر في أخفى مناطق قلوبهم، فيثيرون قلوبنا التي يغمرها الشوق آخذين بأيدينا إلى لذائذ لا يمكن بلوغها، ويهيجون مشاعرنا بألطف ناضجة تشبع كل جوع وتضع مسحة من السحر على عيوننا -مثل استغناء الموجودات التي تملك حنكة وتجربة- وتجول بنا داخل غنى أنفسنا.

الشروق في عرفات والغروب يكون دائماً في جو من المهابة والعمق. ومن المحتمل أنه ما من شاعر بليغ يستطيع الترم بأبيات كالتّي تترنم بها عرفات وتسكبها في قلوبنا، أو تهمس لنا بحكمة وجودنا وغايته. وأنا أرى أنه لا بد لكل من يرغب في الوصول إلى رقة في الروح أن يتوجه إلى عرفات مرة واحدة في عمره على الأقل، ويمتزج بجوِّها ويعيشه، ويتنفس شروق عرفات وغروبها كتنفسه الأوكسجين.

يعيش الإنسان في عرفات جو الدعاء والتضرع، ويطلق الآهات الحبيسة في قلبه التي ترتعش منها جوانحه. أما الأدعية بعد فترة العصر فتكون أكثر عمقا، لأنها تبدو وكأنها قد تضمخت بعطر وجوٍّ من وداع حزين، وتشبه الأصوات والأنفاس أصوات الملائكة فيما وراء السماوات، حتى تصل إلى ذروة السعة والنقاء. وكلما سمع الإنسان الآهات المنبعثة من سهل عرفات يشعر من الجوّ

الأخروي لهذه الأصوات، ومن الرقة والشفقة والرجاء الذي يحدثه الأمل في السعادة الأبدية، بأنه قد أصبح شابا وخالدا، وأنه اتسع وولج من فرحة باب كبير. أما عندما تغرب الشمس، وينشر الظلام جناحه فوق الأفق جالبا معه مشاعر فؤارة من مشاعر الوداع، تتخيل وكأن الآمال قد تجسمت وبدأت تسيل في داخلنا، وأن مشاعرنا قد تنورت بفيض عرفات وبركتها، وأنا قد انسللنا من قلوبنا الجسدية - كما يحدث في الأحلام- ويممنا شطر نواح روحية ومعنوية غير واضحة المعالم تماما، وأنا بدأنا نئن كأنين عرفات، وأنا مع غروب الشمس ذبنا وانتهينا، وأنا قد تحولنا إلى آهات مثل الآهات التي تطرق أسماعنا في عرفات، بل إلى صراخ... ونحس بأننا قد تخلصنا من أثقالنا واكتسبنا أجنحة، ونحسب أن ماهيتنا قد تغيرت وتحولت إلى ماهية روحية وكائن روحي، فيأخذنا الدهول وتنتسمر في أماكتنا.

عرفات ميدان يسود فيه الأمل والقلق مثل ميدان البعث والحشر يوم القيامة، وسفح من سفوح الرحمة. هي موطن لهطول الرحمة الإلهية على قلوبنا كالغيث، كأن الحوادث كلها تجري في إطار من الأمل، وكأن الإنسان يتجول فيها طوال يومه بين مواكب الملائكة، ويتذكر الآخرة دوما في قيامه وقعوده. يتجول الناس في سهلها وكل واحد منهم كأنه قد انسلخ من كل شيء دنيوي، لا يفكر إلا بحساب الآخرة وبالميزان... يتجول كالأشباح حاملا معه قلقه وخشيته، وكذلك أمله في الرحمة الإلهية، يرجو نيل عفو ربه، ويعيش خيال نجاته وفوزه، ويستعيد من يومه الوحيد هناك ويستغله كاملاً لكي يحصل على ألطاف سنة كاملة وإلهاماتها... يستغل هذا اليوم، ولكنه ما أن يرى نفسه في موضع آخر وفي وقت دعاء ومناسبة تضرع، حتى يرى أنه لا يستطيع إلا الاندماج في جو الدعاء والتضرع.

لا مناص أمامه من هذا، لأن مزدلفة بالقرب منه تنتظره على بعد خطوات معدودة. فما أن نتلقى إشارة بأن مزدلفة في انتظارنا، حتى نترك

مكاننا الذي تحف به الأضواء والأنوار في عرفات التي تبتسم لنا بسمات الأمل. وبدرجة قرب السجود من الله بالنسبة إلى الركوع، نتوجه نحو مزدلفة التي تعد عنوان القرب من الله..<sup>(١)</sup> نتوجه إلى مزدلفة وكأننا نتوجه إلى الأبدية، أو نسير إلى الله تعالى. في هذا المكان المبارك الذي يكون البدر آنذاك قد قارب على التمام، فتماوجت الأنوار في السهول والجبال، وفي السفوح والوديان... يبدو كأن السماء قد دنت من الأرض ونزلت إليها، وكأن الأرض قد ارتفعت إلى السماء، وتحولت إليها. وبينما تحتضننا هذه الأحاسيس نشعر كأننا -ونحن في طريقنا إلى الله- في ميناء جديد، وشاطئ جديد، وفي سفح جديد. وضمن أجواء مزدلفة التي لم تتغير منذ إقامة الكعبة، وفي وجوه الحجاج التي ينعكس عليها نور السماء، نسمع أصوات هؤلاء العباد المخلصين الضارعين إلى الله تعالى... نسمعها في أجسادنا وفي أرواحنا وفي قلوبنا. عند ذلك نتوهم أننا أصبحنا في عالم آخر، وأنا نرافق الملائكة في عالم الملكوت وتتصادق معهم... عند ذلك ندع أنفسنا تماما ونتركها في لجة رحمة الله تعالى الواسعة.

يقول ابن عباس رضي الله عنه إن سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم حصل على وصفة مهمة وصريحة في المزدلفة بخصوص أمته وخلاصها، لم يستطع الحصول عليها في عرفات. وكم كان حبيبا إلى قلبي أن يكون هذا الرأي صحيحا مائة في المائة ولكان من حق المزدلفة -التي تقربنا من الله مثلما يقربنا السجود له- أن تطلب منا ضراعة خاصة، وأنيباً وبكاء آخر يقربنا من الله تعالى.

الأضواء المنبعثة من المصايح الموجودة في أرجاء المزدلفة، والوجوه النيرة للحجاج، ونظراتهم التي ضيبتها الدموع، وصدورهم التي تموج بالانفعالات، تضيف إلى ساحة هذا المكان المبارك -الذي لا نعرف سوى ليله- جمالا

---

(١) أي إن كانت عرفات تمثل الركوع فإن مزدلفة تمثل السجود، والقرب من الله في السجود أكثر من القرب منه في الركوع. (الترجم)

آخر يأخذ بالألباب. أما عندما يتقدم الليل فإن سحره يزداد ويتعمق. وبينما يستريح بعضهم تهيئاً لغد حافل بالنشاط والجهد، ترى آخرين وهم يقضون الليل حتى الصباح في الصلاة والعبادة. ولا يدري أحد بماذا يفكر هؤلاء من أصحاب الأرواح السامية الذين حسوا أصواتهم في صدورهم، ولكنهم يوصلون نبض قلوبهم إلى قلوب أهل القلوب... لا أحد يدري بماذا يفكر هؤلاء، ولا ماذا يقولون، ولا ماذا يهمسون لأنفسهم، ولا ما يخطر على بالهم. أصوات قلوبهم تتردد على الدوام في مستويات عالية سامية، وتتسابق مع أنفاس الملائكة وتكون معها كفرسي رهان. وهؤلاء العمالقة الذين تجاوزوا الزمان، يستمعون إلى قلوبهم ويتكلمون بها. وبجانب وقيل لحن القلوب التي يترنم بها هؤلاء، بل وقبل قبل هذا، ينصتون ويحاولون سماع جميع الأنغام التي يستطيعون جمعها في كورس واحد من ضرب ريشة مشاعرهم على أوتار قلوبهم... يسمعوها معا وينصتون لها معا، ثم يرتشفون ماضيهم مع يومهم هذا، وكأهم يرتشفون نغمة مليئة بالبهجة والحبور.

وعندما تلوح علامات الفجر في الأفق تبدأ جميع المشاعر والأحاسيس التي هاجت في عرفات بالانسياب إلى مزدلفة بعد أن تكون قد تضاعفت، تنساب مختلطة بأصوات أنين وبكاء مع ابيضاض وجه السماء بعد الفجر... توجه إلى الله تعالى خارج أوقات الصلوات وتوجه نحوه في الصلوات... أما الأدعية المناسبة إلى الصلوات والموجودة فيها والتي تعد بعدا من أبعاد القرب من الله تعالى فتأخذ عمقا متميزا آخر.

كأن هذه الأدعية ملابس من حرير تحيط بأجسادنا، أو أياد سماوية تضيء آمالنا، وتمنح السلوان لآلامنا، أو كأها ماء ينزل بردا وسلاما على صدورنا التي تلتهب فيها النيران، أو كأها صوت أذان يسمعنا الحقيقة الكبرى فيرسل الرعشة إلى قلوبنا... وأحيانا تقوم بجمع أشات دنيانا السابقة، وتلم أجزاءها المتناثرة، وتسمعنا من المعاني عن حقيقة أنفسنا

وجوهرها وعن خلودنا ودينانا وعُقبانا ما يجعلنا نكتشف أنفسنا من جديد،  
ونتعرف على حقيقة ذواتنا، وننظر إلى الدنيا نظرة اعتبار ومن زاوية جديدة،  
ونشعر بقرب من دار العقبي، ونراها أكثر صفاءً وأشد وضوحاً.

تستمر هذه التضرعات والتوسلات حتى شروق الشمس وظهورها في  
الأفق معلنة عن ميلاد يوم جديد. أما الجباه التي بقيت ساجدة حتى ذلك  
الحين فإنها في أثناء شروق الشمس تبدو وكأنها تشد الرحال من جديد  
لبلوغ قُرب آخر، وتبدأ برحلتها. أما الآن فأمامنا "مِنَى" التي أتيناها سابقا  
وسلمنا على وديانها واديا واديا... مِنَى التي يلجم فيها أصحاب الأرواح  
الصافية منقطعهم، ويعطون زمامهم بيد الروح... مِنَى التي يبدي فيها  
الواصلون إلى مرتبة التسليم انقيادهم... مِنَى التي لجمت عقول ومنطق آلاف  
بل مئات الآلاف من الناس منذ عهد آدم عليه السلام إلى إبراهيم عليه  
السلام، ومنه إلى سيد المرسلين ﷺ، وربطت تقييمهم للأمر ووزنهم لها  
بالقلب... وأخيرا وبعد هذا كله فَمِنَى هي المكان الذي تأخذ فيها النفس  
نصيبتها بعد رجم الشيطان، وفيها يتم التمثيل الجماعي لموضوع التعبد الذي  
يعد أساس العبودية.

وما أكثر ما يتم عمله هناك بجانب رمي الجمرات؛ تقدم الأضاحي  
والحلق وتبديل ملابس الإحرام ثم أداء فرض الطواف الذي يتم في جو من  
مشاعر روحية عالية... هذا هو بعض ما يؤدي هنا.

يقوم الحاج منذ مغادرته بيته وطوال طريق رحلته بالتحلل من جميع  
أنانياته، الواحدة منها تلو الأخرى. أما من ناحية حياته القلبية والروحية  
فيتكامل ويتزين مثل قطعة مزينة من الحرير. أجل!.. إن الإنسان وهو في  
رحلته النورانية هذه يتعرف على أقدم الحقائق التي لا تبلى أبداً، وعلى  
الحقائق الأزلية التي تبقى نضرة على الدوام، ويمتزج معها. يصل هناك إلى  
أحوال لن ينساها أبداً. أما بالنسبة لمن يدرك حقيقة وكنه ما يؤديه في هذه

الرحلة الأرضية/السماوية، والألطف الإلهية المعنوية التي تنهمر عليه،  
والذكريات التي يحصل عليها، فإنه يكسب عمقا قلبيا وارتباطا أقوى بالدار  
الآخرة. وتظل ألوان السماء، وأصوات الحجيج تملأ مخيلتنا، وتلف أرواحنا،  
وتشخص أمام أعين أرواحنا طوال أعمارنا.

لا يمكن ذكر أي مكان آخر غير الكعبة وما يحيط بها، له نفس  
الجاذبية والسحر، وإن كان هذا مشوبا بشيء من الحزن. ففي حرمها يشاهد  
الإنسان في كل حين جمالا أسطوريا، ويقطف هناك كل شيء وكأنه أنضح  
فاكهة وأحلاها، ويأكلها. والمحظوظون الذين يصلون إلى سعادة تمرير  
وجوههم هناك سيتخلصون من وهم البحث عن مكان عبادة آخر، وحتى  
غروب عمرهم وانتهائه لن يستطيعوا نسيان السحر ذي البعد الأخروي لهذا  
المكان أبدا.

## الصلاة

الصلاة معراج المؤمن، ودليله النوراني وُبراقه، وسفينة السائرين من أصحاب الإيمان وطائرهم، وأقرب المنازل والديار لعوالم وراء هذه الدنيا للسائرين الذين يبتغون الوصال ويبتغون القرب، وآخر خيمة لهم، وأقرب الوسائل لبلوغ الغاية والمرام.

لكي يكون الإنسان في يوم القيامة أبيض الناصية، نوراني البصر، يتقدم على الآخرين بالأمارات الموجودة على أعضائه نتيجة الضوء والسجود، بأيدٍ نقية، ووجوه طاهرة، بضمائر نزيهة مثل العالم الداخلي لأهل السماء... لكي يتحقق كل هذا فعليه بالصلاة وبالأعمال الصالحة قبلها. وفي الوقت نفسه نستطيع أن نطلق على عبادة الصلاة -التي هي الاسم الآخر والعنوان الآخر للقرب من الله والتي تملك أعماقا مختلفة- اسم "الرباط" الذي يعني الاستغراق في فكر العبودية لله طوال العمر.

أما الوضوء -الذي ننوي تناوله بشكل مستقل في بحث لاحق- فهو أول تنبيه في درب الصلاة، وأول تهيؤ لها. أما الأذان الذي يجب تناوله أيضا بشكل مستقل فدرب معنوي مهم. بالوضوء يتطهر الإنسان من الدنس البدني ومن السلبات المعلومة وغير المعلومة، ويستمع الإنسان بالأذان إلى وجدانه. وعندما يصلي وحده الصلاة الأولى يحاول أن يجد الصوت الداخلي في أعماقه وأن يقتنصه، ثم ينتظر صلاة الجماعة لكي يحقق بالجماعة البدء بالحركة الكبرى.

إن هذه العبادة المباركة ذات الأبعاد الشاملة وذات الطابع المعراجي تقوم بنقل الإنسان إلى سماء اللاهائية لتصل به إلى عالم الملائكة. والإنسان يدع نفسه في لجة هذه العبادة خمس مرات في اليوم وكأنه يتطهر ويغتسل في جدول دافق. وفي كل مرة نغمر فيه في هذا الجدول نشعر بأننا تطهرنا أكثر. ثم ينقلنا هذا الجدول إلى بحر واسع ويتجول بنا بين نقطتي البداية والنهاية، وهذا يعني تمرينات لنقلنا إلى نقطة من عالم الآخرة والخلود هي خارج أبعادنا الاعتيادية.

ينقسم الليل والنهار بشكل غامض بالصلاة... وتُنظم الحياة حسب مفهوم زمني يتخذ العبادة محورا له، وبفضل هذا تجري تصرفاتنا وسلوكنا مجرى حسنا تحت رقابة الله تعالى، وتأخذ حركاتنا وسكناتنا خارج العبادة حالة عبادة أيضا، وتتلون بلون العبادة، وتبدو حياتنا الفانية على وجه الأرض وقد تلونت بلون السماء.

وفي اللحظة التي يفيض ويحين وقت الأذان من خلال ضجة الحياة، أو من خلال الصمت المخيم عليها، ومن إشارات عقارب الساعة، ومن تغيير الشمس لموضعها، وزيادة الحركة والضجة حول الجامع، ومن سماع خرخشة مكبرات الصوت بينما يحاول المؤذن تعيير صوته تهيؤا للأذان... بعد كل هذه الإشارات حول قرب وقت الصلاة، تبدأ في الصدور أحاديث صامتة، وسماع أصوات غير واضحة المعالم مثل هذيان المستيقظ توا من النوم، وسماع كلمات تتجاوز أبعادنا الجسمية، وكأن الإنسان بدأ يعيش حياة برزخ بين الدنيا والآخرة. ومع أن الصلاة لم تبدأ بعد إلا أن أحاسيس أخرى تبدأ بالظهور نتيجة مناورات الفكر ومحاولته البحث عن مجار وقنوات جديدة... ويدمدم الإنسان بأشياء لا تعد ولا تحصى... وهنا وبعد قليل وقبيل بدء العبادة المزمع إقامتها تتوجه القلوب إلى نوع من التوثب والتركيز الروحي... وتحاول بمعاونة جميع الملكات الروحية والقابليات الوصول إلى حالة من التهيؤ والاستعداد المرجو.

يمكن أن يعد التوضؤ أول خطوة للتهيؤ لعالم العبادة، ثم يأتي التوجه نحو المسجد... كل هذه الأمور تعدّ تعبيراً وجهداً للوصول إلى نقطة معينة من النضوج في هذا الأمر. أما الأذان فكأنه دعوة للدخول إلى الحرم، وصوت لُدني يساعدنا للوصول إلى تركيز معين في أعماقنا، وريشة عود تضرب على أوتار أحاسيسنا. ومع أن آذاننا تعودت على صوت الأذان الذي يتكرر كل يوم، إلا أنه يظهر أمامنا فجأة على الدوام وكأنه قمر يرتفع من وراء التلال الموجودة بيننا وبين العوالم الأخرى... ويقصف كالرعد ليحول أنظارتنا الدنيوية إلى السماء. وهنا يبدأ فاصل موسيقى إلهي كأنه صوت نافورة فوارة أو صوت شلال هادر. وما أن يبدأ هذا حتى ينهمر على أرواحنا أعذب الحان الدنيا... ألحان تحيي القلوب وتوقظها. ولا يقف أمر الأذان هنا، فهو يسحبنا بتداعياته إلى إقليمه الحريري ليهمس في قلوبنا سحر العهود النورانية، وليأخذ بيد خيالنا الذي يتجاوز الزمن ليتحول بنا في دروب التاريخ، ليجد ما فقدناه هناك، ويهبه لنا، مما يثير هذا الخيال ويهيجه. وهو يهب لنا في كل مرة باقة نضرة من صوت ومن شعر متناغم. نحن نتلقى الأذان في كل مرة ونستشعره في أعماقنا وكأننا نغتسل في جدول من الموسيقى، ونجد فيه سحراً آخر وطعماً آخر ولطافة وسعادة أخرى. ويثير سماعه وحس معانيه عندنا في أكثر الأحيان شعوراً وكأننا نرتفع إلى السماء ضمن سلّم حلزوني سحري، أو نتجول بالون في الأعالي. وأما إن كان الأذان يُؤدى على أصوله وكصوت للوجدان وكنفَسِه... فما أرقّ دقائق الأذان وما أنورها عندما يتردد صدى هذا الأذان المحمدي في السماء ويتماوج!.. ولو استطاع الإنسان أن ينزل في تلك الدقائق إلى أعماق روحه ليستمع إلى وجدانه لأحس بمعان لم تُكشَف عنها وهي تنساب إلى داخله، واستمع لتداعيات متموجة في أعماقه!

أما أصحاب الضمائر الحية الذين يجددون أنفسهم على الدوام، ويحافظون على نضارة حياتهم القلبية والروحية، فإنهم يحسون عند كل أذان

بجلاوةٍ وطرارةٍ أول أذان في العهد الذي نزل فيه لأول مرة من السماء، ويتخيلون في أصوات الأذان هذه وكأنهم يستمعون إلى نداءات الأنبياء... ويصلون في عوالم قلوبهم إلى كورس الملائكة وهم يكبرون ويهللون ويشهدون... ويخيل إليهم وكأنهم يسمعون أنفاس جبرائيل التي تهب الحياة، وأنفاس إسرافيل التي تبعث من في القبور.

وبعد أن يتم بالأذان التهيؤ المعنوي والإشباع الروحي، وقبل الإبحار في بحار القرب من الله قبل صلاة الفريضة، تعد صلاة النافلة، ثم إقامة الصلاة فترة استقبال لنسائم الرحمة الإلهية الهابّة على الأرواح، وزيادة في التركيز المتزايد بشكل تصاعدي حتى تلك الدقيقة، ويتم فحصه والتثبت منه مرة أخرى، ويعاد النظر مرة أخرى في حالة التهيؤ والتوجه والسكينة النهائية. وهكذا يتم الإقبال على الصلاة وكأن الإنسان مقبل على العروج إلى السماء. وتتم في أوتار ضمائرنا عملية تنظيم لمشاعرنا الإنسانية النابضة في قلوبنا وتعبيرها، وللأصوات والكلمات والتصرفات التي توجهنا نحو محرّبات الأبدى، إلى أن نجد النعمات الحقيقية العائدة لقلوبنا. ولا شك أن الصوت الحقيقي يبدأ بالسلوك المشترك والمشاعر المتوحدة للجماعة التي تقف تجاه القبلة وتصطف خلف الإمام وقد عقدوا أيديهم أمامهم تعبيرا عن التوقير والاحترام... يركعون ويسجدون للحق تعالى، ويظهرون أقصى آيات التعظيم له، ويقفون أمامه خاشعين، وعند السجود يستوي عندهم موضع أقدامهم مع موضع جباههم. وبنسبة إحساسنا بشعور الجماعة في قلوبنا نستطيع تذوق كل صور جمال عصور الأنبياء والإحساس بها.

أجل!.. إن من يتواصل مع تناغم الصلاة السماوية، فإن كل حركة وراء الإمام في الصلاة وكل كلمة، هي عند ابن آدم صوت داء الوصال وصوت حسرة للجنة المفقودة، وتظهر بشكل شعور بالأمل وبالفرح بالوصول. والصلاة بالنسبة لمعظم من ترك نفسه في الجو المعراجي للصلاة تعد إشراقات فجر للأيام الحلوة التي تملأ خيالنا لعهدنا في الجنة من قبل، أو للجنات

المقبلة. أما نحن فعند وقوفنا لكل صلاة نحس - بنسبة سعة عالم الأحاسيس لدينا- وكأننا نرتشف بحة صفو جيل نوراني وصمته... بحة ممتدة من جمال اللجنة إلى العهود الذهبية لتاريخنا. وبفضل هذا نستطيع جمع أذهاننا المشتتة بفعل المشاغل العديدة للدينا، وتركيزها. أما أرواحنا فتتسلخ من الجوع القاسي للحسد، وتتفعل مرة أخرى بأمل الوصال. ومع أنه لا يكون في كل صلاة ولا في كل صلاة فريضة فإن أرباب القلوب يستطيعون السياحة بين عالم الأزل والأبد عدة مرات في اليوم الواحد، ويمرون الماضي والمستقبل معا من منشور الفكر بوتائر متعاقبة. ويتأملون الشرائط الذهبية للزمن الماضي مع التلال الزمردية الخضراء للمستقبل المحفوف بالأمل في آن واحد. وبهذا نستطيع أن نشعر ونعيش حياتنا وحياة الآخرين في اللحظة نفسها، ونجد في أعماقنا لذة آلاف الذكريات وكأننا نرتشف ماء الكوثر. وكما يحدث في الأحلام نقوم بطي المسافات، والتجول في عوالم فوق الزمن... وتذوق طعم جميع الأمور الحارقة وغير الاعتيادية... ومنتقل من فكر إلى فكر، ومن شعور إلى آخر... ونقضي كل لحظة في جو من عرفان، وفي جو من محبة، وفي طوفان من شعور باللذة... وينطبق هذا على من استطاع الوصول إلى مثل هذا الأفق من العرفان.

عندما تمتزج الصلاة بالروح وبالقلب وتسري فيهما، تقوم هذه الحالة النورانية الفريدة بتقليب أعمالنا الاعتيادية لتضع تناغمها، وشعرها، وحالتها السماوية، وتقيمها بدلا منها.

الحركات السرية العائدة للصلاة التي تغذي أفكارنا وأحيلتنا كل يوم عدة مرات تجدد على الدوام طرقا ومنافذ وراء أفق هذا العالم لتتقلنا إليها وهي تهمس في قلوبنا بأبيات الشاعر نسيمي:

مكاني أصبح لا مكانا،

انقلب كياني كله روحا،

وتجلى عندي نظر الحق عيانا،  
فغبت عن نفسي من لذة الوصال...

وهكذا تقوم العبادة بإفشاء ما يستتر في القلوب من الجمال الأزلي الذي كان كنزاً مخفياً من قبل، والذي هو منبع جميع الإلهامات والهبات، بكل أعماقها التي لا تسعها الأبعاد والمسافات. لذا فما يُعاش في أثناء الصلاة - بجانب الأمور الواضحة المعروفة للجميع- هو في الأكثر طوفان من المشاعر المتسمة بالعظمة والمهابة والتي تتجاوز الكميات والكيفيات، ودوامه من الأحاسيس. في الصلاة يخيم على دنيا التعبير والبيان عندنا ما لا يمكن أن يُقال، وطمس مشاعر لا يمكن التعبير عنها بموسيقى فريدة في أرواحنا، وتشغل كياننا أحاسيس واسعة وعريضة لا تسعها الألفاظ اليومية الاعتيادية، وتفرج فطنة -تتجاوز العقل المادي وتنسم وتتلون بلون وطابع غيبي مفتوح للحدس والإلهام- عن باب فكر أخروي مرتبط بالخط النبوي... لذا نستطيع أن نقول من هذه الزاوية إنه لا توجد للعبادة أكبر من عبادة الصلاة، ولا توجد أحاسيس أصوب وأصح من الأحاسيس التي تظهر في تصوراته وخيالاته وهو قائم في الصلاة.

إن أفق الصلاة الذي تصله روح الإنسان التي تتجاوز بمشاعرها وإلهاماتها وحدسها الجسد وعالم الشهود، مع جميع الأرواح التي تحس به، تنطق بالحسرة وبآلام داء الهجران. كما تنطق في الوقت نفسه عن اطمئنان القلب، وروح وربحان المشاعر الإنسانية، وعن المصير والقدر الأزلي للوجود، وعن تأمل النجوم لسطح الأرض، وعن أسرار السماوات، وعن أضواء دار العقبي، وسفوح الجنة، والأشجار المتمايلة في تلك السفوح، وعن الأثمار الهادرة تحت هذه السفوح... تنطق بأركانها... وتنطق بالقرآن الموجود فيها، وبالأدعية... تنطق بكل هذا وتكرره بأداء وبأسلوب جديد وكأنه يسقي أرواحنا مياه الكوثر.

وبعد الوقوف للصلاة يود هؤلاء العباد الصادقون أن يعلنوا عن طريق الركوع مدى انفعال أرواحهم الصافية، وعن ارتجافات ورعشات أفكارهم النيرة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا التواء. ويشعور خليط من الإحساس بأنهم تجاه عظمة وجبروت، وأمام رحمة ولطف ينحنون مثل انحاء عصا... ينحنون وهم يتمتمون بصوت خافت وبشعور من العبودية يلف كل كيانهم... يتمتمون دوما عن العظمة الإلهية، ويدقون باب الحضرة الإلهية بالركوع الذي يعد أسلوب توجه أهل السماء وإبداء خضوعهم له. وبنسبة انفراج ذلك الباب يستطيعون الوصول إلى أعماق عالمهم الروحي. وكما في الحج أو في رحلات أخرى نحتاج فيها إلى تكرار التكبير والتهليل عند تسلق تلال، أو عند النزول إلى سهول، وكأنا ننتقل من فصل لفصل آخر، كذلك يتم في الصلاة التي هي عنوان رحلة الروح ومعراجها التعبير عن الانتقال من فصل فيها إلى فصل آخر بكلمات مباركة تحمل المعنى والشعور والفكر المبارك نفسه. ففي كل ركوع تقريبا يتم لمس مطرقة باب الحضرة الإلهية العظمى بالتكبير والحمد وبالمشاعر التي تتداعى بهذه الكلمات. ثم يتم انتظار الوقت المبارك بكل يقظة وانتباه ورسوخ لتقييمه بأفضل شكل، وتتم محاولة اصطلياد التحليات الإلهية وهباتها وألطفاتها بصبر العنكبوت ودقة الهرّ في اصطلياد فريسته.

ينفث الركوع الذي يأتي بعد خطوة واحدة من الوقوف في الصلاة نفحاته علينا، ويهمس في أرواحنا همسات أجمل من الحياة نفسها، وأتمن من الأذواق الجسمية، وعن رؤيا لا يمكن أن نتخيلها أو نتصورها، ولا يمكن أن نتحقق في هذه الدنيا أبدا. ويعدّ قلوبنا أمورا تتجاوز بكثير ما نتظره أو نتوقه... يعدها بأيام ودقائق زمردية وراء هذا العالم. ألسنا جميعا أبناء أفكارنا وخيالاتنا وآمالنا بوجه من الوجوه؟ فعندما اهتدينا إلى الحقيقة بعد أن قاسينا الكثير في هذه الأيام الصعبة، فإننا نتجاوز الزمن الذي نوجد فيه

وتثبت أنظارنا على "الزمن الآتي" بأمل الحصول على السعادة، حيث نتأمل باسمين سفوح الجنة.

الركوع يُبعده الذي يحمل معنى الانحناء أمام الحق تعالى توقيرا وتعظيما له، لذا فهو يأخذ معنى الانحناء من كل من أحنى ظهره، وأحياناً يقول: ﴿رَبِّ إِيَّيْ مَسْنِي الضُّرِّ﴾ أو ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فنشعر برائحة قميص يوسف من عالم يوسف عليه السلام أو صوت خرير ماء الحياة. يُسمعنا هذا ويهيج مشاعرنا بالخوارق المنتظرة من وراء الحقائق. يهيجنا إلى درجة أن شعورنا بالحمد والثناء يلف كياننا فنعتدل في الوقوف لكي نهدى له تعالى عرفاننا بالمنة له. وهذه الوقفة القصيرة تختلف عن الوقفة الأولى، فهي مرحلة جديدة من مراحل الرحلة والسير نحو الله تعالى، وشاطئ آخر من هذه الرحلة. في هذا الميناء النوراني نسترجع في أعماق قلوبنا تسيحات الركوع، ونحاول في هذه الوقفة القصيرة الإحساس بمشاعرنا التي لا تحد، وخيالاتنا اللامهائية، ونجعل قدرة الحس عندنا في استنفار لتصيد الألفاظ، وبأطراف "الكنز المخفي" الذي عرفناه ندع أنفسنا في شلال جديد من أحاسيس واسعة مصطبغة بصبغة القرب من الله. ومن الصعب معرفة مقدار اللذة والخشبة ومشاعر التوقير التي تلف كيان الذين يشعرون بالصلاة في ركوعهم وقيامهم في أعماق ضمائرهم، وكيف ينفعلون بالأمل، ويرتجفون من الخيفة. هذا الشعور، وهذا الإحساس العميق هو أولى الخطوات التي يخطوها الإنسان نحو الوصال، وأكثرها جدية، والسجود هي الخطوة الثانية.

السجدة هي أرضية وخلفية الشكر، ووعاء المهابة الذي تصهر فيه العبودية وتسكب إلى قلب وقلب الواصلين، وعرصه وخليج مشاعر وأفكار الوصال المتوجهة للذات الإلهية ونقطة اللقاء.

وكلما شعرنا بالسجود على وجهه الحقيقي، وتفاعلنا معه نحس -ونحن ننتقل من القيام في الصلاة إلى الركوع ثم إلى القيام- وكأن هناك عصارة من

الإيمان ومن الإسلام ومن الإحسان تنسكب إلى التلال الزمردية لقلوبنا وتنساب إليها.

عند السجود تلتقي جبهتنا وأقدامنا في المستوى نفسه، ونشكل نصف قوس، وتوتر مثل وتر القوس، ونقلب إلى نَفْسٍ وإلى صوت أين، فنحس أن وسعة آمالنا تسبق أعمالنا، وتكفي كل شيء، وأن رحمة الله تسبق كل شيء عندما تتحد مع إيماننا وتكون وحدة معها، فنشعر وكأننا نمر من تحت أكاليل سماوية يقع طرف منها في عالمنا والطرف الآخر في دار العقبي محاولين تغيير حظوظنا.

وعندما ينظر الإنسان من موقع ونقطة ذروة حظه التي يسمو إليها بمشاعره في السجود، ويتطلع ويتأمل الحقيقة، ويشرح بلسان قلبه جميع الكلمات المعبرة عن أحاسيسه، يوجه دنياه قليلا نحو الآخرة، ويعكس بعضا من عالمه البعيد إلى عالمه الروحي، فيستطيع الإحساس بمناخ عبوديته والعيش فيها وكأنه يقرأ ويطلع مناقب هذه العبودية ومآثرها.

أجل!.. إن أدعيته التي يثيرها شعوره بعبوديته، عندما تختلط بشلالات الرحمة الإلهية وألطافه، وتجريان معا لتلتقيا بالاستجابة الإلهية تعيش عندها مشاعرنا في جو جميل كجو الجنة، وتنشد أغاني الوصال. وجمال هذا -عند الذين يفهمون هذا الأمر- جمال أحاذ، وجمال جذاب وساحر إلى درجة أن من ذاق طعم هذا الجمال مرة واحدة في حياته لا يدري كيف يشكر صاحب هذه النعم وصاحب هذه الأفضال.

إن بطل القرب من الله الذي يتعمق قربه من الله كل حين، الواضع جبهته على الأرض، والذي يرتفع في سباحة سماوية وبشكل حلزوني إلى ذرى لا يمكن بلوغها... مثل بطل القرب هذا يشعر وكأنه اقترب من "حظيرة القدس". وبسُكْر هذا الشعور، يرفع رأسه بكل توقير من السجود مبديا تعظيمه وعرفانه بكرمه تعالى لكي يلون شعوره بالوصال ببعد آخر،

لكي يقول: "التحيات لله..." بكل الأدب الذي يقتضيه وجوده في الحضرة الإلهية... يقول هذا ويأخذ به الوجد حتى كأنه لم يعد كائنا من كائنات هذه الدنيا، أي يأخذ حالاً ومعنى وسحراً فوق الطبيعة.

وبعاطفة لا تعرف الارتواء ولا الشبع يتوجه بطل الصلاة بهذه المشاعر الفوارة - خارج حدود الكم والكيف، والمتعمقة بالنية الخالصة التي يخلد بها يقينه ويرتبط بها بالله تعالى - لأداء فرض الشكر للحق تعالى على كل نعمه من حياة ومال وسائر نعمه الأخرى، فيذكر الله بكل مشاعر كيانه ويشن... يذكر النبي، فيمتلئ داخله بالانشراح... ويفكر بالمؤمنين الذين يشاطرونه السعادة نفسها فيدعو لهم بالخير... ثم ينهي صلاته التي بدأها بالتكبير بالشهادة التي هي أساس الدين، وأساس رحلة المعراج هذه.

الذين تعودوا على أداء الصلاة، ويتغذون بها، لا يشبعون منها أبداً. ليس الشبع منها، بل يقول كل منهم عقب الانتهاء من كل صلاة: "هل من مزيد؟" فينتقل من صلاة نافلة، إلى نافلة أخرى، ويرتفع كالشمس في صلاة الضحى، ويلمس بصلاة الأوابين مطرقة باب القرب من الله، ويرسل الأنوار بصلاة التهجد إلى ظلام البرزخ، ويحاول أن ينسج حياته بالصلاة مثل دانتيل جميلة، ولا يدير رأسه أبداً عن العالم النوراني الذي يعيش فيه، ولا عن المعاني التي تلف روحه... بل يَعدو على الدوام ويسرع وراء أنواع صور الجمال التي تُعدُّ بها الصلاة.

## الميلاد السعيد

إن ميلاد فخر الكائنات يعد ميلادا جديدا للإنسانية كلها. فحتى تشريفه للدنيا لم يكن هناك فرق بين الأسود والأبيض، ولا بين الليل والنهار، ولا بين الورد والشوك. كانت الدنيا وكأنها في مأتم عام، والفوضى تسود الوجود... وبفضل النور الذي أنار به الوجود افترق الضياء عن الظلام، وانقلب الليل إلى نهار، وانقلب الكون إلى كتاب يمكن قراءته كلمة كلمة وجملة جملة وفصلا فصلا... كأن كل شيء قد بعث من جديد، ووصل إلى قيمته الحقيقية.

أجل!.. إن تشريفه الدنيا يعد حادثة كونية، أي أهم حادثة جرت في الأرض وفي السماء، وبعثا وحياة جديدة للإنسانية في الوقت نفسه. فهو بالرسالة النورانية التي حملها بيديه كان يقوم بتنظيم الدنيا من جديد حسب قيم السماوات، وبوظيفة الترجمان للحقائق الموجودة خلف أستار الوجود، وبتقديم تفسير جديد ونظرة جديدة للأشياء وللحوادث. فقد كان الوجود قبله دون معنى ودون روح، قد تمزقت الروابط فيه، وأصبح كل شيء غريبا عن الآخر. كأن الجمادات كانت من قبله رموزا لمسيرة العبث في مسرح الوجود، وتبدو الأحياء وكأنها في قبضة الانتخاب الطبيعي، وفي كل يوم بقبضة موت مختلف. وفي مثل هذه الوحشة المظلمة كان الإنسان يئن من الفراق كل آن كيتيم وكمظلوم. بالنور الذي نشره انزاحت الأستار وزال سحر الظلام فجأة، وفرّت الشياطين، وهُزمت الضلالات واستقرت في أعماق الجحيم، وتغيرت ماهيات الأشياء، فانقلب الهدم إلى بناء، والانقراض

إلى التعافي. وبدأ المحيي إلى الدنيا والرحيل عنها يأخذ شكل مراسيم عيد، المحيي إليها عيد ميلاد، وفراقها عرس رحيل.

منذ أن داعب نوره رؤوسنا زال عن أرواحنا رعب الفناء، وفاضت بشائر الوصال من ديار الأحبة على الصدور المتناعة. وبأكسير الحياة الذي نفخه في قلوبنا وفي قلب الإنسانية كلها بدأنا ندرك أنفسنا ونفهمها، وندرك ماهية العلاقات بين الأشياء، ونستطيع تقييم القابليات الموجودة في ماهيتنا وجوهنا، ونحسد بُعد اللاهائية الموجودة لدينا. لولاه لما اكتشفنا هذا العمق الموجود في أرواحنا، ولا استبشرنا وفرحنا بالرحلة التي تمر من القبر نحو اللاهائية. هو الذي نثر على قلوبنا انفعالات الوجد والعشق... هو الذي أثار عيوننا بالنور... وهو الذي هيأنا للرحلة إلى بلد الأبد والخلود.

هو بالنسبة للساحل الذي ننتظر فيه بدء هذه السفرة الطويلة والمليئة بالأسرار قبطان السفينة ومرشد الطريق. وهو بالنسبة للعالم الذي نرحل إليه ونصله. المضيف ومستقبل الضيوف ودليلهم، وشفيع لنا. لذا كانت هناك مسؤوليات معينة لنا تجاهه، ولا يمكن أن نبقى غير مباليين بهذا الأمر أبداً. ولكن الغريب أننا طوال عصور عديدة بقينا غير مباليين برمز الضياء هذا وبرسالته النورانية... لا، ليس فقط غير مباليين، بل أحياناً تصرفنا دون توفير واحترام تجاهه.

ومع أننا نحاول في الحقيقة ضمن دائرة معينة وضمن مقياس ما، القيام بشعائر الاحتفال بمولده بتوزيع بعض الحلويات وماء الورد، وأحياناً بلجلب بعض المغنين أو قراء المدائح النبوية لإثبات ارتباطنا به... ولكن كل هذه المحاولات لا ترتقي ولا تتناسب مع عظمتة. بل لم تصل حتى إلى الاحترام والاهتمام الموجه إلى عظماء في التاريخ لا يستطيعون إلا أن يقفوا باحترام أمام سيد الأنبياء والمرسلين. فمثلاً لا نشاهد أي فورة فرح أو مظاهر بهجة كالتى نشاهدها في مناسبات عيد ميلاد المسيح عليه السلام وفي احتفالات رأس السنة الميلادية.

والمقترحات التي يمكن تقديمها هنا ليست بطبيعة الحال من التكاليف الشرعية، فلا يمكن لأي أحد ادعاء هذا. ولكني أتساءل ألا يمكن أن نجعل هذه الاحتفالات -باسم رسالته الهادية النورانية- أكثر عمقا وغنى وجدية؟

يتم الاحتفال بالأيام العائدة إلى السيد المسيح ﷺ في جميع البلدان تقريبا، المسيحية منها وغير المسيحية، بمظاهر كبيرة من الفرح والحبور والبهجة. وتستمر هذه الاحتفالات أسابيع، بل أشهر، تجري فيها حوارات وكلام في هذا الموضوع. وفي كل أسبوع يتم تبادل التهاني والهدايا باسمه، ويكون هذا هو الشغل الشاغل لدوائر البريد في تلك الأيام، وتندق الهواتف على الدوام من أجله، وترتفع سماعات الهواتف له، وتترين كل الأرجاء بالشموع، وتغرق الأسواق والمحلات التجارية بالأضواء، وترتفع الضحكات. تنقلب البيوت إلى خلية نحل تتر بالمشاعر نحوه، وتتن المعابد بأناشيده، ويمر كل يوم ضمن احتفالات ساحرة تدير الرؤوس.

صحيح أن العديد من الناس في هذه الكرنفالات التي يختلط فيها الحابل بالنابل لا يعرفون ما يفعلون ولا يعرفون لماذا يفعلون، ويكون الكثير من تصرفاتهم تصرفات تهرجية ودون أي ضوابط. ولكن مع هذا تشم في تلك الأيام نوعا من الوجد الديني، وقطاعات كبيرة من الناس تعرف ماذا تفعل.

على أي حال من الأحوال فإن الأيام والليالي المرتبطة بالمسيح ﷺ قد امتزجت في فكر الإنسانية إلى درجة أن الجميع -أدركوا ذلك أو لم يدركوه- يجدون أنفسهم في خضم هذه الاحتفالات الغربية. وسواء أكانت الاحتفالات عبادة أو هوا أو تهريجا، فهم يجدون أنفسهم يشاركون المسيحيين المشاعر نفسها، ويقومون ويقعدون مع هذه المشاعر، حتى إنهم يقومون بقطع أشجار الصنوبر وبذبح الديك الرومي، وبشرب الشمبانيا، فيسكرون حتى الثمالة، ويجرحون إلى الشارع سكارى لا يدرون ما يفعلون.

طبعاً نحن لا نرضى ولا يوجد هناك شخص واحد يرضى أو يقبل تحول مناسبة المولد السعيد والمبارك والمبجل، ولا تحول الدين الإسلامي إلى مثل هذه الكرنفالات. كما لا يملك أحد القدرة على القيام بمثل هذا التحويل. ولكن كلما شاهدنا كيف أن دنيا يسودها الكذب والرياء استطاعت استغلال الإنسانية كلها وأخذتها في شباكها... كلما شاهدنا هذا نحاسب أنفسنا وتساؤل بجزن: "لماذا لا يستطيع العالم الإسلامي الاحتفال في ربيع الأول كما يجب بمولد سلطان الأنبياء الذي هو في الوقت نفسه ميلاد هذا العالم وربيعه، ويوم خلاص الإنسانية نفسها... الاحتفال بنفس المشاعر الجياشة".

لا يجب أن يتبادر إلى الأذهان مما ذكرنا أعلاه أننا نريد المسّ بمقام سيدنا المسيح عليه السلام وبمنزلته، أو بمقام أتباعه وحوارييه. فالاحترام والتوقير الذي نحمله نحن المسلمين تجاه هذا الرسول الكريم لا حد له. كما نؤمن بأن الرسالة التي أتى بها تشكل الآن ركنا مهما من أركان المدينة الغربية الحالية. فالمؤرخون وعلماء فلسفة الحضارات يذكرون بأنه لولا رسالة المسيح عليه السلام وما حملته من روح ومعنى لما ظهرت المدينة الغربية. لأن هذه المدينة تعتمد على أركان أو على أسس ثلاثة هي: الفكر اليوناني (الفكر الرياضي)، والقانون الروماني، ثم الركن الثالث المهم وهو الدين المسيحي. ويجب هنا أن نسجل بأنه لولا فخر الكائنات محمد عليه السلام ورسائله الهادية المنيرة لما كانت هناك حضارة تحت اسم الحضارة الإسلامية. ولولا الحضارة الإسلامية لما كانت هناك الحضارة الغربية.

أجل!.. فلو لم يكن هناك الدين الإسلامي بسماحته المعروفة ودفعه وتقديره للعلم والفكر وحصّه عليهما... ولولا شروقه على سفوح الغرب بألوانه السماوية... ولولا قيام العلماء المسلمين والمفكرين الأتراك منذ القرن العاشر بنقل الثقافة اليونانية-اللاتينية إلى أوروبا وتعريفها للأوروبيين لبقى

الغرب حتى الآن في ظلام القرون الوسطى. وكما هو معروف فإن علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والهندسة والطب وغيرها من العلوم كلها من منشأ شرقي، ومنصهرة في البوتقة الإسلامية. وعلى الرغم من وجود فئة مستغربة تتصور أن الغرب وحده هو مصدر كل شيء متعلق بالمدينة، وهي لا تقبل سوى هذه النظرة، فإن الغرب اضطر لكي يأخذ موضعه الحالي من المدينة إلى الانتظار ستة عصور بعد بعثة المسيح ﷺ... انتظر والتقى بالإسلام. وسواء أستطاع الغرب تقييم هذا اللقاء كما ينبغي أم لم يستطع، فهذه مسألة أخرى، ولكنه تأثر به دون أي شك، واستفاد منه كثيرا، وخطط مستقبه على ضوءه.

على الرغم من عدم قيام الغرب بتبني الضوابط التي تشكل أسس الحضارة الإسلامية إلا أنه أخذ الشيء الكثير من الإسلام واستفاد منه. ولعب ما أخذه عن الإسلام، وما تداعى إليه منه، دورا كبيرا في تشكيل العقل والفكر الغربي الحديث. لذا نستطيع أن نقول مع الشاعر محمد عاكف:

الدينا مدينة له فيما تملكه،

المجتمع والفرد مدين له،

البشرية بأسرها مدينة لذلك المعصوم،

يا رب!.. ثبتنا على هذه الكلمة يوم الحشر...

منذ عصور ونحن عاجزون عن الاحتفال بيوم وأسبوع وشهر ولادة هذا الرسول الكريم ﷺ الذي تدين له الإنسانية جمعاء، بما يتناسب مع قامته السامقة الرفيعة، بل لا يتم الاحتفال به بنسبة ما تتم من الاحتفالات لعظماء التاريخ الذين لا يستطيعون بلوغ كعبه ﷺ. فلو رتبت الاحتفالات بمولده أياما وسنوات وعصورا لما تم الإيفاء بحقه. ولو أنشدنا عشرات وآلاف القصائد والأناشيد كل ليلة لما أوفيناه حقه. ولكن انطلاقا من المثل الشعبي القائل: "السلطنة تليق بالسلطان، والتسول يليق بالمتسولين" نقول: "بدلا من

عدم عمل أي شيء، فمن الأفضل عمل ما يمكننا عمله في الأقل". لذا يجب ترتيب ندوات على غرار "ندوة الرسالة الخالدة"<sup>(١)</sup> على أن تعقد هذه الندوة كل سنة في بلد مختلف، وتخصيص فترة معينة من الزمن لها. وإذا كان من الممكن تخصيص العام القادم كـ(عام محمد ﷺ) مع شعورنا بالحنين والحياة من بخلنا وعدم وفائنا المتجلي بتخصيص عام واحد فقط له.

---

(١) تعقد هذه الندوة سنويا في تركيا. (المترجم)

## الهجرة النبوية

الهجرة رحلة لغاية مقدسة ولهدف جليل وكبير... ومثل هذه الهجرة ترمي إلى تحقيق مثل هذا الهدف بمدّ وتقوية من العقيدة والعاطفة والفكر وتغذية وعون منه. وبمقدار درجة الإخلاص في هذه الهجرة وعمقها، تكون مساوية ومعادلة لسياحة الإنسان في السماء. وقد شُرف فخر الإنسانية بهاتين السياحتين، السماوية منها والأرضية. السياحة الأولى كانت خاصة به وغير متاحة لأحد غيره. أما الثانية فهي طريق واسعة باقية ومفتوحة للجميع حتى يوم القيامة في شروط خاصة ومعلومة... طريق واسعة ومضيئة مشى عليها مئات الآلاف من الناس قبل بعثة شمس نساء النبوة وقمرها. ولا شك أن أكثر هذه الهجرات المباركة فضلاً، وأكثرها دويماً في سمع الزمن، هي الهجرة التي قام بها فخر الإنسانية الصادق المصدوق ﷺ مع أصحابه الصديقين. لقد تحمل الرسول الكريم كل صعاب الهجرة - التي جاء الأمر بها من فوق سبع سموات - من أجل العثور على معاونين مخلصين لأصحابه الكرام الأوفياء، وعلى موطئ قدم أمين وراسخ ليؤسس هناك دولته، ويقوم الجسور للناس ليوصلهم إلى رحاب دين عالمي، له أبعاد عديدة ومتداخلة وعميقة، وبملك قابلية إنشاء تاريخ جديد ومدنية جديدة.

الخطوة والمشروع واسع سعة السماء، والمسافة بين المبدأ والنتيجة والهدف مسافة هائلة. ففي هذه الطريق الطويلة احتشدت الشياطين والعفاريت على طولها من أولها لآخرها، وفارت في كل جانب منها مشاعر السوء والشر، وأوقدت في كل منحني منها نيران للفتن. أجل!.. فعلى الرغم من جميع هذه

الظروف السلبية كان هناك منبع قوة كانت كافية لملء القلوب بالأمل والانشراح والاطمئنان، ففي كل قلب، وعلى كل لسان كانت هناك جملة واحدة تتكرر (حسبنا الله ونعم الوكيل). فكل منهم قد توكل على الله واستند إليه وإلى توفيقه، وبدأ رحلته في هذا الدرب الطويل... بدأ رحلته في هذا الدرب دون أن ينظر إلى ورائته، ودون أن يهمل من يمشي وراءه.

في تلك الأيام كانت جميع الطرق تجرب مع كفار مكة وطغائها، ويستعان بجميع الحلول الممكنة. ولكن رجال الدعوة هؤلاء الناذرين أنفسهم لوظيفة الدعوة إلى الله لم يجدوا أي تجاوب، ولم يكن هناك أي وجه للمقارنة بين ما صرف من عمل ومن جهد وبين ما تم التوصل إليه من نتائج. وهذه الحقيقة هي التي دفعت بصاحب الرسالة ﷺ المرتبط بكل كيانه بالدعوة إلى الله، إلى البحث عن أناس وعن أقوام آخرين خارج مكة لإيصال كلمة الله إليهم. وكانت رحلة الطائف أول تجربة في هذا المجال. وعلى الرغم من آلام هذه الرحلة ومضايقاتها فقد رجع إلى مكة مهموماً، ولكن دون فقد آماله، ومع سلوة اهداء شخص واحد. ثم أعقبتها بيعة العقبة السرية في جبل "منى" الشامخ، التي تم فيها البحث عن جيل النور، وعن الصدور المفتوحة للهداية. كان من الصعب حدس من سيكون أصحاب هذه القلوب المؤمنة، ولكن تبين فيما بعد أنهم ستة من المحظوظين من أهل "يثرب". لقد أصبح هؤلاء الستة المحظوظون الوسيلة الأولى وواسطتها في يد النبوة لتغيير وجهة الإنسانية وقدرها السيء. وكل ما كان معروفاً آنذاك حول المخلص الأبدي للإنسانية هو ما كانوا يسمعون أحياناً من اليهود:

"إن الله سيبعث نبيا من بني إسرائيل هو خاتم الأنبياء، وأن اليهود سيجتمعون تحت رايته وسيسودون جميع الأمم". صحيح أن هذه الأمنية لم تنفعهم كثيراً، ولكنها كانت كافية لإشعال فتيل حب الحقيقة في صدور أهل يثرب وتوجيههم الوجهة الصحيحة. كانت هذه المعلومات البسيطة في

ذلك الزمن بمثابة لبّ حقيقة كبيرة وجوهرها. وعندما آن الأوان المناسب فاز أهل يثرب بلقب "الأنصار"، هذا اللقب الجليل الذي سيقى إلى يوم القيامة مفخرة لهم، وتاجا على رؤوسهم، وفازوا بنعمة الدنيا والآخرة.

أعقب هؤلاء المحظوظين الستة فيما بعد عشرة آخرون. وبعد سنة واحدة آمن سبعون منهم -بينهم عدد من النساء- وأقروا برسالته ثم دعوه إلى يثرب بعد اجتماعهم به ﷺ في مكان آمن. كانوا جادّين في دعوته إلى مدينتهم، لقد قبلوا كل ما جاء به، وعاهدوه على أن يمنعوهم مما يمنعون به أنفسهم ونساءهم وأولادهم. لقد قبلوه وضموه إلى صدورهم، وعاهدوه أن يصونوه بأرواحهم ومُهجهم. ومقابل هذا كان الله تعالى يعدهم بالجنة. تمت البيعة التي رضي عنها رسول الله ﷺ ورضي عنها الأنصار، وفتحت "يثرب" أبوابها للمهاجرين على مصاريعها.

بدأت مكة تفرغ تدريجيا، فهناك كل يوم ثلاثة أو أربعة من أهلها يتركها ويهاجر إلى "يثرب" إما خفية أو علنا. وبدأت عملية الهجرة وما حفتها من توضيحات، وما قام به الأنصار من إيثار، ترسم لوحات مضيئة. وتحولت ظاهرة الهجرة إلى شيء سماوي يشبه عملية المعراج، فكأها سياحة الملائكة في عوالم خلف المكان والزمان. وكانت القافلة الأخيرة لهذه الرحلة السماوية على الأرض من نصيب صاحب القافلة الأخيرة في موكب النبوة. وعلى قاعدة "الأجر على قدر المشقة" وكذلك على قاعدة "أشدّ الناس بلاء الأنبياء..." فقد حقت أكثر أنواع المكارهِ والأخطار بهجرته ﷺ، ولكنه تجاوز جميع أودية الموت المرعبة، ووصل إلى البلدة المنورة بفضل تفويض أمره إلى الله، وتوكله عليه، واستسلامه له. وصل إلى المدينة دون أن يصيبه مكروه من قبل سُرّاقَة، وما كان يعتمل في صدره من أفكار سوداء، ولا أي خطر من المخاطر التي كانت موجودة داخل وخارج غار ثور، ولا من أذى قطاع الطرق واللصوص الموجودين في الطريق. أصبح سُرّاقَة صديقا ومرشحا

لأن يكون صحايبا، وتعرف بُرَيْدَةً مع أصدقائه بالإسلام. أما فخر الكائنات ووردة الجزيرة العربية فقد كان يواصل طريقه إلى بلده الجديدة وهو يحوّل طريقه المحفوف بالمخاطر إلى بساتين وحدائق.

وبينما كان بعض أهل مكة ممن يقطر الدم من أفكارهم ومن مشاعرهم يكادون أن ينجنوا من الحقد والكراهة إلى درجة السعار، كان رسول الله ﷺ يدخل "يثرب" في ظل الفرح الغامر لأهلها وهم ينشدون:

طلع البدر علينا من ثنية الوداع      وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وفي الموضوع الذي توجد فيه القبة الخضراء حاليا أقام الرسول ﷺ مسكنه المبارك، كما بنى مسجده بجوار بيته، فكان بيته ومسجده المباركان متداخلان ويتنفسان الجو العطر المبارك نفسه. ثم بدأ ينفث فيما حوالبه الحياة بالوحي وبالرسالة الإلهية وبإلهام روحه... فدُنينا نبع الحياة هذا، ومن بلغه ونفته ونشره بأرواحنا وأنفسنا.

كان آدم ﷺ قد بدأ رحلة هجرته الطويلة من الجنة إلى الأرض، لكي يصل إلى الأفق الواسع للحياة الأخروية التي يشير إليها معنى وروح الهجرة. أما نوح ﷺ فقد تحمل أعباء السياحة في البحار إضافة إلى سياحته في البر. وتحوّل إبراهيم ﷺ في أقطار بابل والحجاز وأرض كنعان دون أن يفتر. وانتقل موسى ﷺ من بيت والدته إلى قصر فرعون، ثم من مصر إلى الأيكة ذهابا وإيابا مرات عديدة. ومر السيد المسيح ﷺ من جميع الجسور التي مر عليها الأنبياء السابقون. أما حواريو عصر النبوة فقد نظموا كوادِر الإرشاد وقوافلها إلى جميع أرجاء العالم.

وإذا أتينا إلى حواربي عصرنا الحالي فقد انتشروا في الجهات الأربع للأرض وهم يستخدمون الوسائل العصرية ويبلغون فكرهم وهم يرددون الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ

وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤٠﴾ (النساء:٤). وبفضل هجرتهم هذه سيصل صوت القرآن إلى العديد من الناس، وسينفتح أمام بعضهم سبل الإيمان، وأمام البعض الآخر سبل تأسيس الصداقة والتفاهم والحوار.

أجل!.. سيقوم هؤلاء الحواريون بنفث الصدى المنعكس من غار حراء على قلوبهم على من حولهم في كل مكان يحلّون فيه، ويرشدون القلوب المتخدرّة باليأس إلى طرق تحريك هذه القلوب وإحيائها من جديد، وإيصال الهبات والنعم الإلهية إلى الجميع عن طريق العقل والمنطق. ورفع الموانع والعوائق الموجودة بين القرآن والقلوب منهيين بذلك فراقا دام عدة عصور، ومحققين بذلك اللقاء الكبير. وهم على وعي بأن نشاطهم هذا إنما هو سباق في مجال الإيمان والعشق والشوق، وأنهم بقيامهم بتعليم الصغار الذين استولى اليأس والخوف والضعف على قلوبهم ينقذونهم من الجو الضيق والخانق لهذه الحياة الفانية، ويدلوهم على طرق الوجود الحقيقي والحر، وعلى آداب المحبة والتوقير.

## أفكارنا ومثلنا في ظلال القبة الخضراء

محمد رسول الله ﷺ هو المعنى الأسمى للخلق، وخلاصة الوجود. فهو الأول حسب شجرة الخلق وهو الأخير بمعنى من المعاني. فكأن الوجود نُظِم كأبيات شعر باسمه، وكأن وجوده وجسده كان الكلمة الأخيرة من هذا الشعر. كان تشريفه للعالم رمزاً لولادة الإنسانية من جديد. أما نبوته فكانت وسيلة لظهور المعاني والقيم الحقيقية للأشياء والحوادث، وهجرته طريق خلاص الإنسانية، ورسالته جسراً لسعادة الدنيا والآخرة. وصلت بفضلها القلوب المؤمنة إلى مشاهدة الوجود كمعرض، والقيام بتقييمه على هذا الأساس، وعلى تفسيره بعد قراءته ككتاب، والعثور في إقليمه المضيء على الطرق المؤدية إلى الحق تعالى. والذين عثروا على الحقيقة بواسطته وبه، يتنفسون على الدوام معاني الأبدية والخلود. والذين وهبوا المعرفة العميقة بسيرته حصلوا على عصارة كل العلوم ولبها.

وعلى الرغم من مرور كل هذه السنين والأعوام فهو لا يزال يلتصق في أفق حياتنا كشهاب وكنجم جديد، بل كشمس لها القدرة على إضاءة الوجود كله، بل هو في الحقيقة منبع ضياء قوي يستطيع تنوير الشمس. حدود وأفق وظيفته منبع حكمة تهب شعور العبودية للقلوب، أما روحه المشبع بالحب فيربط جوانب الوجود بعضها ببعض.

كلما خطا الإنسان إلى جو يحيط بما يذكر به أحس بأن دمه يجري بالحب. وما أن يخطو إلى جوه وإقليمه خطوة واحدة حتى يجد نفسه في منتصف الطرق الموصلة إلى الله. أما زيارة قريته فهي بمثابة مرسى وميناء

ونقطة انطلاق إلى عصر النور. والذين يؤمنون بنقطة الانطلاق هذه يصلون إلى شرف اللقاء به، وتمتلئ أرواحهم بالشوق إليه. ومهما كان عدد الزيارات التي يقوم بها الشخص لمرقده الأخضر الطاهر المتناسق الذي ينبعث منه الحب والجمال والرومانتيكية والشعر -وكأنه في مغتسل موسيقي- يشعر في كل زيارة بعمق وغنى وخصوصية ذلك الجو والعالم الذي يحيط به، ويستسلم قلبه لعالم الوصال، ويشعر بتغير في نبض الحياة من حوله، ويجد نفسه في خضم متلاطم من عواطف متداخلة من الفرح والحزن.

أجل... في هذا المكان الذي تجلله المهابة، والذي يحيط به المعبد المبارك، والقبة الخضراء التي تبدو وكأنها تريد الانطلاق نحو سدرة المنتهى، يغرق الإنسان على الدوام في بحر من الأفكار حول أحوال العالم الإسلامي، وتحيط به مشاعر عميقة، وغماً لقلبه عواطف متأججة وملتهبة. أحياناً يحس الإنسان أن ضباباً يلف هذا المكان المبارك، وأن حزناً ينتشر في أرجاء هذا المعبد، وتبدو القبة الخضراء آنذاك وكأنها حواد أصيل وقف على قائمته الخلفيتين تتحدث مع أرواحنا، أو كأنها فتحت يد الضراعة نحو السماء خلف الثاوي المبارك قربها... تمد يد الضراعة نحو السماء وتتوسل، وتذكرنا بأيام المهرجان والحسرة. يحدث أحياناً كأن نورا يغمر كل مكان هناك، فيتحول المسجد إلى هالة مثل هالة القمر، وتبدو القبة وكأنها تقدم تحيات الفرح لأهل السماء. وأحياناً يبدو منظرها المتوجه إلى السماء في حالة ترقب وانتظار عميق ومؤثر إلى درجة أنك تتخيل هذه القبة الخضراء وكأنها ترجمان لآلامك وأحزانك، أو تتوهمها وكأنها تغني أشعار الغزل الفرحة. وفي غمرة صمتها العميق، وانفعالها الصامت تسمع ما لا يُسمع وتشعر ما لا يُشعر، وتحس ما لا يُحس، فتحس وكأنك تجاوزت أبعاد المكان الذي أنت موجود فيه، وأبحرت في بُعد وفي عمق آخر.

تبدو القبة الخضراء والمعبد المبارك الذي يحيط بها -مع الجبال والتلال

الصغيرة والكبيرة حواليتها- في تناغم تامّ مع السهول الواسعة والصحراء الممتدة والواحات التي تهب فيها نسائم كأنها قادمة من الأبدية، حتى لتبدو وكأنها قد صُممت في السماء ثم رسمت على الأرض. أجل فالقبة الخضراء أعمق حتى من أعمق زرقة في السماء، وقطعة مخفوفة بالأسرار. فكأن أسطر وصفحة كتاب الطبيعة التي تكون هذه البقعة المباركة قد اختيرت بدقة، ووضعت بعناية في محلها وفي موقعها، حتى كأنها نقطة التقاء السماء مع الأرض، ونقطة التقاء العديد من الأشياء المادية والمعنوية. أما القلوب المفتوحة لصاحب هذا المكان -جعلت أنفسنا فداء له- فما أن يلجوا ويتنسّموا جوه حتى يحسبوا أنفسهم، وكأنهم بدأوا يخاطون أهل السماء. وما أن يُقبل الإنسان على المواجهة التي تعد البستان الخاص وحديقة العشاق حتى تثور عنده المشاعر، ويحس بأن قلبه على وشك التوقف، ويتصاعد الانفعال في قسّات الوجوه الطاهرة. والحقيقة أن عدد الذين توفروا هناك بالسكّنة القلبية ليس قليلاً.

كانت المواجهة على الدوام بالنسبة للعشاق مرفأً ونقطة انطلاق نحو الأعلى. وكل من وصل إلى هناك من أصحاب القلوب العاشقة يبدو وكأنه دخل إلى دهليز من زمان سحري، وفتح جناحيه إلى السماوات العالية أو أبحر في بحار واسعة... يدخل وكأنه يستمع إلى شعر حول جمال تلك البقعة المباركة وإلى براءتها التي هي فوق كل براءة، ويعبّ من هذا الجمال كأنه يعبّ من ماء الكوثر. ويشعر في كل لحظة تمضي بلون جديد من السعادة.

الزمان عند المواجهة مضيء وساحر ومفتوح للخيال إلى درجة أن كل صاحب فؤاد ذكي وصل إلى هناك يتخيل وكأنه يرى الوجه المشرق الطاهر للنبي ﷺ، ويحسّ بجزء من انفعالات صدره المتفتح للوحي، ويتخيل أنه يسمع صوت أبواب السماء وهي تفتح، وأصوات رفرقة أجنحة جبريل ﷺ، وأصوات تلاوة مهيبّة للقرآن وهي تتردد، فيحسّ وكأنه قد تبلل من رأسه

إلى أخص قدميه بمطر الرحمة من ذلك العهد السعيد، فلا يملك نفسه من التناغم مع هذا الجو، فتذرف عيونه دموعا ساخنة. وعندما يحس أن أحاسيس الروضة الطاهرة قد طوقته وأحاطت به بعمق، يتمنى أن يدوب وأن يسيل إلى تلك الروضة الطاهرة.

والحقيقة أن كل ما يراه الإنسان هناك ويحس به يتصف بأنه عميق، ويخاطب سريرة الإنسان وقلبه. المكان هناك وكل شيء لا بد أن يهمس للإنسان شيئا. وبجانب بكاء العاشقين وأنينهم ترى الأعمدة المحظوظة الصامتة هناك، والبسمة الحزينة المشاهدة في حال "المواجهة" التي يرسل من خلالها الضريح المبارك -المطاف القدسي للأرواح- البسمات إلى عيون خيالنا مثل صاحب بيت مضياف ووفي... هذه البسمات دافئة ومؤثرة إلى درجة أن صاحب كل فؤاد ذكي يحس تجاه هذه المعاملة الخاصة والسرية وكأنه وصل إلى الخلود.

والذين يحسون في قلوبهم، وينظرون إلى هذا الدرب الملائكي بهذه العين، ويفهمونه بهذا المعنى، يخيل إليهم أنه لا يوجد هناك أي شيء حي أو أي جماد، بل صمت تلفه ألوان المهابة، وكأن هناك انتظارا عاما ضمن جو انفعالات الزيارة. فما أن يخطو أي زائر الخطوة الأولى إلى ذلك المقام حتى يجد نفسه تحت تأثير ذلك الجو ويبدأ بالإنصات إليه. أما الروضة المطهرة فتبدو وكأنها تقدم أسلوبها وصمتها أتمودجا لهم، وتفتح في عالم عواطفهم خمسين نوعا من المنافذ لأحاسيس وعواطف بكر لم يعرفوها، ولم يتذوقوها من قبل.

يلقى الإنسان في حضن الروضة المطهرة على الدوام سحرا يبرق أمام العيون ويلف القلوب، فيحس بنسائم عالم جديد في أحاسيسه وفي أفكاره، فيلج من أبواب خيالية في أعماق قلبه إلى عوالم غامضة تلفها الأسرار، فكأنه يسمع من منبر الأرض تلك الخطبة الخالدة -التي شكّل كلام الحق تعالى

بيانه- من فم سيد الفصحاء، وتنعّم السعادة قلبه لكونه من أمته، فيهوي إلى الأرض ساجدا سجدة الشكر.

لا شك بأن مثل هذا الحدس والاستماع بأذن القلب، ومثل هذه الانفعالات والعواطف والأذواق تظهر وتأتي نتيجة تفاعل وتجمع وتراكم العقيدة مع قناعة وتوجه كامل ومع حدس عميق. فما أكثر ما تستطيع الروضة المطهرة والمسجد النبوي وموطن النبي ﷺ وموطن العاشقين من نفث للمعاني في روع هؤلاء الذين ملكوا مثل هذه العقيدة والقناعة والتوجه وهذا الحدس.

أجل فللروضة المطهرة بالنسبة لزوارها الذين أكملوا وأتموا تركيزهم القلبي والروحي موضع هام في عالم أحاسيسهم وانفعالاتهم، ولها موقع خاص متميز بكل تفصيل من تفاصيله... بصمّتها المهيّب، ومنظرها الوقور وعمقها اللدني... كأنها تنشد شعر الوجود وتومئ إلى العالم الآخر... كأن كورس السماء ينشد هناك أعذب ألحان الموسيقى، ويضع في قلوب المتوجهين إليها جمرة العشق، فيعيش كل واحد منهم فترة لذة العشق والوصال، ثم تغيب مرة في ذلك الصمت العميق، وتتركك في وحدة حزينة وسط خيمة الوصال، وكأنها لم تفتح لك قبل قليل أستار الأسرار... تتركك وحدك وترجع إلى حالها البكر السابق... تتركك ولكنها لا تهمل الدعوة الثانية لقلبك.

## من فيض العيد

العيد هو يوم لقاء للمشاعر وللفكر الإسلامي الذي يفيض فيه من إنائه ويتموج وينتشر فيحتضن كل جانب... كأن كل ماضينا مستقر ومستكنّ فيه... كأن ماضينا يتكلم أو يهذي في حلمه... ثم يستيقظ ويدبّ فيه النشاط. لقد تسربت كل خصائص ومميزات عالمنا -من الماضي وحتى الآن- إلى بوتقته وإلى جوه العام، إلى درجة أننا نشعر في أعماقنا كلما أدركنا أيامه المباركات وكأننا نعيش أيامنا المجيدة السابقة. وعندما نغمض أعيننا لنصيخ السمع للأعياد، تترأى أمام خيالنا تلك الأيام التي كانت راياتنا تحفّق عالية في السماء، فنشعر بطعم تلك الأيام وبذاتها المجيدة، ونعيش مرة أخرى في صفحات ذلك التاريخ العملاق... بل نعيش -بالأصح- قِميناً وهويتنا والمعاني العائدة لنا. وهكذا نكون وكأننا نصيخ بسمعنا في هذه الأيام إلى مجموعة من الأنعام المتناسقة الإيقاع والمتألّفة من أحزان القلب ومن أفراحه.

أجل!.. نعيش في العيد من حين لآخر شعور غربة وهجران، وأحياناً يداهنا شعور لذيذ من لهفتنا إلى الوصال. وتبدو لنا بعض الأعياد حالياً وكأنها برزخ بين الفرح والحزن. فبينما تحتضن أقوى المشاعر العلوية السامية أرواحنا وتثيرها، نرى الأحزان من جانب آخر وهي تُضخ إلى قلوبنا. أجل!.. فكل منا يعيش في هذه الأيام بمشاعر متداخلة من فرح غامر ومن حزن يكاد يبكيها. ففي اللحظة التي نشعر فيها بكدرٍ وحزنٍ فقدنا -في يوم من الأيام- جناتنا، تترأى أمام أعيننا في اللحظة نفسها خيالات الفردوس الذي نؤمن بأننا سنصل إليه في المستقبل فنكاد نغيب عن أنفسنا في لجة

الفرح والبهجة. أي بينما تذرّف عيوننا دموعاً كمطر الربيع، تبدو أمام أرواحنا مناظر سفوح الجنة. أجل!.. على الرغم من كل شيء فإن الحيوية الدافقة لخيلات أيام العيد المليئة بالحسرة تبدو وكأنها تهدي لنا هدية موسم ربيع جديد ناضر حتى ولو كنا في أيام الخريف أو في أواسط الشتاء. في هذه الأيام الزاحرة بالأنوار نشعر بأننا نحيا من جديد بجزن لطيف وبانسراح عميق وبأمل عريض واسع يلفنا ويثير مشاعرنا، وفي كل مكان نرتاده ونزوره نشعر وكأن الخضر عليه السلام كان هناك قبلنا وفرش سجاده على تلك الأرض، فندخل في عالم من البعث بعد الموت.

الأصوات الحبيبة في العيد... البسمات المرسومة على الشفاه المنبعثة من الأرواح... مظاهر الإخاء التي تراها في كل مكان... إلقاء السلام على كل شخص تصادفه واحتضانك له... توسيع دائرة الإخاء بحيث تشمل الجميع... الضيافة وكرمها في كل مكان، وكأنها ولائم أعراس... ومظاهر الاحتفال في كل ناحية... يجري كل هذا أمام أعيننا ليهمس في أذاننا باسم الإخاء العالمي أشياء وأشياء.

تهفو نفوسنا إلى الأعياد، وتعتبرها ضرورة ماسة، ونحاول أن نشعر بهذه الأيام المباركة بكل عمق وبكل هباتها وهداياتها وألطفاتها... وتتصاعد مشاعرنا وانفعالاتنا بالتكبيرات والتهليلات... ويتطهر علمنا الداخلي بالاستغفار... ونلقي بفرح ونشوة جميع همومنا وأحزاننا جانبا... ونتنفس بالمدائح النبوية والأناشيد الدينية وبصور وأنواع المناجاة التي تشكل بُعدا من أبعاد ثقافتنا. وما أكثر الألحان التي نستمع إليها دون كلمات أو أبيات في هذه الأيام الخصبة الغنية! أما الذين بقوا بمشاعرهم وأفكارهم على صلة بجذور هذه الأمة وبمعانيها وبقيمها، وكذلك الذين بقوا ببنية وطبيعة أسرهم وعوائلهم مرتبطين بعالم وبدنيا هذه الأمة يحسون طعما آخر ومعني آخر في هذا الشريط الزمني الزاخر بالألوان. وسواء أكان المحتفلون بالعيد جالسين

على الفرش والوسائد في خيامهم، أم جالسين قرب مواقدهم أو مدافئهم المتواضعة، أو جالسين في ظلال أغصان أشجار حدائقهم وفي حضان بساط أخضر، أو في غرف رحبة وصلونات واسعة في قصورهم، يشربون الشاي والقهوة، ويتناولون أنواع الحلوى... في كل هذه الأحياء يفوح عطر الاحتفال بالعيد في كل مكان، وتنتشر فرحة العيد فوق جميع الرؤوس. الأصوات الدافئة والكلمات التي نسمعها في هذا الجو الحريري للعيد، تمس القلوب المملوءة بالإيمان، والمطمئنة به حتى تصل إلى أعماق تاريخنا المجيد مثيرة لدينا تداعيات كل منها بقيمة هذا العالم.

ينتهز الأطفال ساعات العيد ودقائقه المفتوحة على الجميع والمتميزة بالمساحة ليشاركوا بعواطفهم الجياشة وبأصواتهم التي تشبه زقزقة العصافير وتغريد البلابل التي تنتقل من غصن لغصن فيلعبون ويمرحون في جو العيد حتى منتصف الليل حتى ينال منهم التعب بعد قيامهم بحركات لا تخطر على البال. وهكذا يجعلوننا نعيش عيداً داخل العيد.

الأعياد أكثر المناسبات العملية لتقوية العلاقات الإنسانية، وأفضل أرضية للأذواق القلبية، وأفضل جو لنشر الحبة والتعاون والامتزاج، وأفضل مسرح لسماع أديبات الحوار والتساند. وفي ساعاته ودقائقه الزرقاء زرقاء السماء نستمتع -بجانب جميع اللذائذ الجسدية المشروعة- ونأخذ نصيبنا من موائد الفكر والمشاعر ونستمع إلى تناغم أرواحنا. أما عندما نؤدي عبادتنا وطاعاتنا بإحساس وشعور... وعندما تحيطنا التكبيرات والتهليلات من كل صوب، ويأتي العيد بطعمه الفريد، ومذاقه الخاص، وجوه التميز، وينسكب إلى أفئدتنا موجة إثر موجة، لتغرق أرواحنا بجو الآخرة... عند ذلك نشعر بأن القيود التي تربطنا مع هذه الدنيا الفانية ترتخي وتنحل قيوداً إثر قيود، ونحسب أنفسنا وكأننا في عالم آخر جديد... نحسب هذا ونرى أن كل دقيقة مستثارة بالبهجة في العيد تنزل كغيث من رحمة الله على قلوبنا

الظامئة للعيد منذ سنوات، ليغسل جوانب أرواحنا التي يبست ويرطبها،  
ويصبح سورا يحافظ على زهور الأمل المتفتحة في أعماق صدورنا، وينفخ  
فيها الحياة.

نحن نرى على الدوام أن الأعياد بالنسبة لأصحاب القلوب المؤمنة تقوم  
بإشباع أذواقهم الأخروية، وأشواقهم القلبية، ولعَمِهِم الذي لا يعرف الفتور،  
وآمالهم في الحياة الأبدية الخالدة. ومن يدري عدد الأشواق التي نصل بها  
إليها. والحقيقة أن من الصعب للمؤمنين معرفة ما تحس به قلوبهم في الأعياد  
وما يشعرون به، ويشعرون بصعوبة التعبير عنه. لأن من الضروري لفهم  
الأحاسيس التي تسكها الحياة -ضمن تجلياتها الأخروية- في الصدور  
الطاهرة، الشعور بهذه النسمات بدرجة شعور هذه الصدور والبلوغ مبلغها  
في هذا الأمر.

يتم تلمس أسلوب سحري في تصرفات المؤمنين في الأعياد، وفي  
سلوكهم المتوازن المطبوع بطابع الوقار، وفي نظراتهم العميقة، وأحاديثهم التي  
تفوح بالإخلاص حتى كأنك تستمع إلى حوار سحري من حوارات الجنة.  
أجل!! إن هؤلاء الذين يفهمون جو الأحاسيس الخاصة بالأعياد، بعد  
القيام بإيفاء وظائفهم ومسؤولياتهم، يبدوون نضجا وسعة أفق إلى درجة أن  
كل نظراتهم تحمل على الدوام عمقا ربانيا، ويحمل كل تصرف من تصرفاتهم  
وكل حركة من حركاتهم وسكناتهم جدية ساحرة، ويحمل صمتهم شيئا  
وراء هذا العالم، وبسماهم لطافة دافئة. كل واحد يأخذ -حسب درجته-  
نصيبه من سحر العيد، حيث يمكن سماع هذا من كل مؤمن وملاحظته في  
وجه كل واحد منهم. يمكن هذا لأن أغلبية هؤلاء الناس هم من الذين لم  
يتيسر لهم التعلم والقراءة ولم يتلقوا تثقيفا جديا. ولكن ترى عليهم آثارا  
غنية من مكتسبات التكايا والزوايا والمدارس الدينية الأهلية والمدارس  
الرسمية، ويملكون غنى روحيا على الدوام، ويتصرفون على ضوءه. ومعظم

هؤلاء على درجة كبيرة من الارتباط بالإسلام، ويتمتعون بدرجة كبيرة من الإخلاص، حتى كأنهم ليسوا أناسا عاديين، بل موازين دقيقة تزن كل قيم تاريخنا المجيد، ويمثلون حراسة حية للخزانة البلورية لهذه القيم المتجمعة فيها طوال عصور عديدة من التاريخ. ونحس في سلوكهم وتصرفاتهم بلذة ثمرات الجنة وبسكينة سفوح الفردوس وحلاوة مشاهدة الجمال الإلهي. نظراتهم جدية في كل شيء، وبنية تفكيرهم متينة في كل مسألة. وهذا يظهر كيف أن أعماق أرواحهم لا تزال محافظة على جذور عميقة من المعاني، مما يهمس في قلوبنا مجد الماضي وأمل المستقبل. لأن هؤلاء بتواضعهم وعزة أنفسهم وإخلاصهم وحالاتهم الروحية الممزوجة بالحزن والبهجة يقدمون أنموذجا غير موجود في الأمم الأخرى. في مظهرهم العام ترى -بجانب الألوان الخفية الناتجة عن الانتساب لأمة مجيدة ذات تاريخ عريق- صفات الأرواح التي نضجت بالقرآن من جدية ووقار. وقد لا ينتبه بعضنا لهذا، ولكن الأمر هكذا، لذا فالنغمات التي تنساب من نظراتهم وتنسكب إلى أرواحنا على الدوام تعكس أصداء واسعة في أعماقنا.

## المعاني الفياضة من المعبد

المعبد ترجمان سري يخاطب روح الإنسان وقلبه بلغة مبهمة وبيان سحري ويحاول إفشاء الحقائق العليا بكل لسان.

يشعر الإنسان في المعبد باليوم وبالأمس... بالأمس وبالأبد معا وبشكل متداخل... فكأنه يسبح في بحر واسع من فكر العبادة ومنبعها ومعناها. فإن أضيف إلى هذا اللسان البليغ للمعبد خطيب عالم ومفوه فلا يمكن تصوير مبلغ اللذة الروحية التي تصل إليها القلوب.

أجل!.. إن المعنى الذي تمس به المعابد بوقار ورزانة، المترع بالإيماءات والإشارات، عندما يتحد بصوت رخيم للدعوة الإلهية من مؤذن أودع حنجرته بإمرة قلبه... عندئذ نحس بهذه المعاني وهي تنسكب كغيث على مشاعرنا... وتملاً قلوبنا... فكأنها في النضارة أزهار وورود تفتحت للربيع... ونحس حتى أعماقنا بفرحة الوجود.

كأننا صامتون أزاء الوجود خارج المعبد... وكأن قلوبنا مغلقة تجاه ما وراء الوجود... لذا نرى المعبد كأنه مؤذن يقوم بتحرير مشاعرنا المدفونة في أعماقنا، ويجررها من السجن المظلم لأجسادنا ويوصل صوتها إلى السماوات السبع كخطيب مجلجل الصوت. فنحس في حريمه عندما يغشى الصوت الصمت، وعندما يغشى الصمت الصوت وكأن أعناقنا قد امتدت إلى السماء وإلى اللاهية.

وبنسبة تفتح القلوب للنور يثير الصوت والذكر في المعبد مشاعرنا ليقودنا من لذة إلى لذة ومن فورة إلى فورة ومن الإيمان إلى العشق، ومن العشق إلى الغداء، ويكون لنا أجنحة وريشا لنعلو إلى السماء. أحياناً يهمس

المعبد بلسان يفهمه الروح ويثير فيه الشوق إلى اللقاء... أحياناً يُسمع أرواحنا خريز أنهار الجنة، وأنغام بلابلها ويتجول بنا تحت أشجار الجنة... أحياناً يفتح لنا ممرات للوصول إلى الجمال الأزلي، ويؤسس لنا جسورا بين الدنيا والآخرة ويربط بين هذين العالمين، ويفتح أمامنا منافذ من هنا إلى هناك، ويثير فينا خيالات مبهمة.

إن ما يظهر في المعبد عند أداء العبادات والطاعات والذكر والأوراد من تكرار ظاهري في حقيقة الأمر يشبه المقاطع المكررة في الشعر والنشيد يحمل المعنى الرئيسي والمشاعر الأساسية في ذلك الشعر والنشيد. وفي كل تكرار يرى الإنسان في مرآة ما يعلمه ما لم يكن يعلمه، ويعيش ما يدركه بعقله مع ما يحسه في وجدانه في بوتقة واحدة وبشكل متداخل ومتشابك، فيحس في هذا التماثل والعينية شيئاً آخر ونضارة أخرى.

أحياناً يرتفع صوت جديد من المنبر أو من الخراب أو من إحدى المقصورات الخلفية يتناغم مع ذلك الترتيل المتكرر المنساب مهدوء ونعومة من المعبد، فنحس بأن فيضاً من الضياء والنور قد نثر فوق طرقنا وأنفاقنا وممراتنا، وتتوجه إلى بُعد آخر بإيقاع آخر وكأننا تلقينا أمراً جديداً بالتحرّك والمشى.

أحياناً تشترك وتهتف بأرواح منفصلة مع الأصوات المنسابة من المآذن والمحاريب. آنذاك يبدو المعبد وكأنه يريد ضحك كل معاني السماء وروحها وعصارها في القلوب كليل يغرد حتى يكاد ينشق، أو كحشرة زيز الحصاد تكاد تتمزق وتنقلب تماماً إلى أصوات رمزية، ولكنها لا تتمزق، بل تطفر إلى مستوى آخر من الصوت ومن النداء وتستمر دون توقف.

ونحن نحس أن هذه الأصوات المرتفعة من المعبد هي معاني الوجود وغايته وأساسه، نشعر بها وهي تفيض من قلوبنا كصرخات مدوية، فنحس وكأن قبة قلوبنا قد حُرقت أو ثقت فنكاد نغيب عن أنفسنا، وكأن النسائم

الإلهية قد أحاطت بعالمنا الداخلي، فنشعر وكأننا وصلنا إلى الشوق الأزلي للسماء مثل حزمة ضوء أو نفحة نسيم.

كل صوت يرن في آذاننا، وكل معنى يبدو أمام أعيننا ينشئ قيباً فخمة وعظيمة فوق رؤوسنا، فنجد انفسنا على عتبات أبواب مهيبة منفتحة على عالم لانهائي. في هذه الأثناء يحس كل منا وكأنه قد انسلخ من مكانه، وارتفع وفتح جناحيه فوق الجميع وفوق كل شيء، وألقى بظله فوق جماعة المعبد.

أحياناً تتوسع الحلقة التي نكون فيها يميناً ويساراً، وأماماً وخلفاً، وتنتشر وتمتد بحيث تضيق الأبعاد والمسافات حتى تكاد تتمزق، حتى ليخيل إلينا وكأننا في طواف باللذة الحقيقية للحياة، فنذكر أننا حول مطاف مجهول مع جماعة لا تُعدّ ولا تحصى من الملائكة والروحانيين والجن، فنحس بلذة الوصول إلى الغاية الحقيقية من وراء الخلق، فنشعر أننا بلغنا من اللذة غايتها التي لا غاية وراءها... ونعيش هذه المشاعر.

في كل مرة من هذه المرات التي نغمر فيها في هذه الأحاسيس التي يبعثها صوت مختلف، وكلمة مختلفة، وتأثير أداء آخر، ولهجة أخرى، يبدو لنا وكأننا نكتشف كائنات جديدة، ونشاهد صور جمال عوالم أخرى مجهولة من المنافذ المنفتحة على أعين قلوبنا، فنركض من السهول إلى السفوح، ومن القمم إلى الوديان، ونحس بحاجة إلى إطلاق صرخات الفرح والبهجة ببراءة الأطفال. وأحياناً ننطلق -بأمر مختلف من الرائد- إلى أقاليم أخرى ومشاهد جديدة، فنطوي التلال والجبال، ونسرح في السهول والوديان، ونعانق الربيع، ونشم عبق عطور الصيف، ونحیی الخريف، ونفتح أشرعتنا لربيع حديد.

يبدأ تكرر هذا المنوال على الدوام في إقليم آخر، ويتوسع في إقليم آخر مختلف، وينتهي ويختتم في إقليم آخر. أحياناً نبتعد عن أماكننا إلى درجة لا

نشعر فيها بأننا كنا معاً، ونطير - كما في الأحلام وفي الخيال- إلى مكان نريده، ونصل إلى كل ما نود الوصول إليه بكل يسر. وننطلق إلى السماء وكأننا تنتزه في حديقة من حدائقنا أو في بستان من بساتيننا، ونصل إلى أكثر الأماكن حرمة وسرية. ولكن ما أن نصل حتى ترف أعيننا -التي تقطع علاقتها تماماً مع أي نوع من أنواع الظلام- من الفرحة والحبور وكأن الوصال سيتحقق بعد خطوة واحدة فقط.

في مثل هذا الجو تهمس الأحاسيس والتصرفات، بل حتى الكلمات والاحاديث، وأصوات هذه الكلمات والاحاديث ونبراتها والألوان وتماوجاتها أموراً أخرى ومعاني أخرى لم نعهدها من قبل ولم نعرفها. هنا عندما نرتفع من الشيء المعهود إلى غير المعهود، ومن الأشياء الاعتيادية إلى الأشياء الخارقة، تصل إلينا أصوات مشاعرنا التي تتألق بصور الجمال الحي من حولنا وكأنها تقول: "هو... هو". فيزداد اضطراب نار العشق والوجد عندنا ويزداد توهجاً. وعندما تمتلئ قلوبنا بنار عشق الحبيب تعالى تنقطع كل الأصوات، ولا يبقى هناك سوى ظلال الأنوار المنعكسة من الوجود المطلق.

إن المعبد الذي نفخ الحياة في هذه الدنيا المباركة قد نكس رأسه، ينتظر من يفهم معانيه ويشرح خطوط روحه ومعارجها، وينتظر أساتذة الكلمة واللحن من أصحاب القلوب وابطالها لكي يصل إلى الأبعاد التي أنشئ لبلوغها.

لا أدري من سيقوم بتعمير المعبد الذي قطع جبل ظهره، ليرجعه إلى هويته السابقة، ومن سيفتح أمامه الآفاق لكي يهدر بصوته؟ ومن سيقوم باصلاح خلل أصوات الخرخشة الصادرة الآن منه ليؤلف لحناً يسحر الأرواح والقلوب؟ من سيعيد إلينا من جديد المعبد الذي فقدناه؟

لا أدري إن كان هذا باستطاعة المسؤولين أم لا... ولا أدري إن كان منشدو المعبد يستطيعون من خلف عصور عدة مصاحبته بأصواتهم وأنفاسهم

أم لا... هذه مسألة أخرى غير مسألة غربة المعبد المستمرة منذ عصور.  
نحن الآن نعيش منذ سنوات في أجواء حلم نرى بشارات تحققه... حلم  
جيلنا... جيل الفاتح الذي سيقوم بحل هذه العقدة المستعصية بضربة سيف  
واحدة.

## الرحلة المباركة

للهجرة منذ أن وجد الإنسان -الذي لم يعرف الهدوء والسكون والدعة منذ خلقه- مفهوم بالمعنى العام، ولزمرة الصفوة من بين الخلق، وللمرشدين الدالين على طريق النور مفهوم بالمعنى الخاص. ولها علاقة مهمة -في الوقت نفسه- بتاريخ المدينة.

أجل!.. فمن جانب نرى هذا الإنسان الذي يعاني الغربة في الطريق الطويل لدرب عمره الطويل منذ أن وُلد من بطن أمه، ثم انتقل من الطفولة إلى الشباب والنضج، ومن الشباب إلى الكهولة فالهرم فالموت؛ ومن جانب آخر نرى المرشدين العمالقة الذين ينبرون العصور بالمشاعل التي يحملونها في أيديهم... الذين يتركون بصماتهم في العهود المختلفة لتاريخ الإنسانية... والذين يرتفعون بالساعين وراءهم إلى ذرى المدينة... والذين يضيئون أرواح محبيهم بشرارات صدورهم، ويهيئوهم في إقليم الإيمان والأمل إلى الخلود... الذين يقومون بأفكارهم النيرة بعكس أنوار الجنة وألوانها وظلالها وتماوجها، ويزيلون كل الثقوب السوداء، ويؤسسون رياض الأمل ويساتينه حتى في أشد أدوار اليأس والقنوط... هؤلاء المرشدون مسافرون أيضا ومهاجرون طوال أعمارهم... هجرة لا تعرف لها نهاية أو راحة في سبيل أفكارهم ودعوتهم وعقيدتهم.

وعادة ما يتم ذكر ثلاثية الإيمان والهجرة والجهاد كأركان مختلفة لحقيقة واحدة في الذكر الحكيم. وهذا من أسطع الأدلة على ما لهذه المسألة من

أهمية، أي أهمية الإيمان ثم المحجة والجهاد في سبيله، والاستمرار في الجهاد والنضال في البيئة الجديدة وأمام أناس جدد حسب الشروط المستجدة دون أي فتور أو توقف. هذا هو ينبوع الخضر الطيب الذي يردده هؤلاء الربانيون، ويشربون منه صباح مساء. فالذين يشربون من هذا ينبوع سيمتلئون إيماناً ويقذفون بشرارات إضاءة لكل ركن مظلم. وعندما تكثر الطرق وعورة، وتكفهر الأجواء، وتسود الجاهلية، لا يفكرون في مال ولا ولد، ولا بيت أو عيال، بل يخرجون مهاجرين إلى بلد آخر، ومدينة أخرى.

ومهما كان المبدأ والدعوة سامية والفكر مفيداً وصحيحاً وأصيلاً، ومهما كانت الرسالة سنوية ومنيرة فلا مفر من قيام السامعين الجدد لها بإبداء مقاومة لها وممانعة ومعارضة، ووضع مصاعب وعراقيل أمامها. وهذا أمر طبيعي بنسبة معينة ومتوقع. لذا فإن كل من أتى بإيمان ومبدأ جديد لمجتمعه، ومثُل جديدة وعشق وأمل جديد إما أن يستمر في كفاحه في مجتمعه بشكل ظاهر أو خفي، أو يقوم باكتشاف بلاد أخرى يسقي فيها القلوب الظائمة لدعوته التي يرى أنه مكلف بنشرها وتبليغها لكونه رجل دعوة ورجل قلب وعشق.

ففي الشق والاحتمال الأول على كل فرد وهب قلبه لفكرته ومبده أن يكون حذراً غاية الحذر، وأن يأخذ كل التدابير الضرورية تجاه جميع العوامل السلبية الموجودة لكي يتجاوزها منذ البداية. وإلا لا يستحيل فقط تحقيق ما يأمله من تنوير وإرشاد، بل قد يؤدي خطأ صغير أو هفوة إلى تفاقم الظروف الصعبة، وزيادة ثقلها وضغطها، وتلبد الغيوم السوداء في السماء إلى درجة يصعب فيها العيش. ولكن من الصعب، بل قد يكون من المستحيل على جميع أفراد جماعة كبيرة تحقيق مثل هذا الأمر في كل وقت، وتطبيق هذا الحذر وهذه اليقظة. في مثل هذه الظروف يكون من الضروري البحث عن مكان آخر لاستمرار الدعوة والإرشاد. ولا سبيل آخر هناك.

من المعتاد منذ القديم أن يجد كل فكر جديد الاستنكار والاستهانة والإهانة في موطنه. ولكن كثيرا ما لقي هذا الفكر الجديد ولقي ممثل هذا الفكر الترحيب والتأييد في موطن آخر لم يعرف طفولة وشباب صاحب هذا الفكر ودعوته.

لذا كان هذا الأمر قدرا مشتركا لجميع الربانيين والمرشدين والدعاة... الإيمان والعشق أولا... ثم النضال والجهاد ضد جميع انحرافات المجتمع وأخطائه... ثم إذا اقتضى الأمر ترك الوطن والديار والبيت والتضحية بكل شيء، في سبيل السعادة الإنسانية والبحث عن قلوب مستعدة أخرى، وشد الرحال من جديد في هذه السبيل.

كل بعث جديد ونهضة جديدة وحركة إحياء جديدة تحتوي على هذين الأساسين، وعلى هاتين المرحلتين. المرحلة الأولى هي مرحلة اكتساب الفرد شخصية جديدة... شخصية ملتزمة بالإيمان، متعلقة به بوجد وبعشق، قد تجاوزت نفسها وتخطتها لتدخل في عبودية خالصة لله تعالى. والجهاد في هذه المرحلة متوجه بكل أبعاده للخلاص من دسائس النفس، والتغلب على أنانيتها وهواها، ولتجديد بنائها وإنشائها. لذا كان هذا الجهاد هو "الجهاد الأكبر". أما المرحلة الثانية فهي مرحلة إفاضة هذا الإيمان الذي أصبح جذوة متقدة في كل قلب... إفاضته كسبيل من النور على من حوالبه بمختلف موجات النور والإشعاع. وكثيرا ما ترافق الهجرة مع تحقق هذه المرحلة.

والحقيقة أنه يمكن الحديث عن هجرة قلبية وروحية في الأدوار المتعددة لهذه المرحلة. هجرة تحدث عند تحول الإنسان من وضعه السابق إلى الوضع المطلوب، ومن وضعه الهامد المتسم باللامبالاة إلى الحركة والنشاط والنظام، ومن وضعه الجامد المتفسخ إلى تجديد النفس وإصلاحها، والارتفاع من مستنقع الآثام الخائقة إلى حياة القلب والروح... هناك معنى ما للهجرة في جميع هذه الأدوار، والشخص يعد مهاجرا في أثنائها على الدوام. ونحن نرى

أن أداء الهجرة في المرحلة الثانية مرتبط بمدى أداء هذه الهجرات في المرحلة الأولى بشكل تام. فمن ينجح في الهجرة من نفسه لقلبه، ومن جسمة لروحه، ومن المظاهر الخارجية الزائفة للغنى العميق، ومن ذاته إلى ذاته ينجح في الهجرة الأخرى في معظم الأحيان. ومن لم يستطع هضم هذا تماماً، لا يستطيع أداء الهجرة الأخرى، ولا تمثيلها كما يجب.

أول من بدأ الهجرة بهذا المعنى الأنبياء العظام الذين يعدون أعمار الإنسانية وشموسها مثل إبراهيم ولوط وموسى وعيسى عليهم السلام. ثم سلك هذا الطريق المضىء فخر الإنسانية وإمامها وسيد الزمان والمكان محمد ﷺ وأبقى باب الهجرة مفتوحاً حتى يوم القيامة للآتين من ورائه.

إن الهجرة في سبيل الحق تعالى مقدسة إلى درجة أن صفة الهجرة كانت لدى جماعة المهاجرين الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل العقيدة التي آمنوا بها وفي سبيل إمامها ومرشدها أحب صفة عندهم، ومن بين جميع الصفات الأخرى حوذبوا بهذه الصفة، صفة "المهاجرين"، فما أعظم هذا المعنى! وعندما يُبحث آنذاك عن مبدأ لتاريخ ذلك العهد من بين المناسبات والتواريخ الأخرى، كيوم ميلاد الرسول ﷺ، أو تاريخ بدء الوحي، أو قيام الأنصار بنصرة هذا الدين أو معركة بدر أو فتح مكة، وكلها مناسبات عظيمة، وتعدّ كل منها جوهرة على هامة الزمن، كان اختيار الهجرة أمراً له معناه الكبير الذي يجب الوقوف عنده.

هذا وإن كل فرد هاجر من أجل مبدأ سامٍ يشعر في كل لحظة من لحظات حياته بمحسب سبب هجرته، ومحسب بمحسب مسؤولية هذه الهجرة، فينظم حياته كلها على ضوئها. كما أن تخلصه من الأنظار المتتعبة لعورات طفولته وشبابه في مسقط رأسه سيزيد من راحته ومن حركته دون أي قيود أو أي عائق، ولا يتيسر له هذا إلا بالهجرة. لأنه ما من أحد إلا وله هنات في صغره وفي شبابه يمكن أن تستغل من قبل أعدائه. بينما يكتسب بالهجرة

محيطا حديثا يكون فيه موضع التقدير والاحترام لأفكاره النيرة وتضحياته الكبيرة. وسواء أكان هذا العامل، أو عوامل أخرى فإن الأقوام التي غيرت مجرى التاريخ وأغلقت عهدا وفتحت عهدا آخر كانوا من الأقوام المهاجرة.

يقول علماء الاجتماع بأن معظم المدنيات أسست من قبل الأفراد والجماعات المهاجرة. وبحث المؤرخ المعروف "ارنولد توينبي" وكتب عن سبع وعشرين مدنية وضعتها وأسسها الأقوام المهاجرة. وهذا إشارة إلى أن الأقوام المهاجرة هي التي أسست حكمها وسيطرتها في التاريخ الإنساني طوال جميع العصور. لأنه لم يكن بمقدور أحد التصدي لأقوام يملكون مثل هذه الروح الديناميكية، ولم يتركوا أنفسهم للحياة الناعمة المترفة... هؤلاء الأقوام المتهيئون على الدوام لهجر كل شيء... والمتعودون على مقارعة الخطوب التي تظهر في أثناء نضاهم... الذين يعيش كل فرد منهم كجندي ينتظر أمر السفر والرحيل في كل حين... لم يكن بمقدور أحد التصدي لهم.

هاكم إذن أول الربانيين والمرشدين والدعاة، وأول معلمي المدنية من الصحابة. وهاكم الذين أسسوا إمبراطورية من بضعة قبائل! هؤلاء الناس الذين نزلوا كالصواعق فوق ظلام العصور، رأوا الراحة في مقارعة الصعاب، واستهانوا بالموت وبما وراءه لكي يبقوا في حيوية دافقة، ولكي يخلدوا فقد جددوا أنفسهم في ظل مختلف الشروط والظروف، وظلوا شامخين وأقوياء على مر العصور، لذا أصبحوا قوة لا يمكن التغلب عليها.

يا ليتنا استطعنا تخليص أجيالنا الحالية من اعتياد الحياة السهلة الناعمة، ومن هوى النفس، ليزينوا أرواحهم بمشاعر علوية وسامية، ليتحولوا إلى ربانيين يتحملون الصعاب والشدائد ويستمرؤنها. عندئذ نستطيع كأمة التخلص من تأثير الحسابات الصغيرة، والأذواق الخسيسة، فلا نغير اتجاهنا بسبب ضوائق أو مشاكل غير مهمة.

## الإثم

الإثم أهيار داخلي... ونوع من مخالفة الفطرة السليمة ومناقضتها... والذي يقع في الإثم شخص مسكين نكد الحظ استسلم للشيطان بكل قابلياته وبكل ملكاته الروحية، وترك نفسه لعذاب الضمير ولو خزرات القلب. فإن استمر في اقرار الإثم نفسه، فهذا يعني أنه ترك حبل نفسه على غاربها، ولم تعد لديه أي إرادة، ولا أي مقاومة، ولا أي قدرة لتجديد نفسه.

الإثم ليس إلا صفة على وجه الإرادة، وزقوم أشربه الروح. وما أحط الإنسان الذي يتلذذ بالإثم! وما أكثر تسيب الإنسان الذي دمر بالإثم روحه!..

الإثم عاصفة هوجاء تطفئ جميع الاستعدادات والمشاعر السامية المهداة للإنسان، ودخان سام يحيط بحياته القلبية من جميع جوانبها. فمن تعرض لهذه العاصفة جف وذبل، ومن تعرض لهذا الدخان احتنق ومات.

ما أن يدخل الإنسان في دائرة الإثم حتى تنقلب لديه المقاييس والموازن. فكما يكون مصير الطائرة التي لا تحسب حسابا للجاذبية الأرضية وللقوانين الفطرية هو السقوط والارتطام بالأرض، كذلك الأمر بالنسبة لمن يلج بيئة عفنة منعته يد الحكمة.

وعندما قام آدم عليه السلام بفتح مثل هذه الثغرة في حياته الشخصية، لم يستطع تجاوزها إلا بسيول من الدموع التي لو جمعتها لكانت بحرا. أما الشيطان فلم يستطع الخلاص من بئر الإثم التي وقع فيها رأسا على عقب، فكان الهلاك مصيره.

كم من شاب أهيف كغصن البان،  
وكم من أميرة وردية الخدّ،  
وكم من سلطان عظيم،  
وكم من صاحب تاج كبير...

كم من هؤلاء فتح بخطوة واحدة أشرعته لبحار الإثم ولكنهم لم يستطيعوا الرجوع أو العودة من سفرهم هذا أبدا. فالإثم يسري في الإنسان رويدا رويدا... ويداعب هواه كنسيم ويلاعبه، يتربح هناك على عرش قلبه. ثم يتحكم بمشاعر الإنسان تحكما لا يستطيع الخلاص من قبضته إلا صاحب إرادة قوية، وبعناية من السماء. والأسوأ من هذا أن المرء عندما يمخر عباب الإثم يتعد عن نفسه وينأى عنها إلى درجة أنه لا يشعر ولا يدرك مدى التغير الذي أصابه، ولا يسمع، ولا يلتفت إلى صراخ روحه، أي أن عالم الحس وعالم القلب عنده أصبح هامدا متبلدا لا ينبض بأي حركة.

الآثام متكومة على الطريق الذي يسلكه الإنسان، وهي تترقبه وترصده مثل حية رقطاء. ومع أنه من الممكن التخلص من إحداها، ولكن من الصعب عليه التخلص منها جميعا وعدم التورط فيها وهو يواصل سيره في طريقه، فهذا يحتاج إلى إرادة من فولاذ. وإلا كان هذا شبيها بسيارة قد تعطل فيها مقسم السرعات، وتريد منها أن تتجاز بك الطرق الملتوية الوعرة للجبال الشم. فمصير مثل هذه السيارة أنها تستقر في حفرة من الحفر أو في قاع واد من الوديان.

الآثام أنواع مختلفة، في مقدمتها - كما أخبرنا بها الصادق المصدوق - هذه السلسلة من الآثام التي تقشعر منها الأبدان: أن تشرك بالله، أو أن تقتل نفسا بغير حق، أو أن تعق والدك، أو أن تدلي بشهادة زور، أو أن تفر من الزحف، أو أن ترمي المحصنات من النساء... الخ.

تعد هذه الآثام انحرافات كبيرة في عالم الفكر وفي العالم الداخلي للإنسان وفي العائلة والمجتمع. فإن لم تتخذ التدابير للحيلولة دونها في أوائها المناسبهات العائله والمجتمع.

أجل! إن على الأسرة والمجتمع والوطن أن يحذر جدا من أصحاب الأرواح الفجة التي لم تهذب بالتوحيد. فأصحاب هذه الأرواح المنكودة التي اسودّت بالدخان، وصدأت حتى فقدت شفافيتها، وحل السواد محل البياض الناصع في العالم الداخلي لهم لا يتورعون - إن لم يكن اليوم فغداً - من حرق الوطن وكل شيء. ولا يمكن أبدا التهوين من مقدار الخيانات التي اقترفها هؤلاء الذين ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم ووضع عليها غشاوة فيما مضى من الزمن وفي هذا الزمن.

ولكن يجب التنويه بأننا - في المطاف الأخير - نحن المسئولون عن الذين باعوا الوطن لهذا أو لذلك، وحولوا الغابات والبساتين إلى صحارى جرداء، ونحن المسئولون عن هؤلاء الجهال عديمي الإيمان والضمير من الدمى بأيدي الآخرين الذين اقترفوا كل هذه الإساءات.

أجل! نحن الذين أهملنا ونحن الذين أفسدنا... نحن الذين جعلنا عديمي الإيمان هؤلاء لا يبالون بأي شيء... ونحن الذين سندفع الحساب... سندفع الحساب اليوم ونحن في القبضة الحديدية للحوادث والبلايا... وسندفع غدا أمام التاريخ... ثم سندفعه يوم المحكمة الكبرى... يوم لا يعزب عن ربك مثقال حبة من خردل.

إن إبعاد أمة كاملة عن ذاتها وعن هويتها، وزرع أدمغتها بأفكار غريبة عنها، وهدم محرماتها، وتحويل منبرها، ليست من الآثام التي يمكن أن يغفرها التاريخ ولا المحكمة الإلهية يوم الحساب.

إنه إنم كبير أن تُحرّم الأجيال من العقيدة، ومن الفكر ومن موازين ومقاييس الحق ومن الاستقامة، وتحويلها إلى تجمعات فوضوية وجعلها وسيلة

هجوم واعتداء. لأن المهجوم والاعتداء على الأمة وعلى أجيالها وعلى دينها وعلى ثروتها إثم كبير. ثم إن القيام بمعاينة هذه الأرواح المتمردة لا يقل عن السابق إثمها.

إن من الإثم إهمال الأجيال... إثم أن تُحوّل قلوبها وأرواحها إلى قلوب وأرواح خالية من الإيمان ومن الطمأنينة... إثم جعلها عدوة لماضيها وخصما له، وعدوة لتاريخها ولجذورها... إثم أن تحول -بأشربة أجنبية- عن ذاتها وعن هويتها... إثم أن تُحرم من نقاط استنادها المعنوية والمقدسة... أجل إنه إثم... وأيّ إثم!

ولكن هناك إثم أكبر من كل ما سبق... وهو عدم عدّ ما فعله وما يفعله هؤلاء المجرمون العتاة الذين قلبوا الساحة إلى ساحة حريق ودمار وفيضان... عدم عدّ ما يقترفونه إثمًا. أجل!.. إن كان هناك إثم لا يغفره الله تعالى ولا ينساه التاريخ فهو هذا الإثم... أيّ إن عدم عدّ الإثم إثمًا يشكل إثمًا بذاته، كما أن عدم التوقي والحشية منه أو الحذر من الاقتراب منه يعتبر رأس الآثام.

وحتى حدس ومعرفة هذا الإثم المسؤول عن كل هذه الآثام العديدة التي نخرت مجتمعا من الداخل خفية وبخبت، ثم تسليمه إلى القبضة الحديدية للمحاسبة وللمساءلة للحكم عليه، فمن الصعب توقع تجديد الأمة نفسها بنفسها، بل حتى بقاؤها حية. وصدق الشاعر محمد عاكف حين قال:

لا يعيش المجتمع من دون مشاعر،  
دُلّني على أمة تعيش ميتة المشاعر...

ثم إن القيام بالمبالغة في معاينة هؤلاء -بعد كل سوء التوجيه هذا- لا يقل إثمًا عن السابق.

## التوبة

التوبة هي تجديد المرء لنفسه، ونوع من التعمير والإصلاح الداخلي، أي إعادة للتوازن القلبي الذي احتل نتيجة الأفكار والتصرفات المنحرفة، أو بالأصح هي فرار من الحق تعالى إلى الحق تعالى، أو هي انتقال من غضبه إلى لطفه، ولجوء من حسابه ومؤاخذته إلى رحمته وعنايته.

ويمكن تعريف التوبة أيضا بأنها محاسبة للذات تحت وطأة شعور الإثم. أي قيام الذات والإرادة بالوقوف كالجليل الأشم تجاه النفس التي تريد أن تحيا حياة غير مسؤولة، وتجاه الإثم وعدم إفساح المجال له.

فإن كان الإثم تدرج غير متوازن في حفرة، فالتوبة -حسب مقتضاها- قفزة آنية للخروج منها. وتعبير آخر إن كان الإثم جرحا في الروح ناتجا عن سهو مؤقت للضمير عن المراقبة، فالتوبة هي وقوع القلب في عذاب دائم، وبدء بمراقبة جدية وبسيطرة حازمة على النفس، مما تكسب المشاعر الإنسانية قوة وعزما جديدين.

ولما كان الإثم ناتجا عن تحكّم الشيطان وتأثير من النفس، فالتوبة هي دفاع المشاعر ضد الشيطان، وجهدها في علاج عدم التوازن الذي حدث في الروح.

تقوم التوبة -بعكس الإثم الذي يؤدي إلى تآكل الروح وتعريتها- بتزيين جوانب القلب وفرش الزهور فيها بـ"الكلمة الطيبة" -التي هي أجمل الكلمات والأفكار وأعذبها- والوقوف أمام جميع التخريبات والتآكلات والحيلولة دونها. فكم تكون محاولة التوبة التي تحرك القلوب مبجلة قبل أن

يأتي اليوم الذي تشخص فيه الأبصار وتبلغ فيه القلوب الحناجر. فكم تتمنى الوصول إلى المستوى الذي نستطيع فيه بدموعنا المسكوبة تعمير وسد كل ثغرة يفتحها الإثم في قلوبنا.

أجل!.. التوبة عنوان للرجوع الرجولي، وبخلافه تكون كل كلمة باطلة، وكل تصرف خداعاً. لأنه إن لم يتم تلافي ما فات، ولم تسد ثغرات الإثم التي أحدثت ندوباً في بعض مساحات الزمن، فادعاء الندم على الذنوب التي ارتكبت دون أي دمع في العين ودون أي رجفة في المشاعر، ودون أي ألم في الروح ادعاء فارغ وبعيد عن القبول.

الآثام أنواع مختلفة وتختلف التوبة باختلاف الآثام. الإخلال بوحدة الأمة ذنب كبير. لذا يعد مرتكب هذا الإثم أكبر مجرم لدى الخالق ولدى الخلق. لذا ما كانت التوبة من مثل هذا الإثم تُقبل إلا بعد إرجاع الحياة الاجتماعية التي أصبح عاليها سافلها إلى سابق عهدها وإلى سابق صحتها ووحدها. وإلا فإن ادعاء هؤلاء - في الوقت الذي يعاني المجتمع من هذا المأزق المخيف ومن هذا الخطر الداهم - بأنهم نادمون ليس سوى الخداع وخداع. أجل إن التوبة من مثل هذا الإثم لا يكون إلا بإشعار المجتمع كله، وبكل وضوح وبكل وسيلة، الرجوع عن هذه الأفكار المنحرفة التي بذرت في كل مفاصل المجتمع ومزقته وخربته. لأن توقع الحصول على العفو وعلى المغفرة من هذا الإثم بتوبة صامته وندم سري وغير معلن... مثل هذا التوقع تعلق كاذب بالأمل، وخذاع. لأن النزاعات الداخلية ستستمر وسيزداد التدخل والضغط الخارجي الذي يستفيد من التشتت ومن الضعف الداخلي ويقوى. لأن نظام أي مجتمع وحياته ورفاهه - أي كون التوفيق الإلهي معهم - مرتبط بالتفاهم والتساند الموجود بين أفراد ذلك المجتمع وتجمعاته وأحزابه، أو في الأقل عيشتهم في سلام دون خلافات وخصومات. وعلى العكس من ذلك إن كانت هناك أمة قد تلبد أفق مجتمعا بغيوم سوداء من الخلاف والشقاق والنزاع، فعليها القيام بتوبة جماعية. ومثل هذه التوبة الجماعية متعلقة

بالتحول في موضوع العفو إلى حوارى من حوارى روج الله عيسى عليه السلام فى حياة المحبة والمغفرة والعفو والتسامح. ويتحقق هذا بمساندة كل فرد ومعاونة كل فكر بالذى يحمله من صفة الحق وأسلوبه، ومدد يد العون له، وتشجيع كل حملة خير وتقدير كل تضحية. ويتهيأ لى عدم وجود علاج أنجع من هذا لتنضميد جراحاتنا النازفة منذ عصر كامل، فليس هناك علاج مجرب وموضوعى أفضل من هذا العلاج. ويكاد يكون من المستحيل العثور اليوم على بديل آخر له.

ولكن كم من المؤلم أننا نبحث عن طرق سهلة - كمراسيم توبة فى ليلة الجمعة- للخروج من تحت وطأة وبال الآثام التى أثقلت كواهلنا. بينما إن كان هذا الطريق المختصر من التوبة والندم كافياً للآثام الفردية، فإن الأمر إن كان متعلقاً بجرائم ذات صلة بالمجتمع فهذا لا يكفى بل يطلب انتفاضة جماعية وتجديداً للنفس.

آه من مثل هذا الهروب من عزائم الأمور، وآه من هذا التوجه لكل أمر سهل ورخيص!

إن على كل مؤسسة تمثل المجتمع أن تتوب، وتكون توبتها بفهم انواع الأخطاء التى فرضتها وأهكنتها وأفلستها، والقيام من ثم بتلافيها.

وتكون توبة الكادر الإدارى بفهم وفحص جرائمه وأخطائه وذنوبه، ثم اتخاذ موقف آخر مضاد تجاهه ومعاكس، وتجديد نفسه وإحيائها. وإلا فإن عقد خمسين ألفاً من مراسيم الندامة وشعائرها لا تفيد شروى نقيير، ولا تقطع بها خطوة واحدة إلى الأمام. فتبا وألف تب لمن يرى الداء دواء، وتبا ألف تب لمن خُدد بهذا مراراً وتكراراً!

تتسامى أفراد المؤسسات العدلية والقضائية بقراراتها الصائبة والصحيحة التى ابتغت بها وجه الحق والعدل، وتكون مرشحة لأسمى المراتب الأخروية. وكل ساعة عدل منها تعد أعواماً من عمل الخير فى حقها لدى الحق تعالى.

ولا تقل عن درجتها هذه عندما تندم وترجع إلى نفسها بعد أي قرار خاطئ. ولكنها عندما لا تبالي بالحق، وعندما ترى أن الحق للقوة وللقوي، وتضحى بالحق على مذبح القوة لا تستحق حينذاك أي عفو أو توبة.

والشيء نفسه وارد بالنسبة لمؤسسات التربية والتعليم. فما دامت هذه المؤسسات محافظة على مشاعر الأمة وأفكارها ومقدساتها، ومدافعة عنها وصائنة لها، استحقت كل تجميل وتقدير. فإن روجت للأفكار المنحرفة والمشوهة سقطت إلى درك أسفل من درك اللصوص والجرمين. وما لم تعد إلى رشدها وتتخذ موقفاً حازماً تجاه الأفكار الأجنبية والمخربة، فلا تقبل منها توبة، ولا مغفرة لها.

أما جميع المؤسسات السياسية، والأفراد والجماعات غير السياسية، وكذلك المفكرون والكتّاب والمرشدون فإن انحصر اهتمامهم ومحبتهم لأنفسهم ولجماعتهم فقط، وقاموا بإظهار الخصومة والعداوة لأهل الحق من خارج حلقاتهم، أو خارج نطاقهم، فهم في إثم كبير، ولا سبيل أمام كل فرد منهم إلا طرق باب التوبة، والتوبة هنا فرض عليهم أيما فرض.

أجل!.. فعلى جميع هذه المؤسسات والأفراد أن يراقبوا أنفسهم مرة أخرى عن كتب، فيروا نصيبهم من الإهمال والأخطاء والآثام ضمن سفينة الأمة الجانحة التي يركبوها، فيحاولوا بكل وسعهم تلافيتها. فهذا واجبهم الذي لا يمكنهم إهماله. وإلا كان ديدن هؤلاء حتى اليوم البحث عن الأخطاء خارجهم، وخارج جماعتهم. فإن استمروا في البحث عن معاذير لآثام الآخرين وتشويه سمعتهم، فليس بعيداً أن نتعرض إلى مصائب ومشاكل لا نستطيع حملها أو الصمود أمامها.

أجل!.. لقد كان أوحى آثامنا أننا رأينا الآخرين مذنبين، ورأينا أنفسنا أبرياء على الدوام. ولكوننا لم نتخلص من هذه العادة ومن هذه العقلية، فقد فسدت الأجواء الاجتماعية وقست، حيث تسارعت وتائر الانقسام

والتشرذم. لذا كان على جميع من لهم علاقة بمصير هذه الأمة وقدرها من الناحية المادية أو المعنوية، وعلى جميع أصحاب الأرواح المخلصة الذين نذروا أنفسهم لهذه الأمة أن يعترفوا بذنوبهم ويتوبوا.

وعلى الذين يسعون لاهتين وراء المناصب... الذين على أعينهم غشاوة من حبهم المحصور على حزيم، وفي آذانهم صمم... الذين تركوا بأفكارهم الشاذة الأجيال الصاعدة دون قلب ولا روح... الذين يرون بطغيانهم وجبروتهم أن الحق للقوة، والذين أعلنوا الحرب على كل ما يخالف أفكارهم حتى وإن كان من مصدر إلهي... الذين لا يرون ولا يدافعون إلا عن مصالحهم ومنافعهم... الذين لا يرون بأسا من أي تزوير أو كذب أو خداع وتدليس... الذين يرون كل وسيلة مشروعة من أجل الوصول إلى غاياتهم وأهدافهم... الذين يتقلبون ويتلونون مع كل عهد... على كل هؤلاء أن يتوبوا إلى رشدهم وأن يعلنوا للمرة الأخيرة عن توبتهم باسم الإنسانية وأن يجددوا قسمهم ويمينهم عليها.

مأ أسعد من أدرك ذنبه فأسرع بالتوبة!.. وما أسعد من كان صلبا لا يتهاون مع نفسه، وليّنا ومساحا مع الآخرين من أهل الحق!

## عندما تنبض القلوب برقة

تقوم الأيام والليالي المباركة بإعطاء كل شيء ولكل شخص طعمها ولونها ونكهتها الخاصة بها. وتضيف إلى كل شيء رفقا وليونة، وتسوقه إلى عالم من الخيال، وإلى أعماق تتجاوز تصوراتنا. ففي كل مكان... في السوق والمدرسة... في المعبد والمعسكر... يُحدس سريان سحر عميق في سماء المؤمنين، حيث يبرق جو الآخرة، وتلمع الحجة الإلهية في العيون. وفي ساعات الليل بالأخص تبتسم الأضواء الملونة في عيوننا، وتلمس لنا نغمات بُعد آخر من أبعاد الوجود. وكل وجه نراه في البيوت أو في المعابد أو في أماكن العمل يبدو لنا وكأنه يعيش رحلة وصال وعشق ممض، ويتموج من حين لآخر مع الأماني والآمال، ثم يتحول إلى شلال من العواطف التي تجري لتصب في اللانهاية.

وكلما فارت مشاعر العبادة والطاعة في أنفسنا تفور معها قابليتنا في العيش والشعور بالأشياء على نحو آخر، وتسحبنا إلى أغوارها البعيدة. في مثل هذه اللحظات والأوقات تضعف روابطنا الجسدية والجسمانية، وتتخلص أرواحنا من همومها ومشاغلها اليومية، ونحس أننا ارتفعنا وسمونا إلى ذروة نراقب منها الوجود بأكمله. هنا نقوم بحب واحتضان كل شيء... الجبال والسهول والأودية... البيوت التي نشأنا فيها... بيوت العبادة التي همينا في جوها للآخرة... نحتضن ونحب كل شيء ونعب منه وتنفسه... الحي منه والجماد، لأن كل شيء وجه من وجوه الجمال الذي خرج وانساب من يده تعالى.

في هذه الأيام والليالي التي تولد كطوفان من النور، يظهر نوع من العشق والمعرفة اللدنية في أحوال المؤمنين العامة عند قيامهم وقعودهم. والأشواق الروحية التي تتغذى بالإيمان وبالمعرفة وبالعشق تتجاوز وتتقدم على جميع اللذائذ والأذواق المادية، ويبدأ كل واحد بالتوجه نحو أفق مقدس من المعرفة حسب ما يملك من قابلية للعرفان. وفي هذا الطريق يصل في نهاية المراحل التي يقطعها في كل يوم إلى وصال صغير ليتوج به سفره المبارك هذا. والذين يغذون أرواحهم كل يوم بمثل هذا الوصال، ومن الخيالات المتداعية المترافقة لجميع هذه الوصالات وللوصال الكبير، ومن أنواع الجمال المتدفقة إلى مشاعرهم، ومن براعم الأمل النابتة في صلب عبادتهم، ومن الأذواق الروحية التي يحصلون عليها من المعاني الهادرة من القلوب والعيون المؤمنة، يرجعون لأنفسهم، وينغمرون مع هذه المعاني في صمت مهيب، حيث يدعون أنفسهم لأحلام الوصال الكبير الذي سيتحقق في ذلك العالم الآخر، ويتخيلون أنفسهم وكأنهم يسبحون في نهر ساحر، وأنهم أبحروا إلى ما فوق الزمان.

هؤلاء السعداء الذين وصلوا إلى بحر السعادة واللذة والشوق الذي يبحثون عنه، يحسون في كل آن، ويرون أنواعا من الجمال اللدني الساحر في منافذ قلوبهم، والأزهار المفتحة التي هي من تجليات نظر المحبوب ﷺ، ويحسون بها وكأنها حزم منعكسة من جماله... يحسون بهذا فيتخيلون وكأنهم في حديقة عامرة بأنواع الثمار والفواكه، وبأنواع الزهور والورود... والنسيم الرقيق يهب عليهم من كل جانب... وكلما قطفوا ثمرة أو وردة أحسوا بدفء الأمل في الألفاظ التي يعدها المعبود تعالى- الذي عبده طوال حياتهم، ووضعوا جباههم على عتبة بابه- لهم في المستقبل، فيكادون يغيبون عن وعيهم... كأنهم يجردون بموجات من نسائم وعود- في بُعد آخر غير هذا البعد الدنيوي- لبعض النعم التي لم يصلوا إليها، وبعض المكافآت التي لم يحصلوا عليها، فيحسون في عالم مشاعرهم وكأنهم يحتضنون الرحمة والشفقة

العميقة والأزلية للرحمن الرحيم. وضمن هذه الحالة النفسية والروحية يحسون بالحياة بشكل مختلف، ويجوبونها بشكل أعمق، ويحتضنون بكل لطف ورقة كل شيء مرتبط به تعالى.

الرجال والنساء... الشباب والشيوخ... العالمون وغير العالمين... العارفون وغير العارفين... ترى في أحوال كل هؤلاء وفي تصرفاتهم في ليالي هذه الأيام المباركة وفي أنهرها ظرفا يفوق ظرف ما جاء في الأساطير وفي القصص، حيث يلتحفون بالجمال المعنوي لهذه الأيام المباركة، وتصطبغ وجوههم بمهابة الإيمان على وجوههم وهم يتطلعون إلى الأضواء الآتية من وراء أفق هذا العالم، ويخلفون وراءهم في كل شيء لوهم ورائحتهم، وينتقلون في أعماق مشاعرهم إلى عالم الآخرة، ويدوبون فيه ويكادون يقتربون من الملائكة. ويكاد الإنسان يلمح في وجوههم بسمات أضواء القناديل المضاءة في الأزقة وبين مآذن الجوامع ونظراتها ومشاعرها المنثورة مثل اللآلئ، فيخيل إليه أنه يرى أمامه الوجوه المباركة للأصفياء الموجودين في خياله.

أجل!.. قد يكون أصحاب هذه الوجوه الصبوحه -التي يتماوج فيها الإيمان والعشق والرغبة ولذة الوصال- والمشتاقون والمعجبون والسعداء صامتين، ولكن المعاني المنبثقة عن أرواحهم، والمنعكسة على سلوكهم وأطوارهم ونظراتهم تبدي بعدا لاهوتيا يصعب الوصول إليه، ويكاد يسحر الموجودين حواليتهم ممن يملكون ما يكفي من رهافة الحس.

يتخلص بعضنا في مثل هذه المواسم من الحدود الضيقة للمنطق فيدع نفسه في يد الفرح والانفعال والبكاء وكأنه قد دُعي للعالم قدسي... ويتخيل بعضنا بأنه قد تمياً لسفر بين النجوم وأنه يسابق الشمس والقمر، ويحسب أن أنفاسه تحتلط بأنفاس الملائكة، إلى درجة أن قلوبنا تلين إلى أقصى حد، وتدمع أعيننا، ونشعر بأن العديد من عُقدنا التي نحس بوجودها في أنفسنا قد

لانت وانخلت. أما دموعنا المنسكبة فتبدو وكأنها تطهر جميع العقد الموجودة في أعماق أرواحنا، وتهب الراحة والاطمئنان لضمائرننا.

يبدأ كل واحد منا - حسب سعة المعاني التي تملأ قلبه - بالإحساس بمعان عميقة لم يكن بإمكانه الإحساس بها من قبل، وذلك بسبب الضغوط الجسمية والمادية عليه. يشب الشباب بعواطف قوية كأنهم يدفعون ضريبة الشباب والعنفوان... أما الكهول فيحاولون أن يكونوا أكثر عطاء وكسبا استنادا إلى ما اكتسبوه من حيلة من تجاربهم الروحية والمعرفية... أما الشيوخ فتهتاج عندهم مشاعر التهيؤ للأبدية وللعودة الأبدية التي تنتظرهم، وللعالَم الذي تطير فيه الأرواح... أي يفتح الجميع عيون قلوبهم ومنافذها، فكأن كل واحد يستمع إلى ما لم يسمعه جيدا من قبل حول قدره ومصيره. يفرح لحظه الحسن، أو يغتم لحظه النكد، ثم يتطلع ويرمي بنظره بأمل إلى المستقبل، وتعمق في وجوههم خطوط المعاني. أما الأصوات المرتفعة من المآذن والجوامع المعلنة للشعائر الإسلامية فتزيد الجو العام لذة أخرى وغنى آخر، إلى درجة أن كل شيء... من الريح التي تهب، ومن المطر الذي ينهمر، نحس بأنه يحمل عطر نفحات إلهية تمس وجوهنا، وتترك في قلوبنا إكسير الخلود. أما نسيم السحر... آه من نسيم السحر!.. إنه يهب كنفَس من اللانهاية، ويثير قلوبنا ويجعلها تنبض بقوة وكأنه يحمل لظفا وفضلا، لأن هذه الدقائق السحرية التي تتوجه فيها نحوه تبدو لنا - بفضل إيماننا وعشقنا وآمالنا - وكأنها عصارة الحقيقة الأبدية، فتنسكب على قلوبنا، وتبت في أعماق أرواحنا براعم فواكه شجرة طوبى، وتأخذ بيدنا لتجول بنا في سفوح الجنات.

الله تعالى جميل وصاحب لطاف على الدوام. ولكننا لا نشعر بعمق هذه المعاني إلا في أوقات معينة. أجل!.. ففي مواسم معينة والتي نعدها ربيع أرواحنا يجذب تعالى جميع عواطف قلوبنا، وجميع مشاعرنا نحوه، ويجعل من

جماله وسحر جاذبيته قوة لا تقاوم، ويجيئنا في كل آن وأوان بلطف جديد منه. وأنا لا أتصور وجود أي لذة تعادل مثل هذه اللذة الحاصلة عن هذا الطريق في هذه القلوب المباركة... لا أتصور هذا، لأن مثل هذه اللذة الروحية تنبع من العشق الإلهي لدى الإنسان ومن الارتباط به تعالى، ومن موجات الإحسان لصاحب الرحمة اللانهائية وألطافه. وهذه الألفاظ والإحسان منه تعالى يكون لانهائيا ودون حدود بقدر ومقياس عشق الإنسان وإخلاصه، وكونه صادرا من أعماق قلبه.

## الشهر المائل بالمغفرة

إن كان هناك شهر لا تنتهي نشوته، ولا تنفذ بهجته، ولا يبلى الوحد عنده فهو شهر رمضان. إن أيام شهر رمضان ولياليها التي تقدّم لنا بأعذب لغة لُبّاب وجوهر جميع المواسم والشهور العطرة للسنة وروحها ومعناها الحقيقي، وما يترشح منها من عصارة، تحيط كل لحظة القلوب بعدوية وسعادة وبهجة لا مثيل لها، وتحتضنها بحنان وشفقة، وترتّب عليها بكل محبة، وتستجيشها بأشواق الحياة.

إن أيام رمضان في كل أرجاء العالم ولا سيما في البلدان الإسلامية وبين المسلمين، وبالأخص في دنيانا وفي جونا وعالمنا تكون مركزاً لكل الاهتمامات، وميداناً لجميع الأذواق الروحية، ومسرحاً لجميع العواطف الجياشة، وعموداً حلزونياً من النور للتسامي، وفرصة لتطوير كل الخصائص الإنسانية وتوسعتها وتطوير مزاياها.

إن أيام شهر رمضان الذي يطلع كل نهار فيه وكل ليل بمشاعر مختلفة... إن أيامه تمس القلوب بروح جديد، وبرفق قبل الرحيل، وتجمع أشتات المجتمع وتلملمها في بوتقة واحدة، وتفتح طريق الجماعة أمام المنزولين، وتزيل الغربة عن قلوبهم، وتقدم للجميع وليمة فكر ومشاعر مختلفة الأبعاد، وهيؤهم للحياة من جديد.

يتضمن كل شيء في شهر رمضان بالعطر والنور... بدءاً من الكتابات

بين مآذن الجوامع<sup>(١)</sup> إلى القناديل الموحدة على يمين وعلى يسار الطرق المؤدية إلى المساجد، إلى مصابيح بيوتنا، إلى الظهر البادي في وجوه المؤمنين، إلى النور في القلوب. أما أوقات السحور التي تهبّ عليها نسائم السحر في هذه الأيام التي يسترجع فيها الدين شبابه، والإفطار الذي يكون مظهراً لألطف سرية... فهي أوقات ذات طعم وذات ضياء خاص ولهجة خاصة تخالط القلوب. ولا يصل إلى مرتبة هذه السعادة سوى العشق الذي يطير بأجنحة أمل الوصال... كأنه كان هناك ستار بين الإنسان وبين شوقه إلى اللاهية حتى مجيء شهر رمضان، وكأن هذا الستار ينفرج بالصوم. وكأن العشق والشوق اللذين كانا في غفوة في ركن من أركان القلب حتى تلك اللحظة يستيقظان فجأة، ويفوران ويستوليان على كيان الإنسان، وينقلبان إلى رغبة لا تقاوم في الوصال. وفي سبيل تحقيق هذه الرغبة المقدسة يحاول الإنسان اغتنام التحليات التي تهبّ في أوقات السحر، وتقييم أوقات الصلوات التي هي منافذ تنتظر الإنسان لمشاهدة آفاق وراء أفق الدنيا هذه. وفي صلوات التراويح تفور المشاعر وتتصاعد بالروح والريحان، وتعب الأرواح من النفحات الإلهية كؤوسا بعد كؤوس، فإذا بكل واحد - كل حسب درجته - قد انقلب إلى شخص أخروي، واقترب من طهر الملائكة.

ونظراً لكون شهر رمضان شهر القرآن يجد الإنسان - حتى الذي ابتعد عن القرآن طوال السنة - نفسه الضامنة في الجو النوراني للقرآن... عند ذلك تنهمر عليه المعاني والأسرار القرآنية وألطفها، وتسقي كل وديان نفسه وروحه التي أوشكت أن تجفّ وتيبس، وتقلب عالم قلوبهم من أدناها إلى أقصاها إلى بساتين وحدائق زهور وورود، وتبعث فيهم فرحة الوجود، وتجعلهم يسمعون بالقرآن كل عالم الوجود ويجسون به، فيرتفعون بهذه

---

(١) في أيام شهر رمضان يقوم كل جامع في المدن الكبرى في تركيا بكتابة عبارات الترحيب بالمصابيح الملونة لهذا الشهر بين المآذن. (المترجم)

الأحاسيس والأفكار ويسمون... يحسون بأن الوجود كله والخلق كله يتنفس بالقرآن، فيرتجفون ويرتعشون ويكادون يغيبون عن أنفسهم. وفي أحيان كثيرة تنهمر دموعهم على خدودهم، ويشعرون بأن الستار يرتفع، وأنهم أصبحوا أقرب إلى مولاهم وخالقهم من كل قريب، فيحسون بلذة لا يستطيعون وصفها.

إن فهم المحتويات اللدنية للقرآن لا يتيسر إلا لمن يسمع في القرآن صوت الوجود كله، ويستمع في أعماقه إلى كل موسيقى روح الإنسان من خوف وأمل، ومن حزن وفرح، ومن غم وبهجة. والأرواح السامية المتجاوزة للزمن التي تستمع إلى القرآن وكأنه أنزل عليها تجد فيه لذة فواكه الجنة وألوان وجمال حدائق الفردوس، وأثمار وشلالات سفوح الريان ومناظرها، فتتوحد وتنساب معها. وأصحاب القلوب الصافية الذين ينكبون على القرآن في الأيام الشفيفة لشهر رمضان، وبمقاييس القلب المملوء توقيرا واحتراما، وينزلون إلى أعماقه، يصلون كل لحظة إلى قيمة مختلفة من قيم الآخرة، ويتعرفون في كل آن على بعد آخر من أبعاد البقاء. المادة في فكر هؤلاء وفي حياتهم تكمل ما وراء المادة، ويكون المعنى هو المحتوى الحقيقي للمادة وقيمتها، ويظهر كل شيء بقيمته المتخفية وراء الأستار. ترى في أوجه هؤلاء -لكونهم متهيين لاستقبال تجليات الأسماء الإلهية وصفاتها- قابلية خفية للحدس، وفهما متميزا وفريدا، ونضجا وكاملا متأتيا من امتزاجه بالقرآن والبكاء عند تلاوته، وارتباطه بالآخرة، وصفاءً وغنى وصدقا وإخلاصا ولطافة مزينة بالأذواق الذهبية للإيمان، وجاذبية وسحرا ومروءة وشهامة. وحتى لو لم ينطق هؤلاء أو يتكلموا فإن هذه المعاني تبدو وتظهر وتطفح على السطح من سلوكهم وتصرفاتهم وأطوارهم ونظراتهم وتنعكس وتجد صداها فيما حواليهم.

لا يوجد شهر آخر مليء بالقرآن، يكون ليله بهذا النور، ونهاره بهذا

الضيء المضمخ بعطر القرآن. والإنسان في كل شهر رمضان جديد يرى من جديد نضارة القرآن ونبعه الآتي من وراء السماوات، وما يحويه من زينة المعارف الإلهية، وإشارات المنبثة في أرجاء الكون وأرجاء المكان. فيفور عنده العشق الإلهي، ويرى ويسمع ويجلس آثاره التي تبرق في وجوه المؤمنين به. أجل!.. ففي شهر رمضان يبرق القرآن ويلتصع في هذه الوجوه المضئئة التي نحتها القدر، وفي هذه العيون التي تبرق بأعمق المعاني المتعلقة بالآخرة. ونرى الجميع رجالا ونساءً... شيوخا وشبابا... فقراء وأغنياء... عامة الناس وخاصتهم... علماء وأميين... نراهم وقد أخذوا - من ناحية طراز المعيشة والحياة - نصيبهم من هذا الجزء من الشريط الزمني فامتزجوا بشهر رمضان وتشربوه وتنفسوا به.

أجل!.. كل إنسان - حسب قابليته واستعداده - يصعد به إلى بعد آخر، ويتخلص من العديد من الرذائل التي تحط من قيمة الإنسان، ويتطهر من الأدناس والأوساخ المعنوية، ويزداد نورا ويكون أهلا للجنة. إن شهر رمضان يُمِنُه وبركته غنيّ إلى درجة أن كل من يلتجئ إلى ظله يستفيد من ثروته وغناه، ويستطيع الوصول إلى سلطنة الآخرة شابا كان أم شيخا... مؤمنا قويا كان أم واهنا... ذكيا كان أم أحمق... عاقلا كان أم مجنوناً... عارفا بما وراء الأستار أم جاهلا به... مؤهلا كان للعمل أم غير مؤهل... مؤسوساً كان أم مقداما لا يبالي بشيء... مخلوقا لكي يكون حاكما وزعيما، أم مخلوقا تابعا ومحكوما... صامدا كان أمام جميع المصاعب، أم فرقا يسقط من أول هزة... متشائما يئنّ طوال حياته أم محتفظا بأمله حتى وهو في جهنم... طفيليا كان ومعتمدا على الآخرين طوال عمره أم صاحب إرادة لا يفلها الحديد أمام جميع المصاعب والهموم... أم إنسانا خطط حياته للأكل والشرب والنوم والراحة والكسل فقط. أجل!.. كل هذه الأصناف المختلفة بعضها عن بعض لا بد أن يستفيدوا من الجو النوراني لشهر رمضان

وإن كانت الاستفادة بمقاييس ودرجات مختلفة، ويتغير شيء فيهم كل حسب حاله ويتميزوا، حتى يصلوا إلى حال وإلى مرتبة أخرى.

إن جمال شهر رمضان ونورانيته في العيون المتفتحة لهذا النور، وعظمة معنى الوجود التي يحتويها، تجد صداها السرّي ضمن أطراف معينة وبدرجات مختلفة على هذه المجموعات المختلفة، بروح وطعم وجو ومعنى خاص بهذا الشهر، وتسري في القلوب سريانا لا تستطيع أكثر الرؤوس عنادا أن تقاومه بل تستسلم له.

ليالي شهر رمضان التي تلف بأسرارها كل شيء تكون مؤنسة وحلوة، ونهاره الذي يحتضن مشاعر الإنسان وأفكاره بلطف وحلاوة يكون دافئا وحريري الملمس... تكون الصدور المؤمنة فوارة بالمشاعر العميقة... والأصوات الداعية إلى الله تنضح بالحنان... والمعاني التي تعبر عن كل هذا مؤثرة إلى درجة أن الذين يستطيعون فتح صدورهم وقلوبهم لشهر الغفران هذا يبتعدون -ولو بشكل مؤقت- عن القلق والهموم ويشعرون بسعادة الجنة.

## العيد السعيد

حينما تُقبل الأيام على بلدي...

يكون ذلك اليوم عيدنا...

العيد يوم فرح وسرور، ولا سيما للذين يدركون معناه، ويبدو الناس في الأعياد وهم سعداء ومطمئنون، لكونهم أصبحوا مظهرا للعفو الإلهي، وتخلصوا من تبعات أخطائهم وذنوبهم، ولكونهم يعيشون الماضي والمستقبل معا بشكل متداخل.

كل عيد ييثر في الأرواح اطمئنانا، وتتداعى سلسلة من ذكريات البشر والسرور على سيماء الوطن، ليصل إلى الكمال. والسعادة التي تنبعث من تداعي هذه الذكريات في القلوب في الأعياد قد تفوق بألوانها وعمقها بشر هذه الأيام وسرورها وزينتها.

في مثل هذه الأيام نضع الماضي والمستقبل معا في خيالنا... نقبل أيدي آبائنا وأجدادنا العظام... والوجوه النيرة الحلوة لأحفادنا... فنشعر في قلوبنا بسعادة لا توصف للماضي وللمستقبل. ومع أن أصحاب الأنفس المتشائمة، والقلوب السوداوية لا يفهمون معنى هذا فإن جميع ألوان غبطة الماضي الجيد، وكل الآمال العريضة للمستقبل تشكل بكل ألوان الطيف إكليلاً فوق رؤوسنا ونحن نعيش احتفالات هذه الأيام.

أجل!.. فأبي سعادة يمكن أن تضاهي سعادة تأمل لوحة الماضي بكل عظمتها، مع المنظر الأحاذ للمستقبل في إطار واحد!؟.

إن روح الإنسان -من ناحية المشاعر والفكر- يستطيع الإحساس بنشوة الأذواق القلبية العائدة للماضي وللمستقبل ويعيشها مثلما يعيش لحظات أذواقه الحالية، فيتجاوز الزمن ويدرك العيد ويمس به كأنه طار بأجنحة إلى أبعاد أخرى. ويختلف العيد المُدرَك بهذا المعنى تماماً عن بيانات التهئية والمعابدات الروتينية المذاعة في هذه الأعياد. فالعيد عند أصحاب هذه المعابدات يوم باهت بعيد عن الحياة ومعزول ومنبَتّ عن الماضي وعن المستقبل، وكأنه مجرد يوم توزع فيه الحلويات على الصغار.

يأتيني كل عيد بزينة المستقبل الملونة بأنواع الألوان، ويعكس في قلبي - قبل رحيله- أحلى لوحات الماضي وأروعها. فكم تملأني النشوة عندما أشاهد بعين الخيال الأجيال السعيدة القادمة التي وصلت إلى مرتبة العرفان من الناحية المادية والمعنوية، ورهفت مشاعرها، وتوحدت مع أرواحها، وتعانقت بعضها مع البعض الآخر... أتخيل جيلاً ملاً العلم عقله... وملاً الإيمان بالخالق العظيم وحبه قلبه... وامتلاً بحب الوجود... ووصل إلى ساحل الاطمئنان. هذه المشاعر التي تسكبها هذه الخواطر في قلبي أحسها في أعماق وجداني، فأعيش دقائق لا مثيل لها. وفي ذلك الإقليم والجو الخيالي أرى الكهول وقد ارتقوا إلى مستوى الإنسانية الحقة... والشباب وقد أجموا أهواءهم... ووجوه الصغار -الشيبة بزهرة الشمس- وكأنها تنورت بسنا ألوان وأنوار منهمرة عليهم من فوق... والنساء اللاتي هيأن كل هذا الجو الساحر... أتخيل هذا فأحس بالسعادة وهي تسري في كل مفصل من مفاصلي، وفي كل عرق من عروقي.

في ذلك الجو أتخيل إدارة الدولة وكأنها مودعة في أيدي أحكم الأشخاص وأكفئهم، الذين يتناولون كل شيء بدقة وبحساسية من يقوم بالتطريز... إدارة ترى فيها الرعايا والرعاة المرشدين العارفين في صف واحد في تلاؤم وتناعم... هذا هو ما أتخيله لسيناريو المستقبل... وقد تفتحت

ورود العدالة في كل مكان. أما الظلم فضعيف هزيل لا حول له ولا قوة...  
لا ترى لظالم صولة أو جولة، ولا تسمع أنينا لمظلوم.

تمر المدارس في خيالي في العيد وقد أصبحت مختبرات لحل أسرار الكون  
وطلاسمه، حيث أرى هناك أساتذة عمالقة يهيمون طلابهم لفك أسرار ما  
وراء السماوات... أساتذة ترى الوضوء في وجوههم، والإخلاص في  
قلوبهم، والاستقامة في تفكيرهم.

في الأعياد أتخيل كأني أسمع طبول الغزو في الثغور... وتطرق سمعي  
أصوات جيوش الفتح وأصوات مدافعها... أصوات جيوش الفتح التي  
تصدت للأخطار لتأسيس توازن بين الدول، وضحت بأسباب الراحة  
والدعة وكل مباحج الحياة.

يتفتح في قلبي في كل عيد جميع ألوان الأناشيد والتكبير. وفي كل عيد  
ينتشي روحي بإلهاماته وبالذكريات التي يحييها في قلبي، فأحس وكأنني قد  
تظهرت وتجددت تماما، حتى أتمنى لو أن كل الأيام كانت أعيادا.

قد يبدو هذا للبعض ضربا من الخيال. بينما يرى فيه البعض الآخر مُثلا  
سامية سبق وأن كانت لها آلاف الأمثلة، وتفسيرا موجزا للحقيقة أزلية خالدة  
ظهرت بوادرها في أفقنا منذ زمن.

## الوجه الآخر للموت

ينظر العديد من الناس إلى الموت وكأنه نوع من العدم والانقراض وتفتت وتحول إلى تراب، لذا لا يحاول هؤلاء مواجهة الموت أبداً. وكلما ظهر سبب من أسباب الموت كالمرض والشيخوخة والحرب وحوادث السيارات والزلازل نراهم يرتجفون خوفاً وهلعاً من المنظر الذي يرسم أمام مخيلتهم حول وحشة القبر، مما يقلب حياتهم إلى عذاب لا يطاق. أجل، يحسب هؤلاء أن الإنسان عندما يموت ينتهي كل شيء بالنسبة له، حيث يرقد جسده في اللحد ليتحول إلى تراب، ويضيع كل شيء في ظلام العدم. وبعبارة أحد الشعراء:

لن تسطع الشمس بعد الآن،

أما أنت فتم بسكون وراحة،

فالموت نوم ما له من نهاية...

من الواضح كم يقاسي الإنسان ويتألم من مثل هذه الفكرة، وهو المخلوق المرشح لحياة أبدية. وكل من يستمع لصوت وجدانه يسمع هذا الصوت وهو يهتف به ببيت من أحد الشعراء:

لو ملكت الدنيا كلها بقي سؤالي،

لماذا لا ينتهي حزني وغمّي؟

وهو أمر مهم يجب الوقوف عنده وعدم إهماله. بينما الموت ليس عدماً أو انقراضاً ولا تفتتاً وتحللاً، ولا فناءً، ولا نهايةً. كما أن القبر ليس حفرة يتم

فيها التحول إلى تراب، ولا مكان وحشة ووحدة. والحقيقة أن الموت عندما خلق وأوجد لهذا الإنسان المخلوق لحكمة وفي ظل خطة وبرنامج معين، إنما خلق لنقله من بُعد معين إلى بعد آخر ضمن هذا البرنامج وهذه الخطة. وتعيّر الإنسان من حال إلى حال ودخوله - حسب ثمرات أعماله - إلى مرحلة مختلفة ورجوعه إلى وطنه الحقيقي ودار إقامته الأبدية، ولقاؤه الأرواح الصالحة - طبعا حسب عقيدته وعمله - في ممرات الوصال المتداخلة، ومثوله أمام خالقه دون كم أو كيف، ونيله رضوان الله... لا يتم كل هذا إلا بالموت. كذلك لا يعدّ القبر بئرا مظلمة ولا حفرة محاطة بالعدم كما يُحسب ولا غرفة سجن وعزل، بل هو باب مفتوح لعالم مضيء، وممر ينقل الإنسان إلى عوالم نورانية، وموضع انطلاق لارتفاع الروح إلى عوالم أخرى سامية وعالية. والذين أمّوا مهمتهم أمام الشاهد الأزلي الحق تعالى، أو الذين أمّوا خدمتهم في هذه الحياة الدنيا مثل جندي تسرّح من الخدمة، والذين أمّوا - في ظل شعور عميق بواجب الدعوة والخدمة الإيمانية - إيمانهم بالعبادة، ووصلوا بعبادتهم إلى درجة الإحسان، وتهيأوا لاستقبال الحياة الأبدية يبرون من هذا الممر - ممر الموت - ليصلوا إلى سعادة لم تشاهد مثلها عين ولا سمعت بها أذن ولا خطرت على قلب بشر.

أجل!.. إن الموت يعني بالنسبة لنا دوما مكانا ذا أبعاد عديدة، وزمانا ذا أعماق يتحول فيها الروح، ويحمل معنى التسريح من وظيفة العبودية، والأوان الذي يقول فيه الحق تعالى لعبده: "لقد آن لك أن ترجع لي بكليتك". والذين يعرفون الحق تعالى حق المعرفة، ويجبونه حق الحب يدركون أن في نداء طلب العودة هذا فضلا كبيرا: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾ فَاذْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠). والروح الذي يتلقى هذه الدعوة لا يستطيع الانتظار دقيقة واحدة في الدنيا لأن معنى هذه الدعوة هو:

تعال أيها الروح... تعال... أن لك أن تغادر هذه الدنيا الضيقة...  
تخلص من جوها الكئيب الخانق... ارجع إلى الجنة التي فقدتها... ارجع إلى  
الوطن الحقيقي لك.

والذين يفهمون الموت بهذا المعنى، يدركون أنه فضل ونعمة، وأن المجيء  
إلى الدنيا كان لأداء مهمة معينة وأداء خدمة فيها كالخدمة العسكرية، وأن  
فراقها يعني التسريح من هذه الخدمة، وأنه ولادة ثانية ليستيقظوا في حياة  
أبدية لا تزول ولا تنتهي، لذا يمضون نحو الموت برباطة جأش ودون وجل.  
وسيان عند هؤلاء صداقة عزرائيل وصداقة إسرافيل. وفي كل لحظة من  
لحظات رجوعهم إلى الله تعالى والخطو نحوه تحت ريادة جبرائيل يلتذون بهذه  
الرحلة وكأنهم يعلون ويرتفعون في رحلة معراج ويسمون. والحقيقة أن  
المؤمن ينظر إلى الموت والدفن في القبر نظرتة إلى بذرة بذرت في الأرض  
لتتحول إلى سنبلة، أو إلى حيمن يندفع لكي يتحول إلى إنسان كامل.

أيّ بذرة صالحة بذرت في رحم الأرض ولم تتحول إلى سنبلة؟ إن الله  
تعالى شرف الإنسان عندما نفث فيه من روحه وجعله مخلوقا مرشحا للحياة  
الأبدية. ومع أن الجسد سيفنى ويتحلل فالروح يبقى حيا إلى الأبد. وللموت  
لذة وسعادة عند الذين يدركون أن صاحب الروح هو الذي يقبض هذا  
الروح. فالموت والقبر عند هؤلاء عبارة عن مجرد ستار وفاصل توجد خلفه  
مباشرة وعلى بعد خطوة واحدة فقط بهجة وسعادة لا توصفان ولا تخطران  
على أي بال. وتراهم حتى وهم في هذه الحياة الدنيا وكأنهم في عالم القلب  
متكئين على الأرائك المزينة بالجواهر متقابلين وكأنهم في جنات النعيم.  
وذلك بدرجة غنى إيمانهم وأفق المعرفة التي يملكونها، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ  
مُخَلَّدُونَ ﴿١٠﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١١﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا  
يُنزِفُونَ ﴿١٢﴾ وَقَاكِهِ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٤﴾ وَحُورٌ  
عِينٌ ﴿١٥﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿١٦﴾ (الواقعة: ١٧-٢٣)، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ

وَتَعِيمُ ﴿ فَآكِهَيْنَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُنَّ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُنَّ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿ كَلُوا  
وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ  
بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ﴿ (الطور: ١٧-٢٠)، ﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ﴿  
يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمُ ﴾ ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ  
كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُا مَكْنُونٌ ﴾ ﴿ (الطور: ٢٢-٢٤)، ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ ﴿ فِيهَا سُرُرٌ  
مَرْفُوعَةٌ ﴾ ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ ﴿  
(الغاشية: ١٢-١٦).

فإذا كان هذا هو الوجه الحقيقي للموت، فخليق بنا -حتى من الناحية  
المادية والجسدية- ألا نبكي ونحزن، بل نفرح للموت الذي يُعدّ تمزيقاً لهذا  
القفس الجسدي، وتحريراً لنا من سجن ضيق، إلى جنات واسعة وبساتين  
خضراء شاسعة. نفرح لأن الموت هو الجسر الوحيد لهذا العالم السحري  
الذي يدير العقول والذي يطل علينا بوجه ضحك واطلاق في أحلامنا كل  
ليلة. هذا الموت الذي يأتي بأمره هو تعالى وبإذنه. وأصحاب القلوب  
المملوءة بالإيمان والمدركة لحقيقة الموت، وأبطال المحبة يقبلون على الموت  
بكل وجد وعشق لكي يحققوا الوصال مع الحبيب الأزلي. وعندما يتم هذا  
الوصال يذوب كل منهم كما يذوب السكر في الماء ويتحول إلى شراب،  
ويتغير ويتحول إلى رقة ولطافة أهل الآخرة، ويسبح ويغتسل بذكر الله الذي  
يتردد في أفواه الروحانيين وعلى أصوات رفرقة أجنحة الملائكة. وبخلاف  
الذين يلوثون ما حوالهم بنجاسات معنوية من أهواء وشهوات، ويشيرون  
شعور الاشمئزاز والقرف، في زمن يسيل دون انقطاع أو تغير، قد عجن  
بالأكدار والهموم، لا طلوع فيه للشمس ولا غروب... نرى روح المؤمن  
ينتقل مثل وردة من يد إلى يد، ويُشَمَّ في كل مكان يحل فيه كالمسك  
والعنبر. أما حاكم الأرواح والأنفس وسلطانها، فَيَهَبُ له ملكا وسلطنة تدير  
الرؤوس وتخطف الأبصار، ويفيض عليه بخلع وأفضال خاصة وجديدة على

الدوام لا تنقطع ولا تنتهي، وينير أفقه وما حواليه بأنوار جماله، ويسمعه قصائد وأنغام الرضى عنه، ويذيق روحه ألوانا لا تعد ولا تحصى من الجمال. ولكونه بطل معرفة حكمة الوجود في الحياة وسرها، يرى في كل منزل من منازل الآخرة -نسبة إيمانه ودرجة عشقه وشوقه- ما تراه الجواهر والالآت من قيمة وتقدير. وبخلاف من يمشي بخوف ورعب -من الذين أساءوا التصرف في حياتهم- في ظلمات حالكة، نرى أن كل بطل من أبطال الحقيقة هؤلاء يخطو في النور على الدوام في الصباح أو في المساء، ويعرف من النور، ويتجول بين الأنوار. لا يستطيع الظلام الاقتراب منه، ولا يستطيع الغروب إسدال ستار الظلام عليه. ومثل هؤلاء المحظوظين ينصون خيامهم في أفق بحيث يستطيعون التحول في الشواهد التي تشكل الغاية من خلق المشاعر الإنسانية، ويرتفعون من أفق الإرادة إلى ذروة الشعور، ومن ذروة الشعور إلى قلب العرش. وفي كل ارتقاء وعروج يجدون أنفسهم في وليمة مختلفة من ولائم المواهب، ويصلون إلى أنواع مختلفة من وجوه لذائد المشاهدة ووجد التأمل، ويعيشونه. وهذه نعم من الأنعام التي تتجاوز الإدراك البشري. ومع أن بعض أبطال القلب ذاقوا جزءاً من لذة هذه الألفاظ في الدنيا، إلا أن التذوق الكامل لها وعيشها كاملاً خاص بدار الآخرة فقط.

إن المؤمن الذي يصل إلى هذا اللطف الإلهي وإلى هذه المرتبة سيجد في فمه لذة الشهد الذي لا يجده في أي قرص عسل، والزبد الذي لا يجده في أي مكان آخر. وفي ذلك العالم السحري الذي تبدلت فيه هذه السماوات والأرض، واختلفت وتغيرت، تلتف وتطوف أنواع من الجمال والفيوضات حول منبعها صباح مساء... تشاهده "هو"... وتعرفه "هو"... وتسمعه "هو" فحسب... وترتفع بجاذبيته وحبه والشوق إليه فوق مستوى ماهيتها، وترتبط بنور وجوده، وتبدأ باللمعان، وتكون كما قال الشاعر غالب:

لمعة من النور الإلهي،

لا يسعها فانوس السماوات...

فإذا كان الموت هو الجسر الوحيد الذي يوصل إلى هذه النعم والألطف، فإن الموت -حسبما أرى- يكون أطف أمل للإنسان وأحبه وأحلاه. ولكن كما أن مسألة الدعوة للحياة الدنيا لا تعود إلينا، كذلك فإن الرغبة في الموت وتمنيه وطلبه ليس من حقنا. ولكن عندما يدعونا الله تعالى نسرع إليه بكل حب وشوق. ولكن إن قال: "رويدكم!.. ابقوا قليلا" فلا يسعنا سوى الصبر المرير انتظارا ليوم الوصال واللقاء.

## العالم السري للمعابد

إن عالمنا عالم سحري يصل فيه الفن الإلهي والجمال الطبيعي في هذا الفن إلى ذرى سامقة تدوخ فيها الرؤوس وتدور، وتأخذ فيه الجوانب الديناميكية التي تشكل أساس وجودنا المادي والمعنوي إيقاعات متناعمة وساحرة من التناسب. عالم يحتضن فيه الجمال الكمال، ويحتضن الكمال فيه الجمال. هذا العالم البالغ ذروة الجمال... الذي يذهل العارفين بالجمال، وينتشي فيه المدمنون على الجمال ويشملون... هذا العالم يصل بمعباده وتكاياه وزواياه إلى أبعاد عميقة من السحر.

لقد كان بلدنا على الدوام مثل مراصد على سطح الأرض موجهة إلى اللاهائية، وهو بهذه البيوت المباركة يكتسب هيبة كهنية البحر المتلاطم الأمواج، ثم تتماوج وتتسع سعة السماء بعقيدة الأبدية، وتسيل إلى قلوبنا. ومن منائر ومآذن جوامعنا الضاربة تواريخها في أعماق التاريخ القديم تسيل عقيدة العبودية وفلسفتها بأصوات الأذان من فوق هذه المآذن فترتجف القلوب وتلتمع العيون. أما عندما كانت المشاعر نقية، والأفكار مرتبطة بالآخرة، والشوارع والدروب آمنة، والأسواق والتجارة نزيهة وبعيدة عن الغش، فإن جمال هذا البلد لم يكن له نظير... كان كأنه قطعة من الجنة، أو زاوية من زوايا السماء.

لقد ألفنا في هذا البلد منذ الأمس إلى اليوم أن ننتظر ساعات العبادة وأن نستمع إلى أصوات الأذان كأنها صرير أبواب السماء. وأن نهرع إلى المعابد - وكأنها منافذ ترصد اللاهائية وترنو إليها- ونتملئ بدفء العبادة

التي تفتح أمامنا عوالم سحرية وراء الآفاق تتماوج فيها الخيالات.  
أجل!.. ففي معظم ساعات الأذان وأوقات العبادة نحس كأن ألوان  
العالم الآخر، وأنفاس الملائكة -التي تسمو بأرواحنا وتطير بها- تملأ جوانحنا،  
فينقلب الوجود آنذاك إلى حال تنتشي فيها الأرواح، وينقلب الزمن إلى زمن  
سحري يحمل لنا جمالا غامضا مليئا بالأسرار. ولم أر مثل بلدي موضعا آخر  
فيه كل هذا الجمال والسحر الذي يبعث حزنا أخرويا رقيقا في قلوبنا، ولا  
أعتقد أنني سأجد. ويأخذ هذا الجمال مداه في الأيام الملتحفة بالأسرار التي  
تنزل فيها السماء إلى الأرض، وتنهمر فيها الأضواء من المعابد، ويبلغ  
الجمال حالا فوق الخيال حيث نعيش سحر الأرض والسماء.

في مثل تلك الأيام الساحرة تتمحي البيوت المبعثرة حول المعابد، وتمحي  
الأزقة والمحلات، ولا يبقى هناك سوى المآذن وسوى الكتابات الضوئية -التي  
تشكل كرنفالا من الأضواء- المعلقة بين هذه المآذن المهيبه التي تبدو وكأن  
رؤوسها قد بلغت النجوم. وتنهمر من هذه المآذن أصوات لاهوتية عدة مرات  
في اليوم، وتحيط بكل الأجواء وتنساب فيها، وتدق أبواب الصدور ومنافذها،  
وتحتضن الجميع وكل شيء، وتتجول به في الآفاق المجهولة والنيرة لأعماق  
السموات، بحيث يحس الجميع أنه محاط بأنوار من عالم آخر، ويتعرف كل آن  
بإقليم آخر للمعرفة الإلهية، ويصل كل آن إلى عتبة أذواق لدنية أخرى. ولو  
كان على وعي بهذه السياحة الفكرية لعاش في كل آن في جو آخر من أجواء  
العرفان ويجو آخر من الشعور لم يألفه من قبل.

إن الصوت الحقيقي والموسيقى الحقيقية لهذا البلد التي لا تصمت في أي  
ساعة من اليوم، والتي تعبر عن نفسها في كل وقت بأبعاد مختلفة، تأتي من  
هذه المعابد ومن أنوار العبادات التي تسحر دوما روح الإنسان، وتلهمه  
العشق والوجد، وتزيد من وجد القلوب ونبضها.

تمس المعابد أحيانا في أعماقنا همسات معان عميقة وخفية تشرح بها

صدورنا، وتشبع حاجات أرواحنا وخيالنا، وتقدم للكل حسب عالم فكره ودينه ما يغني نفسه ويجلب انتباهه.

أحياناً نستمتع إلى المعابد بلذة ووجد عميقين كأنها في جوها النوراني تحتنا على رحلة أبدية، فيلغنا قلق من يهيم برحلة غامضة في طريق سرّي لا نعرف عنه شيئاً، فتتصاعد انفعالاتنا وتزداد، وقد نضطرب ويتم فقدُ بعض الترتيب والنظام عندنا، ويظهر بعض الفوضى هنا وهناك. وأحياناً يزداد الجذ فنجس بالامتلاء عقب دعاء حار، أو تصفرّ منا الوجوه بخشية دعاء آخر... أحياناً نحس وكأننا نطوي المسافات في الأرض وكأننا في سجال معها، وأحياناً كأننا نذرع السماء ونصل إلى أحوال خارج الزمان وخارج المسافات. ولكن تفكيرنا في جميع هذه الحالات يتركز عليه تعالى في يقظتنا ومنامنا... ندعوه على الدوام ونبحث عن طرق الوصول إليه والاقتراب منه.

يُصدر المعبد على الدوام أصواتاً ونغمات مختلفة، ولا يلفه الصمت أبداً... ففي جوّه المضيء هناك على الدوام تتممة أو همس ما، قد يكون علينا أو سرياً، ولكن لا يستطيع الجميع فهمه. أحياناً يكون هذا الهمس بصورة نغمات مئذنة أو قبة فحمة تلف أفقنا، وتطنّ في كل مكان، ويتنّ كل جانب بصداها المنعكس. وأحياناً تتصاعد من شرفات المآذن أو من منابر المساجد، وتتماوج بلطف في الهواء، وتصل إلى المكان المراد الوصول إليه. وكما ينهمر المطر بعد الوصول إلى درجة معينة من الرطوبة وينزل إلى الأرض، كذلك تتحول هذه الهمسات والنغمات وتتضاعف وتنهمر على رؤوسنا كقطرات من الرحمة الإلهية.

أحياناً يلف الغموض والخفاء هذه الأصوات، وتطعم أرواحنا برقة عميقة إلى درجة يخيل إلى الإنسان أنه يستمتع بهذه الأصوات إلى دار العقبي، ويتحاور ويتسامر مع ما وراء الآفاق. وبين فينة وأخرى قد يشعر بالرجفة تسري في أوصاله، أو يحس برغبة في إطلاق صيحة فرح ونشوة.

نمر في اليوم الواحد بجوار المعبد عدة مرات، ونتملى منظره، ونتمتع فيه، ونملاً أعيننا منه، ويبدو لنا منظره العام كإنسان رفع يديه إلى السماء بضراعة. أما أروقه فكأنها عباد وصلوا إلى السكينة ووضعوا رؤوسهم على الأرض بخشوع. نافورات الضوء فيه كأنها رجال يجاسون أنفسهم ويكون على الدوام. وطيوره كأنها تنن وعلى أهبة الاستعداد للطيران والهجرة والرحلة إلى بعيد. هذه معان عميقة ذات محتويات مهمة بالنسبة إلينا، بحيث لا نستطيع سماع هذا من أكبر فيلسوف أو أي حكيم يبحث عن حقيقة الأشياء وراء الأستار.

لكي تتم معرفة كيف تنساب هذه المعاني وهذا الجمال الموجود في المعبد وتملاً العيون والأفئدة وتشبعها، وكيف تنفذ إلى أرواحنا مثل موسيقى حاملة، فمن الضروري وصول القلب إلى ساحل الإيمان، والتعود على لغة المعبد الخاصة وفهمها والتعود عليها. عند ذلك يمتزج معنى هذا البناء المبارك إلى قلب الإنسان، ويؤثر فيه إلى درجة بحيث تكون أرواحنا لسان حال جوّه وإقليمه، فتردد وتغمغم بالشيء نفسه من عالم المعاني، وصرح صور الجمال في أي حلقة من حلقات السلسلة الذهبية المرتبطة بها.

المعابد أماكن مباركة ومملوءة بأحاسيس ومعان أكثر من معاني أفضل لوحات عباقرة الرسم. وإذا استطاع الإنسان مشاهدتها وهي مرتبطة مع المعاني التي تحملها يجيل إليه أنه يتجول ويتنزه في ردهات سحرية لعالم كعالم الأحلام، ويخطو إلى الأمام وكأنه سيصل إلى الوصال الأبدي بعد خطوات، ثم يكون قيامه وعوده في ظل الشوق إلى ليلة الوصال ويومه الحبيب.

لقد أصبح المعبد بكل جوانبه بالنسبة لأرواحنا شيئاً مؤنسا ومألوفاً، وعامراً بالأحاسيس الحياشة والمشاعر الرقيقة. ففي حريمه نسمع كل مرة شيئاً مختلفاً، ونحس أحاسيس مختلفة، ونحاول بعبادتنا وأذكارنا التعبير عن هذه الأحاسيس.

في جو المعبد الفوّاح بعطر الحياة الروحية تلتمع أضواء أعماق عوالم كافة السماوات وما وراءها من عوالم الضياء. فهناك مهرجان من أنوار عالم العقبى تبرق على الدوام من شرفاتها وكأها نزلت من السماء إلى الأرض، ومن شرفاتها هذه تنعكس على القناديل حواليتها، وعلى زينة الكتابات بين المآذن، وتنعكس على ثريات الجامع ثم تسيل إلى قلوبنا. وكلما سالت تعمقت أحاسيسنا واغتننت. ولا تنفك الأنوار من الهطول على هذه القلوب المهتدية إلى الحق والتي تملك أحلاما وآمالا وأمانى بعدد نجوم السماء.

في هذا العالم الذي صيغت جميع محتوياته ومعانيه من الإيمان ومن الفكر ومن العواطف والأحاسيس والشعر، يحس الإنسان من الصمت العميق في أوقات مراجعة النفس ومراقبتها أصواتا شبيهة بأصوات الجنة... ومن الأضواء التي تلتمع فوق العيون وتنعكس على المشاعر، ومن المعاني الدافئة التي تحيط بالأرواح وتحتضنها، لذة خيالية في ليله ونهاره، وفي صيفه وشتائه.

وحتى في الأوقات التي ينغمس فيها البلد في ظلام دامس نجد أن المعبد يستمر- بأسلوبه الخاص وبلهجته الخفية والسرية وبعده اللاهوتي- بتلاوة شعره الخاص. وبينما يغط كل شيء ويغط الجميع في السبات وفي النوم، وبينما يتصارع الظلام مع الظلام في هذه العهود، يقوم المعبد وهو يلتحف بمزايا العهد الراشد وخصائصه، بأداء وظيفته في إبلاغ معانيه بأبلغ لسان وبأوسع المشاعر.

وهو بعد كل هذا يستمر في كل حال من أحواله... بصمته أو كلامه... بظلاله أو نوره... بمعناه ومادته... في سكب إلهامه- بصمت وهدوء- في صدورنا. ونحن نعتقد أن هذا الروح وهذا الشعر وهذا المعنى المترج في جميع القلوب المخلصة سيبتجدد على الدوام حتى أقول أعمارنا وغروبها بكل الألوان والأنوار الخاصة به.

## أوان الرجوع إلى النفس

بينما كنا نسير نحو مستقبل مفعم بالنور بقلوب ملؤها الأمل إذا بنا نسمع أصواتا كريهة ترتفع من اليسار ومن اليمين تدعو إلى عهد مظلم من جديد. سمعنا هذه الأصوات النشاز فقلقنا، "أبدأنا نرجع إلى أيام التناحر والشقاق؟" كم كنا معجبين بهم عندما كنا نسمع منهم هذه الكلمات: "احترام الإنسان وتوقيره، وإبداء الحب لكل ولكل شيء، والتعامل بكل مرونة وتساهل مع العالم كله" كم كانت هذه الكلمات ساحرة ومعسولة... كم أحببنا كلماتهم هذه وكم ضمنا التقدير لها في جوانحنا! أحببناهم وأعجبنا بهم... أعجبنا بكلماتهم ونحن نمشي في طريقنا نحو المستقبل بكل ثقة وأمن واطمئنان دون أن يخطر بالبالنا ظهور أي مصاعب أو أمور سلبية أمامنا، وإذا بنا نفاجأ بهم وقد انتصبوا أمامنا بكل ما في جعبتهم من حقد ونفور وغضب، وبدأوا -وهم يهاجمون جميع الأطراف- بسد الأفق بأفكارهم السوداء الكالحة، وبنسف كل الجسور وتعطيل كل الطرق. قاموا بكل هذا وهم يتظاهرون بأنهم رسل السلام والنور، وبدأوا بالعباب قدرة تحت هذا الغطاء. وفي أحيان أخرى كشفوا عن وجوههم الكالحة السوداء سواد القطران، وبدأوا يهاجمون الأفكار النيرة، ويشنون عليها حربا شعواء علانية وصراحة. ولم يتوانوا في هذه الحرب عن الافتراء على جميع الأفكار والحركات والفعاليات الإيجابية. والحقيقة أن هؤلاء لم يكونوا يبادق بيد قوى الظلام فقط، بل كانوا أيضا هم الظلام بعينه. وحتى عندما حاولوا

أن يظهرها وكأنهم مع النور ومع الضياء ومن أنصارهما، إلا أنهما كانا في الحالين يمشون وراء الشيطان ويوقدون نار الفتنة.

أجل!.. لقد ترك البعض منا منذ مدة طويلة كل شيء، وتوجه نحو تخريب عاطفة الأخوة والصداقة الموجودة بيننا. لقد دارت رؤوسنا إلى درجة أننا لم ننتبه إلى أننا كنا نهلك أنفسنا بأيدينا. والأنكى من هذا أننا كنا نربط جميع مشاعرنا وأفكارنا وسلوكنا بأحاسيس العداوة والبغضاء. وبدأنا نقوم ونقعد بهذه المشاعر وتنفس مشاعر الخصام، بينما كنا في حاجة ماسة إلى الأخوة والصداقة. كنا بحاجة إليهما ولكننا لم نكن نستطيع تحقيقهما. ليتنا استطعنا ذلك، ولكن هيهات. ولو كان بإمكاننا تحقيق مثل هذه الأخوة والصداقة بين أفراد هذه الأمة لاستطعنا تجاوز هذه المشاكل والعقبات الكبيرة والضخمة ضخامة الجبال بحملة واحدة، ولأسمعنا صوتنا حتى إلى النجوم في السماء. ولكن لم نستطع، أو بالأحرى لم يدعونا نحقق هذا، بل زرعوا الشقاق والنفاق بيننا، فأصبح بعضنا أعداء للبعض الآخر ومصدر همٍّ وغمٍّ، وبدأ بعضنا يضرب البعض الآخر، وتحول كل منا إلى شخص يعاني من مأساة هذا العصر. واليوم أصبح البعض منا ضد الجميع وضد كل فكر. فهو ضد كل من لا يفكر مثله، ولا ينفك عن معارضته وتشويه سمعته. ولا نفكر أبداً بأننا إن سرنا في مثل هذا الدرب فسنبقى وحيداً وسنكون أسارى نواقصنا، ونحوّل مستقبلنا المملوء أملاً إلى كابوس وإلى جحيم. بينما نملك العديد من أسباب القوة تشكل أساساً لآمالنا وعزائمنا. إذن فبعضنا قد غلبت عقولهم وقابليات التفكير والحكم لديهم من قبل أحاسيسهم وأهوائهم. لذا نراهم يعيشون حالة من التناقض في المشاعر، ويتعثرون على الدوام، ويعيشون أزمة في أفكارهم الرئيسية. فلا يمكن أن يشكل هؤلاء أمة واحدة على الرغم من كونهم أبناء بلد واحد، لأنهم وضعوا أنفسهم في مواضع معينة بحيث يهدم أحدهم الآخر... لا يشكلون أمة واحدة بل يعيشون أسرى في شبك الاختلاف والتساقط، ويموتون وهم أسرى.

ولا أدري، ألم يَحِنُّ بعد أو ان محاسبة أنفسنا كأمة؟ لأنه إن استمر عدم الإحساس هذا مدة طويلة فإنني أخشى -لا سمح الله- أن نهدم في المدى القريب ونبقى تحت أنقاض أنفسنا. والحقيقة، يجب ألا نغض الطرف أبداً عن مثل هذا الاحتمال، بل أن نخشاه وأن نعتمد جميعاً بحبل الوحدة والتضامن بقوة. إن أبرز خصائصنا كأمة، وأكثرها استحقاقاً للتسجيل هي أن كل فرد من أفرادنا يحمل احتراماً كبيراً للآخر. وإن أفضل منابع قوتنا هو تسانداً في مستوى القلب والشعور. وكلتا الخاصيتين تستندان إلى أننا نقبل الآخرين كما هم ونحترم أفكارهم. وفي هذا الوقت نرسل رسائل الصداقة، ونعدّ برامج العيش مع كل أمم الأرض، فلماذا إذن نضنّ على أنفسنا وعلى أمتنا بعُشر ما نبديه من استعدادنا لفتح الصداقة مع جميع الأمم في العالم؟

ومع أننا نرحب بالصداقة مع الجميع إلا أننا نتساءل: ألا يجب علينا أن نمحو أولاً مشاعر العداة والحقد الموجودة فيما بيننا؟ إن وجود مشاعر الحقد والكراهة والعداء عند أي شخص، سواء أكان هذا متديناً أو رجل علم أو رجل إدارة أو رجل فكر أو زعيم، يعد نقيصة كبيرة وعبية. وهم بهذا يمثلون ناحية سلبية في نظر الحق تعالى وفي نظر الخلق، وفي نظر هذا الجيل الناشئ.

إن توقيير الإنسان واحترامه من موجبات الإنسانية ومن ضروراتها، وحب الإنسان من شروط القرب من الله تعالى ومن الخلق. والذين يستهينون بالناس بتصرفاتهم أو بأقوالهم يُفشون في الحقيقة مستواهم الخُلقي. كما يفشي الذين يحقدون على الإنسان ويكرهونه ويعادونه نوعية ضميرهم ووجدانهم. بينما نرى أن أصحاب الخلق الرفيع هم من المتواضعين على الدوام، يهتّون كنسيم رقيق في كل مكان، ويستروح بهم الناس. وهم يعدّون احترام الإنسان ومحبته من أفضل الأشياء وأثمنها. ويرون أن حب الإنسان للآخرين، وكونه محبوباً من قبلهم، أفضل وأثمن من ملك الدنيا.

وأمثال هؤلاء يندرون حياتهم من أجل حياة الآخرين ومن أجل سعادتهم بكل همّة وعزم.

ومن السنن الإلهية أن أمثال هؤلاء الذين يحسنون الظن بالجميع ويحملون نوايا طيبة تجاههم، يحصلون على أضعاف مضاعفة لنواياهم وأفكارهم هذه. ومع أنهم لا ييغون هذا ولا يعنون أن يحصلوا على مقابل لعملهم إلا أنهم يحصلون على عشرة أضعاف ما يقدمونه مستفيدين من مزايا إنسانيتهم. أما الذين تركوا أنفسهم للحقد وللعداء، فإنهم يدمرون قيمهم الإنسانية، ويزيلون موقعهم في قلوب الناس. إن صرف الإنسان عمره في غمار المشاعر السلبية والسيئة عذاب لا يطاق من جهة، ودناءة من جهة أخرى. بينما رؤية الجانب الإيجابي في كل شخص واحتضان الجميع بطولة من جهة، وسمو من جهة أخرى... بطولة في التحكم بمشاعر الحقد والنفور والطمع. وهؤلاء الأبطال هم الذين يسيطرون على أهوائهم فيتخلصون من ذل العبودية للشيطان والعمل تحت إمرته. وفي لحظة واحدة يصبحون عباداً لله أعزاء الجوانب وأسيادا في عالمهم الداخلي.

لقد أصبحنا - كمجتمع - منذ زمن طويل أسرى رغباتنا وعبيدا لأهوائنا، وبدأ معظمنا يتصرف بوحى من الشيطان في قيامه وعوده، ننزعج من الجميع، ونزعج الجميع. وبهذا الأسلوب من التصرف نبتعد بسرعة - سواء أشعرنا بذلك أم لا - عن قيمنا الإنسانية ونعيش أزمات في أعماقنا. أجل!.. لقد استقرت المشاعر السيئة في قلوب معظمنا، مع أن هذه القلوب عشّ وخيمة للحب. فلم نعد نستطيع الآن حب الآخرين ولا احتضانهم ولا إبداء التسامح والمرونة تجاههم. وأصبحنا نلتذ بالتحطيم والتدمير والتخريب، وكالبيوم نقيم أعشاشنا فوق الخرائب، ونهجم على الجميع، ونسرع للتخريب برغبة وشهوة كبيرة، ونتورط بذلك في آثام لا نتغفر نحو الله تعالى ونحو بلدنا ونحو الناس. وأحياناً نقترف هذه السيئات ونحن نحسب أننا نقدم

خدمة نتوقع الشكر والحمد والثناء من الآخرين عليها. والشمس بدأت تطلع كل يوم على ظلم أو على اعتداء وتجاوز أو هذيان، وتمر الليالي حالكات الظلام، وأصبحت حالنا حال مجتمع عقد العزم على اقتراف الآثام. المشاعر الإنسانية بقيت خلف الأهواء النفسية بمسافة كبيرة، وتقدمت مقاييسنا الشخصية والمزاجية على المنطق وعلى الموضوعية. أما مشاعر المحبة والتسامح فقد ذبجت تحت خناجر العداوة. أما أعداد الأشخاص الذين أصدرنا بحقهم أحكاما جائرة بأفكار مسبقة فلا يعدون ولا يحصون. وليس من المعلوم ما سنفعله، ومتى سنفعله، ولمن نوجه شتائمنا، ومن سنقوم بإغراقه بالإهانات. فنحن نعيش في دائرة من الجنون وفي مجتمع شيزوفرينيا، فلا نشبع من الظلم، ولا نخرج من الاعتداء ولا نكف عن اقتراف الآثام...

إثمُ عدم احترام الحق، وإثم شعور الكره نحو الناس والنفور منهم، وإثم الاستخفاف بالأفكار، وإثم بذر بذور الفرقة والخلاف في المجتمع، وإثم النظر إلى كل شيء بمنظار أسود، وإثم عدّ الآخرين مجرمين وأنفسنا بريئين، واعتبار الآخرين من أهل النار أو من الرجعيين، وإثم القيام بعرقلة كل خطوة إيجابية، وإثم تخريب القيم الإنسانية... الخ من الآثام. وأنا أعتقد أنه آن الأوان للتوبة من كل هذه الآثام.

إذن تعالوا نتب من كل آثامنا مستغلّين بركة هذه الأيام التي أحاطت بنا، فنبداً بعيش فترة تطهر، ونعزم على احترام الآخرين، والحفاظ على جميع القيم الإنسانية، واحترام أفكار الآخرين، وقبولهم على ما هم عليه، وأن ندع النزاعات التي حدثت في الماضي ولا نثيرها من جديد، ولا نجعلها وسيلة لنزاع جديد أو خصام، وأن ندع تقسيم المجتمع إلى معسكرات مختلفة، بل لنؤكد على الوحدة والتساند على الدوام. فإن كانت قلوبنا لا تزال تنبض ببعض القيم الإنسانية، وإن كانت عضلاتنا لا تزال قوية إذن فليحتضن بعضنا البعض الآخر، ولنبحث عن طرق جمع ما سبق وأن بعثرناه من

أشلائنا هنا وهناك، وكيف نوحده هذه الأجزاء بقوة بحيث لا تنفصل ولا تتجزأ مرة أخرى، ودعونا نستنطق لغة القلوب التي تقربنا إلى الناس، وتوصلنا إلى الله، تاركين مشاعر الحقد والعداء التي تقطع علينا الطريق كل حين.

إذا كان المطلوب هو تحويل هذا البلد إلى جنة وارفة الظلال -وأعتقد أنه لا توجد شبهة في هذا الأمر- فلا ينجح في هذا ولا يستطيعه إلا من أقام هذه الجنة في قلبه أولاً. فمن لم يستطع تخليص قلبه وعالمه الروحي من قبضة المشاعر والأهواء التي تقلل من مستوى الإنسان، وتخفف من قيمته، فهو أعجز من أن يقدر على هذا، بل لو قُدِّر له -على فرض المستحيل- أن يمر من جنات الفردوس لكان من المحتمل أن يفسدها ويشوهها ويقلبها إلى سجون.

دعونا نضع يداً بيد مرة أخرى ونتكلم بقلوبنا ونُسمع النجوم ما يدور في صدورنا ولا سيما في هذه الأيام التي تترين فيها الآفاق بالرحمة الإلهية، وتحتضن الأنوار الآتية من وراء الآفاق قلوبنا... نتوحد في هذه الأيام المباركة التي تتردد فيها أنفاس جبريل عليه السلام، وتلتقي فيها الأدوية مع العلل والأمراض.

## الصبر

الصبر أساس مهم من أسس السمو إلى الفضيلة، وهو انتصار للإرادة. وعند غيابه لا يمكن توقع تهذيب الروح، ولا العلو للوصول إلى أسرار الذات. بالصبر يتخلص المرء من الارتباط بالتراب وباللحم وبالعظم، ويكون من السعداء المرشحين للوصول إلى عوالم عليا. فإن كان الصبر ممرا ضيقا، وقمة عالية صعبة الاجتياز إلى سلطنة عوالم ما وراء الأفق، فإن جندي الحق الذي عشق تلك العوالم وتوله بها حبا ووجداه هو البطل الذي يتحدى هذه الممرات الصعبة وتلك القمم العالية، ويراها سهولا منبسطة سهلة الاجتياز.

الصبر هو شعور المرء بالتناغم الموجود في ثنايا الفطرة وفهمه وتقليده. أجل!.. إنه جهد لفهم لغة الأشياء والحوادث، ودخول في حوار معها. وما أجلّ الذين يبدون صبرا وثباتا في سبيل إدراك هذه اللغة ومعرفتها، ثم يقومون بتأسيس جسر بين تصرفاتهم وسلوكهم وبين الحوادث المتدفقة عبر سبيل الزمن للتوحد مع الطبيعة! وما أسمى هذه الموسيقى الإلهية التي يترنم بها الكون! وما أسمى الإحساس بهذا التناغم ورؤيته، وما أسطع هذه الرؤية!

الصبر هو فهم لفعل الزمن وصروفه وتأثيره في الأشياء، وإدراك أن الزمن يأخذ الحوادث ويلوكها بين أسنانه الحادة ويفتها ويطحنها، ويقلبها من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل. والذين يعرفون كيف يكونون فولادا في أحيان وجليدا في أحيان أخرى حيال هذه الإذابة الصامتة للزمن، يستطيعون الوصول إلى بعد آخر في خط جريان الزمن فيتخلصون من العدم. ومن لم يستطع إدراك هذا عصرته يد الزمن.

أجل!.. إن الفطرة تقوم بكسر أرجل الذين لا يعرفونها ولا ينظمون سيرهم حسب قواعدها، وتسحق أرواحهم. بينما تكون لينة كالشمع في أيدي الذين يعرفونها، ويتناغمون مع روحها في سلوكهم وحركاتهم وسكناتهم، ويكسبونها لحنا داوديا.

آه من هؤلاء الأطفال الأشقياء الذين لا يدركون هذا السر... المتعجلين أبدا، الذين لا يدنون من الصبر ولا يتحملونه.

أجل!.. كم من شخص لا يعرف نفسه ولا يفهم الفطرة من الذين قضاوا سنوات عديدة وهم يجرون لاهثين، ولكنهم لم يستطيعوا التقدم شيئا واحدا. وكم من أشخاص على الرغم من أنهم يبدون ساكنين هادئين كنههم عميق هادئ، إلا أنهم ساروا خطوة خطوة دون توقف، وتغلبوا على جميع موانع وأستار الظلام، واجتازوا جميع العقبات بطريقة غير متوقعة... بهدوء ودون ضجة أو جلبة... دون مظاهر أو فخفخة... مثل المرجان الذي صادف كل أنواع الآلام في قاع البحر، وغرق في الدم حتى وصل إلى أفق الزبرجد.

تخترق البذرة التربة والصخر بصمت وبنبات حتى تصل نبتتها إلى سطح الأرض، ويعرض البرعم نفسه للشمس مرات ومرات، ثم يواجه هذا البرعم وطأة ظلام الليل مرات ومرات حتى يصل إلى ماهيته ويفتح. وما بالك بالوليد؟ إنه يبدأ بنطفة صغيرة في رحم الأم تنتقل من ظلام إلى ظلام. إن مسيرتها طويلة وتستدعي التأني والتمهل والصبر. أجل!.. إنها تنتقل وتقلب من شكل إلى شكل، ومن قالب إلى قالب. وبعد تسعة أشهر يخرج الطفل إلى الدنيا بهيئته التامة الخلق.

ثم لننظر إلى خلق هذا الكون العظيم. لقد خلقه الخالق القادر بكلمة "كن"، ثم تقلب المكان والأشياء في يد قدرته مليارات السنوات من طور إلى طور، ومن شكل إلى شكل حتى وصل إلى وضعه الحالي. فما أكثر معاني هذا، وما أكثر عبر هذا الدرس!

إن كل موجود في هذا العالم... كل موجود... ليس إلا انتظاراً متسماً بالصبر والمقاومة للوصول إلى هدفه خطوة خطوة... دون أي تعجل... ودون أي تغيير في الاتجاه... اتباعاً وامتثالاً لقوانين الفطرة.

آه من هذا الإنسان المتعجل أبداً!.. أنت الوحيد الذي يبدي نفاذ صبر... أنت الوحيد الذي لا يراعي الترتيب الموجود بين الأشياء!.. أنت الوحيد الذي لا يصبر على المسافات عند الصعود، فتحاول صعود عدة درجات في آن واحد وبقفزة واحدة!.. أنت يا من تنتظر النتائج دون أن تراعي الأسباب!.. أنت يا من تضع خيالات وتبني منها قصورا من زجاج وتغرق فيها!.. ثم ينتهي أمرك وتضيق بين ركام الأمان الكاذبة!.. أنت يا من تتحدث دون أن تفكر، ثم لا تأخذ عبرة من الندم الذي يعقبه، ولا تعقل!.. آه لو علمت!.. لو علمت كم تكون بعيدا عن القلب وعن الحب بحالك هذا، وكم تكون قريبا من الشؤم!.. ليتك تأخذ درسا مما يحيط بك من الحوادث التي كل حادثة منها خطيب بليغ، وكل واحدة منها لسان، لتتعلم منها كيف تراعي حق الترتيب والتسلسل الموجود بين الأشياء، وكيف تراعي الأسباب والنتائج!.. وليتك عرفت كيف تلجأ إلى الإيمان والعزم والإرادة وتعيش بها وليس إلى الخيال والتمني!

أنت موجود بقدر صبرك، ومنزلتك عند الحق تعالى هي بقدر صبرك... بقدر الصبر الذي تمارسه في أثناء حياتك باستمرار ودون أي انقطاع... الصبر الذي يقول كتابك الكريم عنه إنه الصبر على الاستمرار في ممارسة أجمل الصفات وأفضل العادات دون هواده ودون أي توقف... وبقدر ثباتك وقدرة تحملك تجاه القبح وتجاه ما تكره... وأخيرا بمقدار صبرك تجاه النوازل التي تصيبك دون سابق إنذار، أي بقدر ارتباطك بالحقيقة التي يرسمها الشاعر:

إن جاء الجفاء منك...

أو جاء الوفاء...

حبيب إلى النفس...

اللطيف منك أو البلاء..

التوجه على الدوام نحو كل ما يعلي المرء، والحذر من كل ما يسفل بالمرء ومقاومته، وأخيرا تحمل كل البلايا والمصائب -التي تنزل في وقت غير متوقع وبشكل غير متوقع وهزك- دون أي يأس أو إحباط... هذا هو الصبر الذي هو أمر من العلقم، ولكنه في نهاية المطاف شراب زلال.

الصبر هو الثبات في الموقع، وعدم تركه مهما بلغت الخسائر... هو الثبات في الموقع حتى ولو كنت تذوب مثل شمعة مشتعلة.

أين أنت أيها العزم؟! أين أنت أيتها الإرادة؟! أين أنت أيتها الشهامة؟! أين أنت أيتها البسالة؟! لقد دارت رؤوسنا وداخت من كثرة تغيير الطرق وتبديل الاتجاه... لقد انتهى أمرنا من كثرة تبديل المعشوقين والأحلاء... وأصبحنا دون قبة من كثرة تبديل المحاريب!

يقول أحد عشاق الحق والحقيقة: "لقد أرشدتني قطة"... قطة كانت تنتظر صيدها أمام جحر طوال الليل حتى الصباح دون أن تطرف لها عين... فما بالك أنت أيها الإنسان!.. قل لي كم انتظرت في محرابك الأبدي دون تحويل نظرك وبصرك، ودون تغيير طورك؟ أجل!.. كم مرة استطعت لم شملك دون غضب أو مرارة بعد تشتت ما نظمته، وتفرق ما جمعته، وداومت "من جديد" على طريقك مرة بعد أخرى؟ وكم من مرة رجعت بعد أن طردت من ديارك، ونفيت من وطنك، واغتربت في أرض الله فعدت ووضع جبينك على عتبة حبيبك؟ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ

الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿البقرة: ٢١٤﴾. إنه قريب من الذين يستمرون على الخط نفسه في إظهار العبودية له، ويتحدون الآثام ويناضلون ضدها، ولا يفقدون أملهم مهما اكفهرت بهم الأجواء، وثارت حولهم الأنواء. أجل!.. إنه قريب ممن يصفه الشاعر:

من دخل طريق العشق هذا...

لا يهاب الموت...

لقد سلكنا طريق العشق،

فلا يهمننا شيء سواه...

## إحساس آخر بالزمن

لكي نستطيع الإحساس بالشريط الزمني السعيد الذي نعيش فيه حق الإحساس يجب أن تكون الأرواح والضمائر مستعدة لسماع مثل هذه الموسيقى والشعر الآتي من وراء آفاق السماوات. أما الأرواح الفجة من حيث عواملها الداخلية وبيئتها الخارجية وأنماط سلوكها الحياتية... أصحاب مثل هذه الأرواح يحسبون أن الزمن عبارة عن تغير الأهلة لا غير في صفحة السماء.

لقد تلوث الجو العام في أيامنا الحالية بأصوات محطات الإذاعة والتلفزيون والطائرات والسيارات والبواخر والتراموايات، وبضوضاء الصفارات وجلبة الدعايات والإعلانات، إلى درجة أننا أصبحنا بحاجة إلى عملية جراحية روحية وفكرية. وما لم تتم مثل هذه العملية الجراحية، وما لم يتم التوجه الكامل للآخرة لا يمكن فهم وإدراك سماوية هذه الأشهر المباركة، ويصعب جدا، بل ربما يستحيل سماع الموسيقى الحاملة الآتية من وراء السماوات.

الأرواح النزيهة المتطهرة من الأرجاس المعنوية، المستعدة للتخليق في السماء، تتسامى أكثر في بعض الليالي في هذا الزمن المبارك، وتشعر بلذة أكثر، وتشم هذه الأيام مثلما تشم وردة عطرة، وتستمع إليها وكأنها تستمع إلى موسيقى عذبة، وتنهل منها وكأنها نبع كوثر. ويستطيع أكثرنا، بقليل من الانتباه مشاهدة بزوغ هذه الشهور المباركة على أفقنا في إطار من السحر والجمال وكأننا نلج إلى غابة من غابات السماء أو خليج أو ركن من عالم الآخرة، ويخيل إلينا أننا نساfer في عوالم أخرى، فتثور عندنا

العواطف والمشاعر، وتفور حتى نكاد نمزق قلوبنا البشري، وتكاد حدودنا البشرية لا تسعنا.

والحقيقة أن هذه الحال كانت هي حالنا الطبيعية في زمن من الأزمان. لقد أصبحنا الآن غرباء عن الأشواق الأخرى ولذائدها اللدنية التي كنا ننهل منها نهدلاً في السابق في كل موسم من مواسم السنة تقريباً. لقد أصبح معظمنا في جوع وظماً كبيرين من ناحية هذه المشاعر. ولكي نستطيع الاقتراب من تلك المشاعر العميقة السابقة يجب الانسلاخ عن المشاعر اليومية المعتادة، وأن تتطهر أفكارنا مما ألم بها من تلوث، وأن تتعمق آمالنا وتوقعاتنا المستقبلية. فإن نجحنا في تحقيق هذا الأمر استطعنا سماع وشعور العديد من الحقائق الدقيقة السحرية المخبوءة في ثنايا الوجود كل حين، والتي ترقق قلوبنا وتصقلها، وتعيننا على تخطي وتجاوز حدودنا وقابلياتنا، ولا سيما في الأيام المباركة التي تأخذ بيدنا إلى آفاق عالية.

أجل!.. إن الذين يستطيعون الاستماع إلى الوجود من خلال منافذ قلوبهم، تنقلب الأيام والليالي المباركة لديهم إلى شاعر يتكلم بلغة ما وراء هذا العالم، وإلى ملحن لألحان موسيقى من عالم آخر، فيهمسان في قلوبنا أعذب الكلمات والألحان. وتقوم هذه النسائم التي تهب علينا بإزاحة الصور الأخرى المادية التي تحيط بكياننا المادي لتوصلنا من خلال المنافذ والمرات الخاصة التي تفتحها في أعماق قلوبنا والمظلة على دار العقبى... لتوصلنا إلى السفوح المجهولة للعالم وللطرف الآخر لنغرق في لجة من الوجد. في مثل هذه الأوقات يكون الصباح كأنه سعادة الخطوة الأولى في دخول الجنة، والظهر كأنه أوان التخلص من تعب النهار، ولحظة الفرحة لرؤية الحبيب والتخلي بحسنه. ويكون المغرب أوان سعادة المشي لوصول الحبيب عند إقبال الظلام. أما الليل فهو أوان

لأنواع لا يستوعبها العقل والإدراك من ألوان جمال الخلوة. وكل وقت من هذه الأوقات يمر بطعم وبلذة مختلفة ثم يذهب ويغيب.

أما المناسبات المباركة كليلة المعراج، أو ليلة المولد، فهي من الليالي التي تُعدّ تيجانا على هام الزمن، وذروة الأيام القريبة من الله، أو هي الشواطئ والموانئ المفتوحة نحوه، ومنصات الانطلاق إليه. ففي هذه الأيام والليالي المباركة تبرق القلوب بشفافية غير عادية، وتتوجه الأرواح نحو اللانهاية وتطير إليها بشوق آخر، ويشارك كل شيء في الشعر الأزلي لما وراء هذه الآفاق، ويغطي سحر جو العالم الآخر كل جانب، ويغطي كل صدر إيقاعاً ونغمة ضراعة وتوسل لا يستطيع أي لسان التعبير عنه. ويتحول المكان نتيجة بعض التحليات الخاصة إلى أبواب و منافذ ونوافذ عالم وراء هذا العالم، ويقوم الزمان السذي يتبلور بتحول الآمال والتطلعات إلى ضراعات وتوسلات، ويبدو القرآن وكأنه نزل حديثاً، فكل سورة وكل مقطع، وكل آية، وكل جملة منه تهدر كشلال تدعو كل أناس إلى حياة جديدة، وتسقي قلوبنا الظامئة أكسير وماء الحياة، وتسير بها في سفوح جبال خضر من جبال الجنة لا ترى إلا في الأحلام، وتهدى لأرواحنا منافع وإيجابيات الإيمان. وتظهر معاني تعجز الألسنة عن التلفظ بها أو التعبير عنها.

إلى درجة أن مثل هذه السعة والغنى في الأرواح يطبع بطابعه كل شيء نراه ونحس به، ويطبعنا بطابع الآخرة، فنجد أنفسنا وكأننا في حلقة ذكر مهيبية من أصحاب دار الآخرة، أو كأننا نستمتع إلى أناشيد من الحور والغلمان في ذلك الفضاء الواسع.

بل يحس بعضنا في بعض الفترات أن هذه الحال من انطباع روحه بهذا الطابع الغني للآخرة يسحبه من النطاق الضيق لأبعاد الزمان لتأخذ به إلى أبواب الجنة التي تنلهف إليها طوال حياتنا، وهنا يشعر وكأنه على شاطئ عالم سحري وسري لم يره أحد أو يسمع به من قبل، ولا يمكن التعبير عنه

بأي كلمات. وفي مثل هذه الحالة الروحية يقوم العالم الموجود وراء عالمنا - حتى وإن لم نفكر أو نتكلم- بتقديم نعمات دون أي كلمات قائلا: "أنا على الدوام في أعماقكم... اهتزاز في آذانكم، وضوء في عيونكم، وسعادة في صدوركم... أنا في أعماقكم وفي الشواطئ المفتوحة على مشاعركم، وفي منطلقاتكم للسمو والارتفاع... تستطيعون -إن أردتم- أن تمتلكوني". ونعقد أن هذه الأضواء تنهال على قلوبنا من عالم الآخرة ضمن هذه المشاعر الفائرة والمتصاعدة إلى ما وراء هذه الآفاق، بل إلى ما وراء الورا، وبموج هذا الجو المحيط بنا بالأحاسيس وبالضراعة والدعاء، وبالشموع والأضوية الزرقاء والوردية والصفراء الموجودة في الشوارع وفي فناديل الجوامع، وفي أضوية الزينات بين المآذن.<sup>(١)</sup> ثم هناك هذه المعابد التي نهرع إليها مرة في الأقل كل يوم. وهؤلاء الناس الأطهار الذين تتشارك معهم المشاعر نفسها.

أجل!.. فلكل هؤلاء تقريبا وجوده وروحه ومعناه ولذته الخاصة به وسحره، ونكاد نسمعها كلها، ونحس بها. وعندما ترجع أرواحنا إلى أنفسها بعد أن تمتلئ بهذه المعاني، تستغرق في تمنع وتأمل عوالمها الداخلية العميقة، وتبدأ بالنظر إلى ما حوالها نظرة مختلفة عن السابق.

أجل!.. هذه الأيام المباركة التي يتم فيها الإحساس بالوجود وبالإنسان وبما وراء هذا الوجود إحساسا أفضل وأكمل، تُشعل في أذهاننا أقوى الأفكار، وتهدد أجمل الأشعار في أرواحنا، وتفتح أجمل أبواب الإلهام وأكثرها سحراً في أفئدتنا، وتهيئ لنا إمكانية التعبير عن أخفى مشاعرنا.

أحياناً يفضل بعضنا التزام الصمت أمام المهابة التي تجلج هذه الأيام، ويرجع ليتحاسب مع نفسه ومع عالمه الداخلي. ومن يدري فقد يكون هذا

---

(١) اعتاد الأتراك على كتابة عبارات الترحيب عند حلول مناسبة دينية ولا سيما عند حلول شهر رمضان بأضوية كهربائية بين مآذن الجوامع. (المترجم)

الصمت أبلغ من كل كلام في مجال الثقة والاطمئنان والحب وفتح الحزن للجميع. وأحياناً يكون مثل هذا الصمت المهيب تعبيراً عن المراقبة الداخلية والحس والمعرفة، وأعمق من كل ما يمكن أن يقال من كلام. ولعلنا نحتاج أكثر ما نحتاجه إلى مثل هذا الصمت البليغ والطلق.

وباعتقادنا من قبلُ على تنفس أجواء مثل هذه الأيام المباركة من شريط الزمن فقد نفذت إلى أرواحنا وامتزجت بها إلى درجة أنها ما أن تبدو في الأفق حتى تسري الفرحة والحلاوة في قلوبنا وفي شفاه قلوبنا، وتسري إليها من ألحان المعاني أعذبها وأبلغها وأوسعها، ونرى أن الخبر يتقطر بأنفس الأفكار على صفحات الأوراق، وكأنها نقوش وزينات. وإلى جانب كياناتنا وأوضاعنا التي نعيشها حالياً، نهدى كحالم بالأيام التي تتفتح كالبراعم من آمالنا ومن إيماننا، ونحسب أننا قد بسطنا أجنحة آمالنا ورغباتنا لنطير نحو عوالم جديدة.

لقد سكن حب هذه الأشهر المباركة والليالي المتميزة فيها، التي ترقى إلى الذرى في قلوبنا المترعة بالإيمان، وأحببناها ونظرنا إليها على الدوام وكأنها أطياف ضوء باهر. وحتى مع مرور السنوات والأعوام -التي قد تتبدل فيها أفكار ومنطلقات الإنسان- فإن هذه الأيام والليالي المباركة لم تفقد بريقها في ذاكرتنا وقلوبنا، ولم تتغير مشاعرنا تجاهها، وبقيت مصدر إلهام لنا على الدوام.

## تأملات حول العيد

الأشهر المباركة التي تتقدم على رمضان وتبشرنا بإشراقه هي بمثابة مؤشرات وعلامات صامته وهادئة على قدوم أيام مباركة وظهور بشائرها في الأفق... أيام مليئة بفيوضات تقبل كالسيل الهادر وتحتضن القلوب. ومع اليوم الأول من هذه الأشهر المباركة يحس صاحب كل قلب مؤمن أنه مغمور في جو رمضان. فتجده من اليوم الأول مستعرضا جميع مشاعره المتعلقة بعبوديته مدققا لها لكي يستفيد من بركة الشهر الكريم الذي أصبح منه قاب قوسين أو أدنى حق الاستفادة ويستثمره حق الاستثمار. فكأنه نهض من غفوة فأثر النعاس لا يزال في عينيه، وكلمات من بقايا حلم على لسانه، فيستجمع جهده لتركيز انتباهه وتجميعه حول هذا الموضوع، وتصيّد النعمة القدسية المتألّفة مع هذا التوجه ومع هذا القصد.

عندما تمتلئ القلوب بالمشاعر، وتبلغ الأرواح قوامها، يولد شهر رمضان من رحم الهلال، ولكن بقوة ضياء البدر من خلف البشائر المتعاقبة لهذه الأيام. ويهبّ كألطف نسيم، ويحيط بقلوبنا ويلطف أرواحنا وأجسادنا برقة الحرير، ويملأ أعيننا بصور الجمال الشبيهة بجمال سفوح الربيع، ويثر في أفئدتنا رغبة التسامي، ويدع في صدورنا انتفاضة حلوة كانتفاضة عصفور بالله القطر.

وأخيرا تنتهي هذه الضيافة التي تدوم شهرا، ويودعنا شهر رمضان الذي قدم بعطاياه الكثيرة... يودعنا ولكن الأرواح التي وصلت إلى حياة جديدة، والتي اقتبست من نوره، والقلوب التي استغرقت خلاله في التأمل والتفكير،

والتي ارتجت من خشية الله، والقلوب الهائمة التي خرجت تبحث عن مسالك وطرق الوصال؛ تحتضن بدفء أيام العيد هذه المرة. وكما يرى الإنسان البحر بعد قليل أن المياه تحيط به من كل الجوانب، نجد أنفسنا في العيد بعد انقضاء الأشهر الحرم الثلاثة في جو من الاطمئنان والسكينة... نحس هذا في أعماقنا، وبكل كياناتنا، وبكل ماهيتنا الإنسانية.

تبدو صلوات العيد وأصوات التهليل والتكبير وصدقات الفطر لأصحاب القلوب المؤمنة كمنافذ إلى عالم خيالي رائع، فينطلقون كقوارب أطلقت أشعتها للرياح. أجل، إن الجو العام في العيد، والسحر الذي يحيط به وبكل التصرفات والأصوات والحديث يجعل الإنسان يشعر وكأنه يرتفع نحو السماء ببطء ويتعد عن محله ومكانه الذي انطلق منه، ويعيش في مثل هذا الجو الساحر الذي تنهمر فيه الأضواء والأنوار.

في العيد نعيش الماضي والحاضر والمستقبل معا. يهياً إلينا وكأن هناك سحرا غريبا في الأصوات المرتفعة من المعابد وفي المنازل التي نزورها وفي الأيدي المباركة التي نقبلها... سحرا ما أن نلمسها حتى تفتح أمامنا منافذ عديدة للماضي. فنجد أنفسنا داخل مسجد قدم نجلس في صف واحد مع أجدادنا وأجداد أجدادنا. وحينما تلتقي شفاهنا بالأيدي الطاهرة نشعر وكأننا قد قبلنا مئات الأيدي المباركة فننتشي بفرحة غامرة. وعندما نمتئ أصدقاءنا وأحبابنا ونضمهم إلى صدورنا نحس وكأننا نضم أحببنا الذين عاشوا قبلنا وقبل هؤلاء في عهود سابقة. كل حركة في العيد وكل فكر وكل تصور وكل كلمة أو حديث وكل تصرف يبعث شريطا زمنيا من أشرطة الماضي، ويحيا ويحيط بكياننا، ويملاً أفقنا، ويصبح ملكنا، ويهب - حسب درجة ووسعة خيال كل منا- أتمودجا للبعث بعد الموت.

الأعياد في الحقيقة ترانيم قادمة إلينا من أجدادنا ومن جذورنا المباركة. بسحر هذه الترانيم نصل في كثير من الأحيان إلى عوالم ما كنا

لنصل إليها من قبل، إذ ندخل إلى كل مكان بسهولة الأحلام، ونتحول في كل الأماكن بسرعة الخيال طاوين الزمان الذي نعيشه بأزمة متداخلة بعضها في بعض. أجل، إن الماضي يعود إلينا بكل مجده السابق بدرجة تعائشنا مع سحر شهر رمضان، ويعود كل ما فقدناه من قبل، وتنفس من جديد رائحة تلك الأيام النقية ونستنشقها بعشق لتمتلي بها صدورنا، ونرتشف من الينابيع الفياضة الماضية، فنحسب أنفسنا في عالم آخر. وقد يبلغ بنا الاستغراق مبلغا نخال وكأن جميع من في القبور قد بُعثوا، وكل شيء ممزق ومبعثر هنا وهناك أشلاء قد تجمع وتوحد من جديد، ويرجع شتات الزمن الذي انقضى من أعمارنا ليحتضن أرواحنا، ونعيش -بجانب ما نعيشه اليوم وما عشناه بالأمس في أعمق الأذواق وأوسعها- في ذكريات لذائد روحية ساحرة، حتى إن عناصر اللذة والأذواق في هذه النقطة -كما هي في الأحلام- تكون متغيرة على الدوام حسب نياتنا وأفكارنا وميولنا، وتتحدد على الدوام حسب رغباتنا، وتلبس الحال التي نريدها، وبينما كانت هناك رغبة واحدة إذا بها تنقلب إلى ألف. فكل ما شاهدناه وكل ما سمعناه وكل ما أحسنا به نراه يتغير -بفضل سحر حارق- من شكل إلى شكل. وبذلك ندسم حياتنا بتلونات عديدة من حس لحس، ومن فكر لفكر ومن لذة للذة أخرى.

عندما ينشق فجر يوم العيد تنطلق أصوات التسبيح والتمجيد من المآذن، وفي الدقائق التي يبلغ الجو الروحاني الذروة في كل مكان نشعر بأحاسيس غامضة وسرية تثير خيالنا وتأخذنا إلى الأعماق، بل إلى أعماق الأعماق، وتهمس لقلوبنا بمشاعر لم يفصح عنها من قبل، ولا يمكن بحال من الأحوال التعبير عنها بأي كلمات ولا بأي لغة.

أجل!.. إن نغمة وصوت الأذان عندنا، النابع من عواطف وأفكار الموسيقيين السابقين الكبار أمثال "العطري" و"دَدَه أفندي"، وأصوات التكبير والتمجيد والتهليل وأسلوبها وطعمها وجمالها، هو اللسان الخاص لهذه الأمة،

ولغتها ذات الأبعاد المتنوعة الكثيرة السارية في عروقتها. هذه الموسيقى التي تهر عواطفنا وتعبّر عن مشاعرنا كأنها نغمات تهبّ على أرواحنا من آفاق ما وراء الزمن.

المؤذن بهتافه المتلاحق وكأنه يصدر أوامر، والإمام الذي يرتجف صوته ويثني بكلمات سماوية، وجماعة المصلين الذين يهدرون معا مثل أوركسترا... كل هذا يجري بدرجة من الأصالة والمهابة ويبعث القشعريرة في الأجساد. وعندما تتمم بهذه الأصوات المرتفعة من المعابد ونمسخ بها نحس من جديد بماضٍ طويل مجيد، بل أكثر من هذا بحقيقة عالمية شاملة، ونظرة تمتد من الأزل إلى الأبد، فنغرق في جو من السعادة.

إن المعبد -ولا سيما في أيام العيد- يمثل بجوّه الرقيق الناعم كالحريز، والدافئ دفاء عش الطير، والمملوء حيوية... يمثل صفاء المشاعر، وراحة الوجود والاطمئنان، وغاية العيش، ومغامرة الحياة، وجذور المعاني لأمتنا، وأسس ثقافتنا وخلود ديننا، وموسيقى لغتنا، ونظرتنا للحياة، ورأينا في الدنيا وأسلوبنا ولهجتنا، ويهمس لنا ليرينا الطرق المؤدية إلى الإنسان الحقيقي.

إننا نشعر على الدوام بهذه الأصوات التي تتردد في جوانب المعبد، ونجد في هذه الأصوات الدافئة انحناء السماء نحو الأرض، وتكامل الأرض مع السماء، وغمز النجوم لزهور الأرض وورودها، وبسمة الورود لأهل السماء، ونحس بالتواصل السري والسحري الدائم بين السماء والأرض ونكاد نراه رأي العين.

هذا الصوت وهذا المنظر وهذا الهمس الذي ينقل كل شخص -حسب قابلية روحه وعمق خياله- إلى عالم آخر يبعث في القلوب المؤمنة صورا رائعة من الجمال ترتعش لها الأفئدة وترق لها العواطف. وعندما تنتهي الصلاة وتختتم السياحة السماوية، ويودع المسجد مؤقتا، يعود الإنسان إلى الناس من جديد كأنه آتٍ من ضيافة الرحمن بعد أن اكتسب بُعدا وعمقا

حديدين، ويحتضنهم ويادهم التهاني، ويتقاسم مع كل من يصادفه في السوق والشارع، وفي البيت ومكان العمل، وفي المدرسة والمعسكر هذه الهبات والأعطيات التي أخذها واستلمها وامتلاً بها. وهكذا تكتسب أجزاء الزمان المحدودة ضمن بضع ساعات، بدرجة سعة القلب وعلو الروح، صفة فوق الزمان، فكأنه اكتسب خلوداً. ويتوضح لدى الإنسان كيف أنه وهو في الدنيا قد أسس علاقات عميقة مع الأبدية وما وراء هذا العالم.

ولا أدري كيف كان من الممكن وما الزمان المطلوب أو النظام الذي يمكن الاستعانة به لكي يحس المسلمون صغيروهم وكبيرهم بكل هذه المشاعر وهذه الأحاسيس والخيالات، وبكل هذه العواطف المتأججة، وتنعكس كل هذه الأصداء في أرواحهم، لو استعانوا بطرق أخرى أو سبل غير هذه السبيل. وأنا لا أعتقد إمكانية هذا الأمر ولا نجاحه في الوصول إلى كل هذه الروحانية الشفافة. لأن بهجة الأعياد وفرحتها وسعادتها ولذتها لا تتبع فقط من هذه الحياة المعاشة، بل من أبعاد الحياة التي سوف نحياها في دار العقبى. فكل من يعيش في خيال البرج العاجي لقلبه، يلقيه هناك سحر سيحسّه وسيدوقه في المستقبل إلى جانب ما ذاقه اليوم. ويتجول في عالم رؤى المستقبل الأكيدة التي تبدو لعالمه الداخلي أكثر ملاءمة ودفناً ونعومة. والإنسان في الحقيقة مجبول على التطلع والانتظار، يقضي معظم عمره في انتظار عوالم الأمل وأخيلته. ومعظمنا في انتظار جنة مرتبطة بمعنى لصيق بماهيتنا وذاتنا. وليس هذا الانتظار نابعاً عن عدم استحساننا أو عدم قبولنا ورضانا عن الحياة التي نعيشها، بل انتظار لمفاجآت إلهية لا تستوعبها خيالاتنا كبشر، ولا خطرت ببالنا، ولا على أسماعنا، ولم ندقها. والأعياد ألسنةً بليغةً تهمس بصواب هذا الأمر من منافذ قلوبنا إلى أعماق أرواحنا.

## ما يذكره الموت... وما بعده

يولد الإنسان لكي يموت... ويموت لكي يحيا... ويجيا لكي يعيش الحياة الأبدية... تأتي إلى هذه الدنيا فرادى... ونقطع الطريق الطويل لهذه الحياة فرادى... وعلى الرغم من جميع النواحي التي نشترك فيها مع غيرنا فكل واحد منا يعيش حسب قدره هو... يعيش قدره حسب البرنامج المخطط له... ثم يودع هذه الدنيا دون أن ينظر خلفه، ويرحل لكي يعيش حياته الأبدية.

أجل!.. ما أن يخطو الإنسان خطواته الأولى في الحياة حتى يكون العد التنازلي قد بدأ بالنسبة له. بل إن هذا العد التنازلي يبدأ في بدء حياته وهو جنين في بطن أمه، أي يكون بداية النهاية له. ومراحل الطفولة والشباب والنضج والكهولة والشيخوخة ليست سوى منازل مختلفة له. وحسب نصيب الإنسان وقدره إما أن يمر من جميع هذه المنازل ويستضاف فيها فترة، أو يجبر في نقطة مجهولة على ترك أحد هذه المنازل قبل بلوغ هدفه، مثلما يقذف أحد المسافرين من قطار متحرك في موضع ما قبل بلوغ القطار نهاية خطه، وهكذا تنتهي كل علاقة له بالدنيا. والذين تثار مشاعرهم وأفكارهم وتقلب على لظى النار كل يوم من مثل هذه الحوادث في أثناء سفرهم هذا بسبب تفكيرهم بالخطة الأخيرة، أو بسبب اقتراحهم من خالقهم حقيقة، يحسون باليد الباردة للعدم وهي تحول خلف ظهورهم على الدوام، فتصفرّ منهم الوجوه، وترتجف منهم الأبدان، وهم يتوقعون نهاية سفرهم في كل لحظة، ويترنحون ترنح الأوراق الصفراء في الخريف، ويحسون بكل ألم في كل

آن بأنهم في قبضة الفناء والتحلل. وكلما مرت الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات زاد وجلُّهم وخفقان قلوبهم، لأنهم يسمعون في كل صوت نغمة من نغمات الموت. وبنسبة النسائم التي تغذي شجرة الزقوم في قلوبهم تراهم يموتون مرات كل يوم ثم يحيون.

عندما تدور الأيام، ويقبل خريف العمر، يحس الإنسان أنه قد هُجر من قبل الجميع، وتُرك من قبل كل الأشياء... كأن جميع الموجودات قد أدارت له ظهورها وتركته وحيداً... يحس أن العواصف الباردة تصفرّ وتعوي من حوله، ويقراً فوق كل ورقة خريف صفراء كتابات قدره الحزين، ويسمع صرخاتها، فيرجع وفي حلقة غصّة، وفي نفسه انكسار، ولا سيما إن كان لا يؤمن بالحياة الأخرى. فهو يتخيل على الدوام في أعماق روحه شبح العدم بعد غروب حياته، ويلف القلق والخوف كيانه، ويشعر بالعرق البارد للموت يتصبب من جسمه.

لا يعود ما يموج حواليه من حياة زاخرة، ولا ما يضمه الوجود من ألوان مختلفة من الجمال يثيره... لا زقزقة العصافير، ولا أصوات خرير الجداول والمياه، ولا نغاء الحملان، ولا المناظر الخلابة للطبيعة التي لا يشبع ولا يرتوي منها الإنسان... لوحات الجمال هذه لا تعود تعني عنده شيئاً... لأن كل صوت يسمعه يذكره بالموت، وكل لوحة جمال باقية حزن له... كل ميلاد إشارة إلى الموت، وكل المولودين أسرى في يد الموت... كل فرحة انخداع وسلوى زائفة. في العالم الداخلي لهؤلاء تطارد الآلام الآلام. وكما يحدث في الكوابيس تجثم المخاوف على قلوبهم وتنقذ ألسنتهم على الدوام. نظراتهم متكدرّة، ورؤوسهم مشغولة بالهموم... وبسبب اقتراب النهاية ينقلب كلامهم إلى هذيان... وقبل دخول القبر يتصورون أنهم محاطون بالعظام العاجية للقبر وبالحيات والعقارب. أحياناً يحسون بأن أنوفهم لامست العدم،

وأفهم يصغرون ويصغرون حتى يتحولوا إلى ذرات من التراب، حتى إن بعضهم يتأوهون قائلين: "ليت أُمي لم تلدني".

أما إن أتينا إلى الذين زينوا قلوبهم بالإيمان، ونظموا موازين أفئدتهم حسب الدار الآخرة، وأدركوا أن "الإيمان نور وقوة، وأن الإنسان الذي حاز على إيمان حقيقي يستطيع تحدي الكون كله"، وعاشوا ضمن هذا التفكير والإحساس... هؤلاء تراهم على الدوام في جو روحاني، وهم يتذكرون مرحلة طفولتهم كنعمات نشوة، ويتهجون بوجودهم وبجياتهم. يقضون شباهم كأبطال إرادة وفضيلة وعفة مثل النبي يوسف عليه السلام، ويزينون مرحلة نضجهم بسلوك يكون قدوة لمن يأتي بعدهم، ويكونون كأضواء الطريق مرشدين إلى الصراط القويم على الدوام. ويقضون شيخوختهم بمجدية وعزم وثبات "أولي العزم"، السائرين باطمئنان يذكّر باطمئنان الأنبياء، وكأنهم يسبحون في شعاب الجنة.

وبينما يكاد يقترب غيرهم من الجنون عند تعرضه لخسارة فادحة، أو لأزمة ومشكلة كبيرة، يحتمي هؤلاء بإيمانهم وآمالهم ويجنون ثمارها، ويجسسون بهجة وجودهم هنا وغدا في حياة أبدية في الآخرة، فيقضون حياتهم وكأنها آيات من شعر جميل، أو كأنهم يسبحون في عالم من الخيال، إلى درجة أن أي إشارة إلى الله تعالى وإلى الدار الآخرة ينقلهم بمنطاد سحري إلى سياحة روحية خارج هذه الآفاق... إلى أعماق الفضاء. وبنسبة استسلامهم لمشاعرهم الفوارة ولسحر أفكارهم، نرى أن كل روح مؤمن يتعد عن أسر المادة والجسم ويفتح أشرعتة على الفضاء الرحب للروحانية، ويجس بجميع المشاعر الرومانسية التي تفوق كل تصور لعالم فوق هذا العالم المنظور.

أجل!.. ما أجمل المشاهد التي يشاهدها قلب كل مؤمن في هذا المعرض المليء بالأسرار... وما أكثر الخوارق التي يطلع عليها، وما أخفى الأصوات التي يسمعها، وما أكثر الأمور غير الاعتيادية التي يأتي وجها لوجه معها، وما

أكثر ما يتلقى من مديح من أنواع الجمال التي تحييه. وكم من مرة يُسحر بمجموعات وقطوف من الأصوات، فيكاد يغشى عليه. وكما في الأحلام يستطيع الوصول في لحظة واحدة إلى كل ما يراه أو يسمعه أو يفكر به، ويحس بنفسه في غمرة شلال من السعادة والبهجة... يحس بكل هذا فلا يرغب أبداً في انتهاء عمره... ليس مثل عباد الدنيا، بل لكونه يصل إلى أنواع من الجمال الحقيقي وراء أستار الوجود، ولا سيما إلى الترددات والموجات المختلفة لصور الجمال المطلق.

والحقيقة أن هؤلاء، بفضل بذرة الإيمان في قلوبهم، لا يشبهون الآخرين الذين يخيم زقوم جهنم على أرواحهم، لأنهم يواجهون على الدوام عالم الآخرة بمناظرها الخلافة، ويتخيلون أنهم يتنزهون في سفوح الجنة التي يمكن رؤية الحق تعالى منها، ويعيشون حالة تكاد تتحد فيها الدنيا بالآخرة، والروح مع البدن، والمادة مع ما فوق المادة وما وراءها.

وعندما يأتي اليوم المرتقب الذي ينزاح فيه الستار عن العالم الآخر، تظهر بذرة جهنم الموجودة في الفكر مثل كابوس أسود يخيم فوق كل جانب، وتثور ثورة حمم البركان، فترتعب منها الأرواح، وتنتشر كضباب وكدخان أسود فوق جميع الآفاق، وتتحول إلى عذاب يكوي النفوس، وإلى مصيبة تنهمر كالمطر فوق الرؤوس. بينما تتحول بذرة شجرة طوبى الجنة الموجودة في القلوب المؤمنة إلى شجرة باسقة ذات أغصان متشابكة تبتسم للقلوب التي نمت فيها وترعرعت وبسقت، وتتعطر بالروح والريحان، وتنقل كل من تمسك بأغصانها وأوراقها -مثل مصعد سرّي- إلى الطمأنينة والراحة والرضوان وإلى الأبدية وإلى الجنة، وترفعهم إلى الأفق الذي يشاهدون منه الجمال الإلهي. والخلاصة أن البذرة التي تحملها كل زمرة في هذه قلوبها، تنمو حتى تعكس بشكل مفصل كل ما يحتجى من معان في هذه القلوب، وكل ما تشاهده وما تعيشه كل زمرة، وترى كل شيء عيانا بياناً،

ولا سيما عندما ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ فَبِذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمِ عَسِيرٍ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (المدر: ٨-١٠) أو ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْحَبِيمُ سُعِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير: ١١-١٤).

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ ﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ ﴿لِكُلِّ امْرَأٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ﴾ ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ (عبس: ٣٤-٤٢). ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (الإنسان: ٤-٥).

في ذلك اليوم المذهل الذي يصبح عالي الأرض سافلها، وتقطع فيه الروابط بين النجوم، وتنتشر يمينا وشمالا كحبات مسبحة، يكون قد آن الأوان لكي تنمو بذور جهنم الموجودة في الأدمغة، وبذور الجنة المستقرة في القلوب. أجل... ففي جانب نرى الصورة المرعبة الآتية: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَبَاتِي﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا﴾ (الفجر: ٢١-٢٦)، ومن جانب آخر نرى البشارة العظمى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ﴾ ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠).

وطوال هذا الطريق يحس الإنسان بنشوة النعم وجمالها، أو بقبح المصائب وعذاباتها... بالنسائم الرقيقة الهاية من الجنة... أو بريح السموم الصادرة من جهنم والتي تكوي حتى العظام: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢-٢٥). فأما الفتنة الثانية فيقال لها: ﴿انظِّقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ﴾ ﴿انظِّقُوا إِلَىٰ ظِلِّ

ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ \* لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُعْنِي مِنَ اللَّهَبِ \* إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ  
كَالْقَصْرِ \* كَأَنَّهُ جَمَالَةٌ صُفْرٌ \* وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿المرسلات: ٢٩-٣٤﴾.  
أما الفئة الأولى فلها البشارة الكبرى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ضَلَالٍ وَعَيُونَ \*  
وَفَوَآكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ \* كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* إِنَّا كَذَلِكَ  
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (المرسلات: ٤١-٤٤).

أجل!.. ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ إِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
يَاوِيْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ \* إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٧-٩٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ  
سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ \* لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ  
فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ \* لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَاهُمْ  
الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠١-١٠٣).

ثم هناك فرحة المتقين عندما يأخذون كتبهم بيمينهم، فرحة تلف كتابهم  
وتطلق كصرخات فرح وحبور وحمد وشكر: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ  
فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً \* إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً \* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ  
رَاضِيَةٍ \* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ \* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ \* كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ  
فِي الْآيَامِ الْخَالِيَةِ \* وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ  
كِتَابِيَّةً \* وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَّةً \* يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ \* مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهٖ  
\* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً﴾ (الحاقة: ١٩-٢٩). أما الذين أوتوا كتابهم بشمالهم فهم  
- كما ورد في الآية أعلاه- يتنون في حسرة أليمة ويتأوهون.

أما المجرمون فهم في ضلال وسعر: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ \*  
يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (القمر: ٤٧-٤٨). أما  
المتقون فهم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ \* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ  
مُقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٤-٥٥).

النعمة المنهمرة كالطرر، والتي لم ترها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تخطر

على قلب بشر من جانب، وجهنم التي تسمع لها شهيقا وهي تفور وتكاد تميز من الغيظ من جانب آخر: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٥٨﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَاتٍ لَّهُمْ فِيهَا الْأَبْوَابُ ﴿٥٩﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٦٠﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَثْرَابُ ﴿٦١﴾ (ص: ٤٩-٥٢) ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٦٢﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبئْسَ الْمِهَادُ ﴿٦٣﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٦٤﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٦٥﴾﴾ (ص: ٥٥-٥٨).

بعضهم في فرح وحبور، لأن النعم تنهمر فوق رؤوسهم، وبعضهم في ترح وغم وهم: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٦٦﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٦٧﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٦٨﴾ وَظُلِّ مَمْدُودٍ ﴿٦٩﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٧٠﴾ (الواقعة: ٢٧-٣١) ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٧١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٧٢﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٧٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٧٥﴾ (الواقعة: ٤١-٤٥) ﴿أَصْحَابُ الْحَنَةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ (الفرقان: ٢٤).

وبينما تمتلئ قلوب هؤلاء بلذة النعم المهداة لهم، تلهج ألسنتهم بالحمد: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٧٧﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٧٨﴾﴾ (فاطر: ٣٤-٣٥).

## الأفق الذي يبرق

عندما يصارع الضوء الظلام يصل إلى عمقه الحقيقي... والجمال يظهر بشكل أفضل عندما يحيط به القبح... كما يظهر تفوق الأحيار عندما يكونون بين أشرار، على الأقل بالنسبة لبعضهم. وعندما يكون المجتمع في حاجة للأمن والطمأنينة يدرك بشكل أفضل حاجته الماسة إلى هذا الأمن ولأجله يموت و يجيا. ولا يعرف طعم الراحة إلا من ذاق مشقة التعب والإرهاق، كما لا يعرف قيمة الجنة إلا من ذاق أهوال المرور على الصراط. أحلك وقت للظلام هو في الوقت نفسه بشائر أنوار الفجر. والليل يحمل جنين نور النهار، ويحمل برد الشتاء وثلجه جنين الربيع. وعندما تنتهي الأسباب ولا يعود لها أي تأثير تتوجه القلوب إلى صاحب القدرة اللاهوائية. وحسب قاعدة "المشقة تجلب التيسير" فإن المشقات تفتح أبواب اليسر على الدوام.

وفي هذه الأيام التي تتقلب فيها في دائرة مفرغة من الصعاب والفوضى وعدم وضوح الرؤية نعرف مدى أهمية الطمأنينة والراحة، ونعرف قدر النور بعمق أكثر، ونرى بشكل أوضح وأعمق جمال الإيمان وجمال العبودية لله، ونشعر في وجداننا بالثقة والاطمئنان الحقيقي الذي ينبع من الإيمان. نحس بشوق أكبر نحو الخير وبازدراء أكثر نحو الشر. ولكي نتطهر أكثر نستحم في شلالات هذه الأيام المضيفة، ونحنّ إلى شهر رمضان، ونشتاق إليه مرة أخرى.

من يدري كم مرة رأينا وعشنا شهر رمضان، ولكننا في هذه الأيام التي أحاطت سلبيات مختلفة بالأمة، بدأنا نعيش أيام غربة ولوعة وقسوة تكاد

تقصم ظيهر إرادتنا وعزمنا. ومن كثرة ما تعرضنا للهجوم وللإهانة وللظلم في غمار هذا الجو القاسي الذي تحولنا فيه إلى غرباء في أوطاننا، أصبحنا نتوقع في كل يوم اعتداءً جديداً، وبدأنا وكأننا تعودنا على أن نكون مظلومين. وقد يعود هذا إلى الانسياق العبودي لدينا. هنا نفتح صدورنا لربنا وندعوه بإخلاص وبجرقة متضرعين إليه: "يا ربنا!.. يا مسبب الأسباب!.. بعد تجهم الأعداء وتجاهل الأصدقاء مع ضعفنا وعجزنا فقد انتهت ونفدت الأسباب... لقد أحاطت بنا الحيرة ونحن نسلك الطريق إليك مثلما حدث لسائر السائرين في هذا الطريق... لا تدعنا وحدنا، ولا تجعلنا من منكودي الحظ من المتعثرين والوحيدين في الطريق يا رب!" نقول هذا وتناؤه. وبقدر الآلام التي نتعرض لها، وتتجرع غصصها، ندق باب رحمته بيد العجز والحاجة... ندق بابه فقط لا باب غيره، ومنتظر منه توجهه والتفاته إلينا، لأننا نوحده ونثق به ونتوكل عليه. ولا أذكر أننا توجهنا في شهر رمضان آخر، وعشنا بمثل هذا العمق الذي أحسنناه في قلوبنا، وقد لا نعيش مثله أبداً.

أجل!.. كم من مرة أدركنا هذا الشهر المبارك، وكم من مرة تعرضنا إلى نسائمه المحملة بالكرم واللطف، وكم من مرة حاولنا كأمة أن نقمّم هذا الشهر المبارك بأيامه المجيدة ونستفيد منها كما يجب. نتذكر تلك الأيام التي انتشرت فيها الحرب والضرب، وغطى الضباب والدخان على كل شيء<sup>(١)</sup> وتذكر أيام شهر رمضان الحزينة التي كانت تبرق وتلمع مرة وتنطفئ أخرى مثل صواريخ الاحتفالات... في تلك الأيام الحزينة من شهر رمضان التي كان الفقر المادي والمعنوي فيها متداخلاً بعضه في بعض ومتراكماً، ربطنا عزمنا بآمالنا مترنمين ببيت الشعر الآتي:

---

(١) يشير الكاتب هنا إلى أيام الفوضى والاعتقالات المتبادلة بين اليسار المتطرف واليمين في تركيا في السبعينيات التي قاست منها تركيا كثيراً، ولم يعد هناك أمان للنفس، وأدت في النهاية إلى الانقلاب العسكري في ١٩٨٢. (المترجم)

عندما يتجلى الحق يكون كل شيء سهلاً ميسوراً،  
يخلق أسبابه في لحظة ويهبه إحساناً منه وفضلاً...

كنا في ترقب أيجابي ننتظر انفراج باب غير اعتيادي بين الإفطار  
والسحور... كان شهر رمضان آنذاك شهراً فعالاً وحيوياً... ولكن يتيماً  
في الوقت نفسه.

شهور رمضان تلك كانت من جانب متشابهة مع شهور رمضان  
الأخرى وغير متشابهة كذلك. كانت فيها فصول من خيبة الأمل  
والتوحس... طلعت علينا تلك الشهور وأشرق... ثم غابت وغربت بعد  
أن أهدت لنا -مثل نجوم السحر- أغنية وداع حزينة.

لا شك أن كل شهر من شهور رمضان رفر فبطعمه الخاص فوق  
رؤوسنا بصوت رقيق كرفرفة أجنحة الملائكة، وأهدى لنا نورا من أنواره  
التي قد نستطيع حدسها أو لا نستطيع، ثم ودعنا ورحل. والقلوب اليقظة  
التي تستطيع سماع هذا الصوت في أعماق وجدانها تكون كمن تهرع على  
الدوام نحو ساعة حظها وسرورها، وكأنها تتوجه نحو شهر رمضان الذي  
يحمل معه بشرى الولادة الأبدية وتنصت إليه.

أحياناً يكون الإنسان -حسب تلك الأحوال- مرتبطاً بالمعاني التي  
تلهمها تلك الأيام وتلك الليالي، فيحس مهدوء وراحة وكأنه يعيش حياة  
متناغمة وموزونة وكأنه قد انفصل من جو هذا العالم المملوء فساداً وتلوثاً.  
هذا الفساد الذي يبعث القياء في النفوس. كأنه يمشي بكل فرح نحو أفق  
مشرق مملوء بالأمل، لا يرى من حوله سوى لوحات الجمال والفرح، ويرى  
الحياة التي يعيشها مملوءة بالنظام. كأنه طير سابح في الفضاء بكل هدوء  
وراحة لا يعكر صفوه أحد. وأحياناً يعيش انهزاماً داخلياً وكأنه في نهاية  
خريف الأمل والبهجة، قد تصدعت إرادته، وانكسرت عزيمته وضاق أفق

أمله، وبهت روحه، وبدأ بالتفكك والانحلال داخلياً، وبينما كان بروحه ومعنوياته طيراً سابحاً في الأعالي إذا به يخلد إلى الأرض.

والآن هناك الكثير من الضغوط وأنواع من الإكراه والظلم والتحكم والاستبداد، مما يسّر لنا إمكانية اكتشاف ذاتنا. أجل!.. فكما يشعر من يحمل في كل عضو من أعضائه جرحاً أو ألماً شعوراً قويا وحادا من الألم، أي يشعر بالألم في كيانه كله، كذلك حالنا نحن الذين نعيش منذ سنوات عهداً من الظلم والتحكم والطغيان والغدر، فقد أدى هذا إلى انتشار وعي صامت ولكنه عميق... وعي تدريجي ولكنه مستمر وقوي ومتصف بالعزم بأن الحق لا يُهدى ولا يُفضل به، ولا يُتصدق به من قبل أحدهم. لذا نمّد إلى شهر رمضان أيدينا في جو من الإشراق الروحي لكي يفتح لنا باباً نحو أيام جديدة مضيئة للمستقبل، ولكي نتوجه ونرجع إلى ذاتنا وهويتنا بشكل يشبع العين والقلب، ويصمّت الأتھار الجارية بهدوء وبمهابة، وبرقة النسائم المنعشة التي تهبّ بكل رفق. والذين يشاركوننا هذه العاطفة والفكر يكتفون أحياناً بالتمهل والانتظار مع أنهم يملكون قابليات كبيرة وإمكانات واسعة في مجالات عدة مثل الطائر الذي يظل محلّقاً في مكانه بتوازن دون أن يرفّ بجناحيه، وأحياناً لا يستعملون -لحكمة ما- العديد من البدائل المتاحة لهم، ويفضلون انتظاراً فعالاً وليس انتظار غفلة. ونراهم أحياناً وهم يتوجهون بحبّية وجدية تفوق ما كنا ننتظر منهم نحو المبادئ التي عشقوها وارتبطوا بها بقلوبهم.

يتوجهون إلى الله تعالى بالصوم وبصلاة التراويح وبالعبادة مثل توجه الملائكة الكرام... يتوجهون دون توقف بكل إخلاص وبذلة شديدة وبرقة بالغة... الدموع في أعينهم... والرحفة والخشية في صدورهم.

هؤلاء الأبطال الذين ينشرون النور والضياء حتى الصباح مثل الشموع المحترقة، ويجاهدون ويحاربون الظلام، والذين تركوا أمر العيش من أجل

النفس ونذروا أنفسهم من أجل العيش لهداية الآخرين... هؤلاء ييدهم وسائل ووسائل نفخ في روح هذه الأمة وفكرها، وبالبراهين المستخلصة من لب وعصارة ماضيها، لا يفترقون عن محاولة إعادة تلك الأيام المجيدة دون بأس أو كلل. ونحن نتمن جهودهم هذه بجهود أولي العزم من الناس... هذه الجهود المباركة تجعل من وقتهم وزمانهم هذا زمنا ساميا، وليس كشرطي زمني قصير ومحدود. فمن ناحية ماهيته ولّبه وجوهره وبالألطاف الإلهية المنهمة عليهم يصبح هذا الزمن متصلا بأقدم القدم وبالعهد الذهبي المجيد من ماضيها من جهة، ومن جهة أخرى ممتدا نحو الأبدية. حتى إننا لو نظرنا إليه بنظرة الروح المرتفعة فوق الزمان والمكان، ورصدناه بمركز الروح، لرأينا بكل بحة ودهشة كيف أن العديد من المستحيلات تتحقق بفضل الإيمان، وتتم به.

من يدري كم من الأمور المخفية والسرية تكشف عنها كل يوم مثل هذه الرؤى، وتفتح الأبواب المظلمة على الحقائق أمام الذين يملكون مثل هذه الأسباب، وتهدئها لنا، وتنفث الانشراح والبهجة في قلوبنا المهمومة، وتنقذنا من الارتباط بأنفسنا وبأحوالنا، وتنقلنا إلى الجو المتفائل للإيمان وللأمل.

شهر رمضان أنسب موسم للدعاء والمناجاة والتوجه إلى الله وأفضل منبع لتداعي الأفكار والمشاعر. ففي جوه الجميل الملون بألوان قوس قزح تتماوج القلوب كتماوج رائحة البخور من المباخر، وتحتفل به الأرواح في سحر كل يوم، وتغرد في بسايتها وخلجانها مئات البلابل. وفي الجو المضيء لشهر رمضان لا نسمع في كل حال من أحوالنا، وفي كل طور منها وفي كل عاطفة من عواطفنا، وفي كل عبادة من عبادتنا بعض الأصوات وبعض الكلمات وبعض الأفكار والملاحظات من ماضيها المجيد، بل كم من نداء آت من وراء الأفق نحسها ونسمعها، ولا سيما إن كان شهر رمضان مثل شهر رمضان عامنا هذا الذي جاء بعد عهد طويل من الإمساك، والذي

مزق السكون المخيم علينا منذ قرون!.. أما نحن الذين نؤمن بأن شهر رمضان منبع لمثل هذا النور، فإننا نصل إلى مثل هذا التناغم لا بنسبة ضآلتنا وقلة قيمتنا، بل بنسبة عظمة شهر رمضان وبركته، وبنسبة وسعة رحمة ربنا، ويأخذ كل شيء مكانه الطبيعي، حتى نصل إلى عمق أفقي وتبلغ قلوبنا سعادة الشعور بالقرب من الحق تعالى، وترتعش جوانحنا أمام تجليات رحمته، ونشعر بنسائم الأُنس به وهي تحيط بنا من كل جانب، فنقول كما قال الشاعر:

يا رب!.. عدمُ معرفتك حسرة،  
والقرب منك جمرة نار،  
جمرة في صدورنا،  
تفوق جمرات نار المواقد...  
أما عشقك... آه من عشقك...  
إنه الجنة الحقيقية...  
ماذا لو أحييتني وبعثتني،  
بعشقك يا رب!..

نكرر مثل هذه الأبيات ونعيد النظر في توحدها وتكاملنا مع أفقنا ومبدئنا، ونتلاءم مع هذا الجو إلى درجة أننا نفرح فرح الأطفال الأبرياء من جهة، ومن جهة أخرى يستطيع روحنا الحساس سماع ألف آهة في مركز عالم ذي قطبين،<sup>(١)</sup> والعيش في ثنائية تعادل فيها آلام روحنا أفراحها، وقلقها بمحبتها، وآمالها -المستندة دوماً إلى الحيلة والحذر- صامدة وقوية، ومحاوفها في يد الرجاء. ولكننا نتوجه دائماً وأبداً بمشاعر عميقة تستهدف التوحيد من أفق إلى أفق بروح مرتجف تكاد قبته تنفجر من حمل مشاعره وتفتت.

---

(١) كان هذا قبل انهيار الاتحاد السوفيتي. (المترجم)

أحياناً تقوم العين في الساعات والدقائق التي نعيشها في هذه الأيام المباركة بإفشاء أسرار عالمنا الداخلي بذرفها الدموع، فتعبر عن أفكار ما كنا نستطيع التعبير عنها بكل هذا الوضوح، فنفرح بهذا، ولكننا في الوقت نفسه نرجع إلى أنفسنا عندما نرى أن العين - بدموعها - قد تقدمت على الأذن والقلب، فيظهر أماننا هاجس ألا تكون هذه الدموع خالصة له.

أحياناً تكون نسائم شهر رمضان من الرقة والأنس فوق كل توقع، فتمتلئ قلوبنا بأحاسيس لا نستطيع وصفها أو تقييمها، ونحسب وكأننا قد استسلمنا إلى تيار سري غامض أو أننا فوق جسر ينقلنا إلى الجنة. ولكن عندما ينقطع هذا التيار، وتنتهي سياحتنا هذه التي أوصلتنا حتى حافة شاطئ الميناء دون أن ندري، نحس بأننا نكاد نخرج ونُحرّم من طريق الجنة هذا، فنشعر برجفة تنتشر في أوصالنا. ولكن سرعان ما تتلقفنا تداعيات أعمق، وموجات أخرى أكبر وأقوى على غير توقع منا، فنجد أنفسنا وقد تجاوزنا حدودنا، ودخلنا بلطفه في شلالاته، ونستمر في هذه السياحة الأنفسية وكأن شيئاً لم يحدث.

في كل ليلة من ليالي رمضان نهبّ من فراشنا وكأننا مقبلون على سفر بعيد، ونضع حظراً على النوازع الجسدية. وبمشاعر خفية ومقفلة على الدنيا ومفتوحة على "الحبيب" نتوجه إليه وحده، ونكاد نعدو من لهفتنا وفرحنا وشوقنا. وبالنسائم السحرية التي تهبّ علينا من حولنا وتحتضن كياناتنا وتلفه، نبعد عن المشاغل اليومية وندخل في جو الآخرة. في مثل هذه الأحوال تنفث ساعات الإشراق هذه سحرها في أرواحنا، وتشعل في قلوبنا شرارة الخلود والأبدية. تحمل مثل هذه اللحظات من الأنس واللطف والحلاوة والصدق بحيث أن كل ثانية منها بل كل ثالثة كلما توزعت وانتشرت وتعمقت في حنايا ضلوعنا، نحس وكأننا دخلنا إلى عالم الوصال، إلى درجة

نتخيل فيها أن قبة وجودنا تكاد تنشق ونتقل إلى العالم في الطرف الآخر.  
وهذه وتيرة طبيعية كما قال الشاعر:

يا قلب!.. صاحبُ النفس هو الذي طلبها...

لم الحزن؟ هي ليست لي وليست لك...

كم تكون حلاوة هذه الدقائق وهذه اللحظات في العمر ضمن هذه المشاعر اللدنية، حتى إننا قد نشعر بالامتعاض من مرورها السريع، وتنمى دوامها ونقول: "ليت مثل هذه اللحظات الحلوة من شلال الزمن لا تسيل بمثل هذه السرعة، ويا ليتنا كنا نملك الإحساس بها بكل ثانية أو ثالثة أو عاشرة، مثلما يحس الإنسان بحلاوة شراب بارد في كل نقطة من النقاط التي يمر عليها".

تشرق الشمس في كل يوم على مشاعرنا هذه. وعندما يرتفع الأذان فوق المآذن في الظهر تنداعى هذه المشاعر مرة أخرى. وكل غروب يهب لأرواحنا أقداح الفرح والحزن. وتلفنا كل ليلة بسحر الخلوة، وتفتح مغاليق ألسنتنا لنبتّ لواعجننا، فيسرع كلّ منا إلى سجادة الصلاة لينفَس عن حسرته وعن لواعجه وعن فرحه... يئن أحياناً، ويصرخ من الفرح أحياناً أخرى.

وهكذا يمر شهر كامل في أفق فكرنا بنفس الروح وبنفس المعاني التي تبحث عن طرق الارتباط به تعالى... يمر الشهر ويمضي على الرغم من توسلاتنا وضراعاتنا بالألّا يتركنا. ولكن ما أن يغيب هلاله حتى تهل علينا شمس العيد التي تنير آفاقنا وتملأها نورا وضياء.

## مشاعر العيد

العيد هو عصارة شهر رمضان بكامله، ولّبه.. وهو يقبل علينا وينثر على رؤوسنا هباته من وراء هذا العالم، فإذا هو بشرى البداية في ضمن النهاية. إن الإحساس بهذه البشرية يختلف من فرد لفرد ومن مجتمع لمجتمع. فبمقياس الاحساس العميق بشهر رمضان الذي مضى وانقضى، وبمقياس تلون القلوب بلون هذا الشهر، وانصبغها به، وبمقياس سمو المشاعر إلى ما وراء هذه الآفاق، بل إلى ما وراء الورا... بهذا المقياس تكون بركة العيد ذي الدلال، ونشوته ومقدار سحره.

كل صوت وكل همسة ونأمة، وكل حركة في مثل هذا العيد الذي تستشعره القلوب في أعماقها، هي تعابير وإشارات مبهمة للأرواح، ولكنها سحرية إلى درجة أن العارفين بالحال يدركون - وإن كان بمقياس صغير - أنه ما من تأثير يفوقه. ويتعامل الشاب والشيخ، والمرأة والرجل، والعالم والجاهل، والتلميذ والأستاذ، والعامل وأصحاب الحرف من الذين يملكون منافذ وإن كانت صغيرة في قلوبهم مع سحر هذه التعابير بمقاييس مختلفة، فيتلون كل مجلس يوجدون فيه بعطر العيد، وتتألاً البسمات فوق العيون وعلى الشفاه، وتُسقي القلوب بشراب الكوثر.

يهب العيد أنسه لكل إنسان في كل شريحة من شرائح المجتمع، ويتسلل إلى أعماق الجميع، ويُسمع صوته للجميع، ويعمل ما بوسعه ليجذب الجميع إلى جوه. لا يُكره أحداً ولا يرتبط بالبروتوكولات، ولا يهدد من لا يجاريه في السر أو في العلن. ولكن يهرع الجميع إليه من كل قلوبهم بقوة الفطرة السليمة الموجودة لديهم، ولا يكتفون بالتهنئة، بل يعيشونها.

وبينما يعيش أصحاب القلوب المؤمنة الذين أدركوا العيد دقائقه وثوانيه النورانية التي تعدل السنوات، ويشعرون في جو الفرح والحبور المحيط بهم أينما ذهبوا وأينما تجولوا وكأن هناك أشياء تنثر على رؤوسهم من فوق وتصبّ، وتلفّ كل كيأهم، وتدخل إلى أعماق أرواحهم، تراهم يتوجهون إلى المصدر الذي وردت منه هذه الهبات، ويحسون بأن كل موجود حواليتهم -حيا كان أم جمادا- يذوب أمام ناظرهم، وأنهم مدعون إلى عالم آخر، فيعيشون على الدوام خارج حدودهم. والذين يشعرون بموهبتهم هذه في مثل هذا الجو الروحي، ويعرفون كيف يستنطقونها، يستطيعون بنسبة غنى الأفق المضيء لحدود معرفتهم، ولمدى حيوية عشقهم وشوقهم القيام بمزج مشاعرهم العميقة هذه، فيصلون هم ومن حولهم إلى عوالم من لذة العشق، وإلى أنس فريد في العلاقات الإنسانية.

كل صوت وكل نفس وكل تصرف في شهر رمضان يبدو لنا -في كثير من الأحيان- وكأنه أنغام الغناء المؤثر الرقيق لأمهاتنا قرب مهادنا. وأحيانا تبدو لنا هذه الكلمات وهذه الأفكار وهذه التصرفات من الرقة والحلاوة والليونة بحيث أننا في كل مكان نتجول فيه نحس أننا -بعد هذا الاستحمام الذي تطهرنا به- بخفة الطير، وأنا أصبحنا كأصحاب الأرواح الهائمة فوق المكان وخارجه.

وعندما يقابل الإنسان في العيد شخصا ويلقى منه معاملة طيبة، يتوقع مثل هذه المعاملة من الآخرين كذلك. فإن أضاف إلى هذه المتعة التي يلقيها طوال اليوم في عالم الحقيقة والواقع متعة تخيل وتصور ما سيلقاه من الآخرين يكون قد أنشأ عالما ساحرا جديدا خارج هذا العالم المحدود بأبعاده الثلاثة، وخارج هذا الزمان النسبي، عالما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يحط به عقل دنبوي.

أجل!.. أحياناً يكون العيد بالنسبة لهؤلاء الذين يتلبسون العيد تماماً، بل يتحولون إلى معنى العيد نفسه بكل أحاسيسه ووجدته ولهفته ومشاعره... يكون شيئاً خارقاً ونعمة مهداة من الله تعالى إلى درجة أن الإنسان يحسب أنه قد بدأ ينتزعه في سفوح الجنة في يوم رؤية الله تعالى والنظر إلى جماله، بل إن الإنسان ليحسب أحياناً العيد شقيق روحه، أو نسخة ثانية منه، ويحس أحياناً كأن للعيد أجنحة مصنوعة من ريش الملائكة، فيشعر في كل مكان يتحول أو ينتزعه فيه بنفحات هذا الرفيق الخفي وشوقه. صحيح أن العيد -بمقياس ما- ينطق كل أحد بمنطقه، ويظهر حكمه على الجميع، إلا أن له تأثيراً آخر وتأثيراً متميزاً على بعض الأرواح.

أحياناً يتحول العيد بأصوات التكبير المرتفعة من المآذن، وبالآنين الأخرى للمحاريب، ويسمو إلى شيء آخر، بحيث إن الكثيرين يشعرون في تلك الساعات المباركة كأن جميع معاني السماء وعصارتها تنهمر عليهم، وأن أسرار العالم الآخر بدأت تهبّ كغيث مدرار، فيشعرون كل آن وكأنهم يتجرعون كؤوساً من جو الجنة ومن رحيقها.

في كل عيد تقريباً نتخيل -حسب قوة العوامل ونسبتها التي تثير مشاعر الفيوضات الربانية عندنا- وكأن العيد قبة محاكاة من النور والألوان والمعاني والروح فوق رؤوسنا، وكأننا نستطيع مشاهدة اللاتهاية من المنافذ الصغيرة أو الكبيرة الموجودة في هذه القبة. وبفضل هذا الأفق الواسع الذي يهبه الإيمان للمؤمنين يفكر المؤمن كيف أن هذا الزمان والمكان المحدودين يمكن أن يبعثا عديداً. وكمثال الملائكة التي تملك أجنحة وأبعاداً عديدة، نتقل بها - وإن كنا محدودين بزمان ومكان معينين - بمشاعرنا وأفكارنا من خلال مرآة عديدة إلى الماضي وإلى المستقبل وكأننا ننظر من خلال فانوس الزمن الحالي، فنعيش في آن واحد أزماناً عدة، وفي أماكن عدة. وأحياناً تتوسع هذه الحال فنضم آخرين إلينا، ونقوم بصفتنا مؤمنين نحمل في وجداننا بذرة ونواة

الإيمان بوجود الجنة، فنتخيل أننا نرفرف بأجنحتنا فوق تلال الجنة مع الأرواح، ونتوجه معها نحو اللهاية. وأمام هذه الهبات التي تفوق لياقتنا يترنم كل واحد منا بأبيات شعر:

لستُ أهلاً ولا مستحقاً لكل هذا الإحسان،

فلمَ وهب لي كل هذا اللطف والإحسان؟

ثم نرجع إلى أنفسنا لنقول: إذن فهذا هو العيد. أحياناً، وبفضل فوران إيماننا بصاحب الرحمة غير المحدودة فإن طوفان الأضواء التي تتفجر من وجداننا وتنتشر حولينا تقوِّض كل الموانع والحجب المادية حولنا وتجعلها جذاذاً، وتغرق كل جانب بالنور إلى درجة أن القلوب تحسب وكأنها تطالع أعماق السماء من خلال منافذ ذلك المرصد الكبير، وتطلع على أسرار الوجود الموجودة خلف الأستار، فتعيش -وهي في هذا العالم المحدود الضيق- في عوالم جديدة، وترتفع وإن كان بخيالها وروح الفضول فيها من هذا المكان ذي الأبعاد المحدودة، لترى بأن المكان هو في الحقيقة "لا مكان"، والجمادات أصحاب حياة وروح، والتجليات الإلهية ظاهرة عياناً بياناً، فنحس برحفة في كياننا، ونشعر بجانب رعشة المهابة هذه بجرارتها، ونقول ونردد مع الشاعر:

الشعور بقربك يا رب جنة

فاسعدني بهذا الشعور دائماً وأبداً...

وتذوق من طعم العيش في حماه، والانتساب إليه لذة لا توصف، ويبدأ بالبحث عن الطرق الموصلة إلى "حظيرة القدس".

نسرع إليه على الدوام... نعيش مرتبطين به... ونحتضن كل شيء من أجله... نتأمل الربيع بكل نشوة... نشم الورود... نكون في مسامرة مع الوجود... أحياناً نخطب الجبال والتلال والهضاب والسهول... نعرض كل

صفات المؤمن تجاه الحياة وتجاه الوجود... ومن حين لآخر نقوم بدق بابه بأرق الأمنيات وبأنين صادر من الأعماق، ثم نضع جباهنا على عتبة بابه ونفضي إليه بكل ما يعتلج في صدورنا.

أصوات الأذان، وإقامة الصلاة، والصلوات، والأدعية، والمناجاة والاستغفار، والمراقبة الداخلية للنفس هي أنواع مختلفة من رموز التوجه نحو باب الله تعالى وإشاراته. ومع أن من المستحيل أن نعرف كيف ستُستقبل هذه التصرفات وهذه الأصوات المرتفعة أمام ذلك الباب، في ذلك العالم الآخر، حسب نسبة الاخلاص والتقوى، وحسب وجود أنفاس الروح فيها، ولكننا نحس أحياناً بكياننا وهو يذوب في مثل هذه المشاعر والأدعية والمناجاة. أحياناً عندما نعجز عن التعبير عن الانفعالات التي تمر في أعماقنا، ولا نجد الكلمات المناسبة للإفصاح عنها، نركن إلى صمت فائر. وبانفعالاتنا الصامتة هذه ننتظر ونتربص جواباً من مكان ما لموقفنا الداخلي العميق واللدني. وعضواً عن صممتنا تترقب صوتاً هادراً. ومع أننا لا نستطيع سماع هذا الصوت الآتي بوضوح، ولا نعرف أيأتي من الملائكة أم من الروحانيين أم من المنافذ المجهولة في وجداننا، إلا أننا نؤمن بأن مثل هذا الجواب سيأتي حتماً، وسنسمعه من خلال الرعشة التي تصيبنا، فنرتجف من الخشية أو نفس عن أنفسنا بدموع الفرح التي نذرفها.

في كل وقت تقريباً عندما نمر بهذه الحالة الروحية نحس أن نظرنا للحياة تتبدل وتتغير. ويبدو لنا وكأن الوجود والحوادث تعيش مرحلة تغير وتمييز. وأمام هذا الوضع الخارق وغير الاعتيادي الذي نرى أنفسنا مندفعين إليه ندرك تماماً أنه من المستحيل على البعيدين عن نور هذا الدين أن يسمعوا أو أن يفهموا ما نحس وما نسمع.

بفضل هذه المشاعر وهذه الأحاسيس تبدأ أحياناً الحقائق المقدسة والمبهما التي ترسخت في أرواحنا في العهود المبكرة بشكل معارف بدائية...

تبدأ تتفتح كالأزهار النضرة في شعاب قلوبنا بفضل النور والإيمان اللذين يملكان قوة إنبائية. فرى كيف أن تلك الحقائق المجردة التي قبلناها ببراءة الأطفال تعود إلى كياننا ووجودنا. هنا نذوق ونحن في دهشة طعم تحول هذه الأسرار النائمة في صمت في أعماقنا إلى براعم ثم تفتحها أزهارا.

والخلاصة أن العيد يولد كل مرة في سماء دنيانا بَدْرًا، ويمتد في أفقنا مثل قوس قزح... وهذا النور النابع من وراء علمنا يهب لنا فرحة تفوق فرحة ليلة عيد البحرية التي تأخذ فيها المدن عندنا كل زينتها، وتطلق فيها صواريخ الاحتفال إلى السماء. وفي كل ناحية من نواحي الدنيا يحلّ فيها هذا العيد يقوم الناس له تعظيمًا وحبًا مثل قيامنا نحن. لأنه يهب لأرواحنا أحلى الأشعار بأجمل العبارات، وأرق الأنغام، ويفتح الأبواب أمام فضولنا بيلماءاته وإشاراته، ويهمس جو الآخرة في قلوبنا.



## فهرس

٥.....	المقدمة.....
٩.....	سحر الاسلام.....
١٥.....	أفق القرآن الساحر.....
٢٣.....	الدعاء.....
٣٠.....	الكعبة.....
٣٥.....	الروضة المطهرة.....
٤٠.....	المسجد الأقصى.....
٤٥.....	أياصوفيا.....
٥٣.....	القرآن - ١.....
٥٨.....	القرآن - ٢.....
٦٥.....	الحج.....
٧٩.....	الصلاة.....
٨٩.....	الميلاد السعيد.....
٩٥.....	المجرة النبوية.....
١٠٠.....	أفكارنا ومثلنا في ظلال القبة الخضراء.....
١٠٥.....	من فيض العيد.....
١١٠.....	المعاني الفياضة من المعبد.....

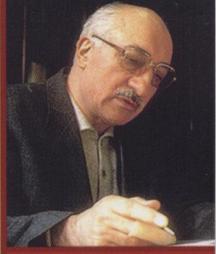
١١٥	الرحلة المباركة .....
١٢٠	الإثم .....
١٢٤	التوبة .....
١٢٩	عندما تنبض القلوب بركة .....
١٣٤	الشهر المائل بالمغفرة .....
١٣٩	العيد السعيد .....
١٤٢	الوجه الآخر للموت .....
١٤٨	العالم السري للمعابد .....
١٥٣	أوان الرجوع إلى النفس .....
١٥٩	الصبر .....
١٦٤	إحساس آخر بالزمن .....
١٦٩	تأملات حول العيد .....
١٧٤	ما يذكره الموت... وما بعده .....
١٨١	الأفق الذي يبرق .....
١٨٩	مشاعر العيد .....

## المترجم للعربية من الفكر الموسوعي لفضيلة الشيخ فتح الله كولن

- ١ . النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية (مجلدان)
- ٢ . سلسلة النور الخالد (٧ أجزاء)
- ٣ . القدر في ضوء الكتاب والسنة
- ٤ . أسئلة العصر المحيرة
- ٥ . روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
- ٦ . طرق الإرشاد في الفكر والحياة
- ٧ . أضواء قرآنية في سماء الوجدان
- ٨ . الموازين أو أضواء على الطريق
- ٩ . ترانيم روح وأشجان قلب
- ١٠ . ونحن نقيم صرح الروح
- ١١ . حقيقة الخلق ونظرية التطور
- ١٢ . التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح

[www.ar.fgulen.com](http://www.ar.fgulen.com)

# تُرَانِيمُ رُوحٍ وَأَشْبَانُ قَلْبٍ



مُحَدِّثُ اللَّهِ كَلِمَاتٍ

هذا الكتاب مجموعة مقالات افتتاحية يواصل الأستاذ كتابتها في مجلة شهرية، وهي تؤكد المزج بين القدرة الدينية والقدرة الأدبية عند هذا الرجل، يعالج فيها قضايا إيمانية عظيمة الأهمية بأسلوب أدبي رشيق يستطيه وينجذب إليه القراء مهما كانت مستوياتهم الثقافية والفكرية.

ولا شيء من الوصف يصدق على المؤلف كما يصدق عليه وصفنا بأنه روح عظيم حَوَّامٌ فوق عظيم الأفكار بدافع من شرف المحتد، ونبيل الخلق، وطهارة الضمير، وهو كثير الانطلاق إلى مواطن الذكرى من التاريخ الذي ينتمي إليه، حتَّى غدا قلبه غابة شجن ووَجد، ودمعه ينبوع حرقه وكمد، يكاد يتمزق عندما يُمِرُّ على أطلال حضارة كانت يوماً مآلاً عين العالم وسمعه، أو يُقَلَّبُ صفحات دين مهجور جفاه أهله، ونأى عنه القريب قبل الغريب. وجهل ناسه مواطن العظمة فيه فنسوه وأهملوه.

تُرَانِيمُ رُوحٍ  
وَأَشْبَانُ قَلْبٍ

ISBN 975-315-163-2



9 789753 151634



دار النبل